

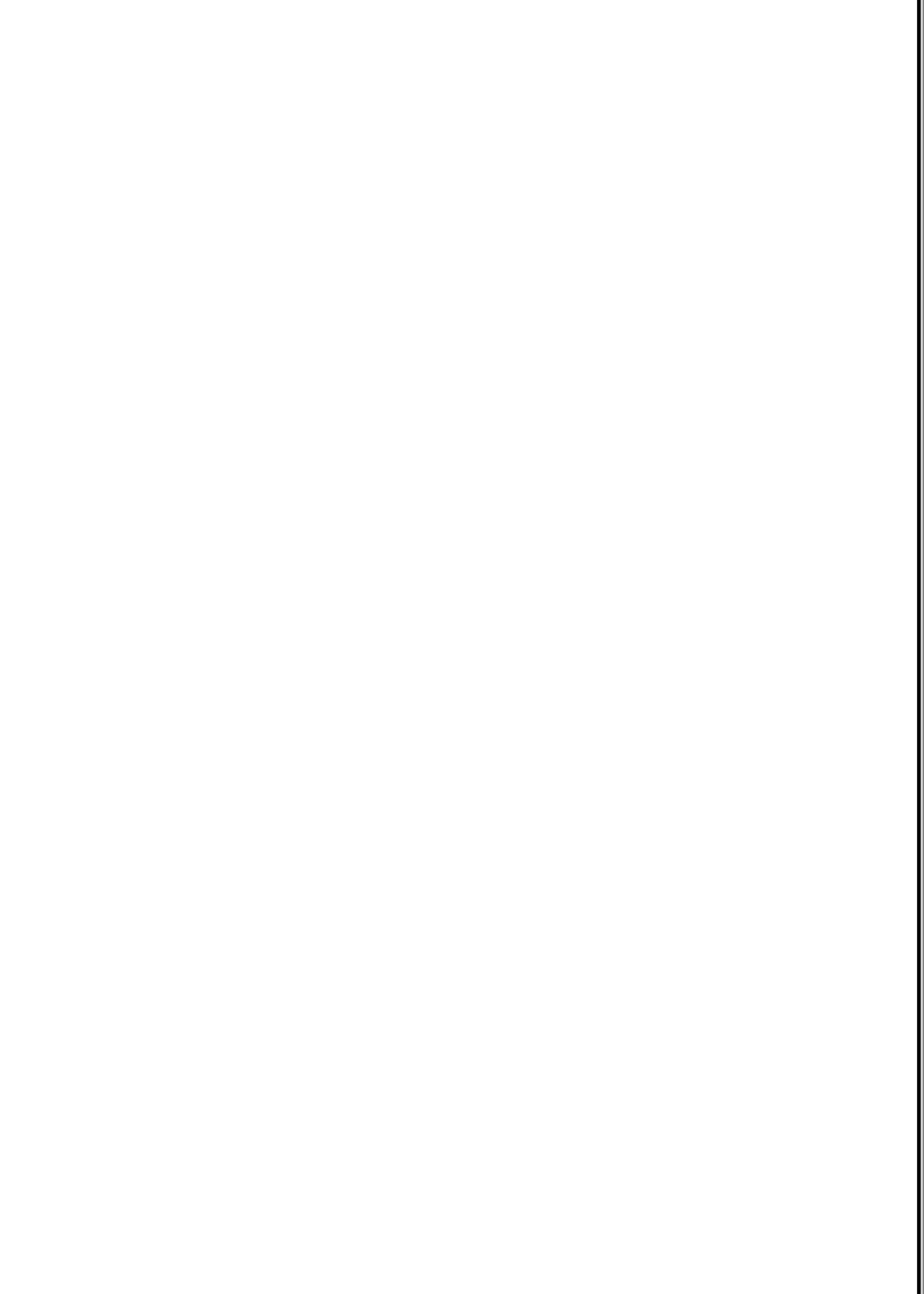
المتحف الوطني

الشاعر



دمشق - سوريا





الشّعير

اٰهادیات ١٩٩٨

مُؤسسة الامراء للنشر والتوزيع

القاهرة

مُصطفى الطيفي المنفلوطي

الشاعر



جَمِيعِ الْحَقُوقِ مَحْفوظة
الطبعة الأولى

١٩٨٦ - ١٤٠٦ هـ

دمشق - سوريا - الحلبوسي - مدخل فندق الشموع
تلفون : ٢٣٨١١ - ١٣٣٤٤ - ص.ب. - تلكس ٤١١٥٤١

لِفْرَادٍ

إلى الشعراء

مؤلف هذه الرواية شاعر وبطلها شاعر . وأكثر أشخاصها شعراً ، و موضوعها الشعر والأدب ، و عبرتها أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم وأبدع صورة رسمتها ريشة المصور الأعظم في لوح الكائنات ، وأنها هي التي يهيم بها ال�ائمون ، ويتوه المترهون ، حين يظلون أنهم يعشقون الصور ويستهيمون بمحاسن الوجوه .

لذلك أقدمها هدية إلى الشعراء فهم رجالها وأبطالها وأصحاب الشأن فيها ، ولا أطلب منهم جزاء عليها أكثر من أن أراهم جميعاً في حياتهم الأدبية والاجتماعية : سيرانو دي برجراك .

أول مايو سنة ١٩٢١

مصطفى لطفي المنفلوطي



مَقَدِّمة

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندى على هذه الرواية التي عرّبها عن اللغة الفرنسية تعرّيفاً حرفيّاً حافظ فيه على الأصل محافظه دقّيّة ، وطلب إليّ أن أهذب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها ففعلت ، واستطعت في أثناء ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقّيّة ، وأن أستشف أغراضها ومقاصيرها التي أراد المؤلّف أن يضمّنها إليها فأعجبني منها الشيء الكثير ، وأفضل ما أعجبني منها أنها صورت التضحية تصویراً بدليعاً وهي الفضيلة التي أعتقد أنها مصدر جميع الفضائل الإنسانية ونقطة دائرتها ، فرأيت أن أحولها من القالب التمثيلي إلى القالب القصصي ، لستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل . وقد حافظت على روح الأصل بتمامه وقيدت نفسى به تقيداً شديداً، فلم أتجاوز إلا في حذف جمل لا أهمية لها وزيادة بعض عبارات اضطررتني إليها ضرورة النقل والتحويل واتساق الأغراض والمقاصد ، بد. ن إدخال بالأسفل و الخروج عن دائرة ، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي أبعينه ، إلا ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين ومقدرة الكاتبين وما لا بد من عروضه على كل منقول من لغة إلى أخرى وخاصة إذا قيد المعرب نفسه وحبس قلمه عن التصرف والافتتان .

مصطفى لطفي الملا وطى



أشخاص الرواية

سيرانو دي بوجراك

شاعر فرنسي من شعراً القرن السابع عشر ناشأ غريباً في أطواره وأخلاقه متفرداً بصفات قلّ أن تجتمع لأحدٍ من معاصريه ، فكان جاماً بين الشجاعة إلى درجة النهور ، والتججل إلى درجة الضعف ، وبين القسوة إلى معاقبة أعدائه على أصغر المفوات ، والرقى إلى البكاء على بؤس البائسين من أصدقائه وأبناء سرقته ، وكان كريماً متلافياً لا يبقي على شيءٍ مما في يده ، وغافياً لا يمدّ يده إلى مخلوقٍ كانَ منْ كُلِّ ما في الكون ، وصريحاً لا يتردد لحظة واحدة في مجاهدة صاحب العيب بعييه كييفما كانت النتيجة المترتبة على ذلك . فكان عدو الكاذبين والمرائين والمغرورين والسفلة والمتملقين ، أي أنه كان عدواً للهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها تقريباً ، كما كانت عدوة له كذلك ، لا تهدأ عن مشاكساته ومناؤاته وابتغاء الغواائل به .

ولم يكن له من الأصدقاء إلا أفراد قلائل جداً هم الذين يفهمون حقيقة نفسه وجوهرها ويقدّرون قدره وقليل صفاتـه الكريمة التي كان يتتصف بها .

وكان الخلق الغالب عليه من بين جميع أخلاقه خلق العزة والأنفة فكان شديداً الاحتفاظ بكرامته والضيق بعرضه أن ينال منهـما نائل أو يبعث بهما عابث ، وكان لا يرى في أكثر أوقاته لا مبارزاً أو مناضلاً أو ثائراً أو مهتاباً واضعاً يده على مقبض

سيفه أو ملقياً فقاذه على وجه خصمه ، شأن الفوارس الأبطال في ذلك العصر .

وكانت بليته العظمى في حياته ومنبع شقائه وبلاه أنه كان دميم الوجه كبير الأنف جداً إلى درجة تلفت النظر وتستثير الدهشة ، وكان يعلم ذلك من نفسه حق العلم ويتألم بسيه تألاً كثيراً لأنه كان عاشقاً لابنة عم « روكسان » الشهيرة يحملها النادر وذكائها الحارق ، وكان يعتقد أن المرأة مهما سمت أخلاقها وجلت صفاتها لا يمكن أن تقع في أح BJوله غرامية غير أح BJوله الجمال ولا تعنى بحسن إلا بحسن الوجوه والصور ، فكان وهو أشجع الناس وأجرؤهم وأعظمهم مخاطرة وإقداماً لا يجسر أن يفتح حبيته هذه في شأن حبه حباء من نفسه وخجلًا .

فكان أنفه سبب شقائه من جهتين : أنه وقف عقبة بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه إلى السخرية به والتهكم عليه ، وهو لا يطيق ذلك ولا يحتمله ، فكان النزاع بينه وبينهم دائياً لا ينقطع ، وكان لا ينتهي غالباً إلا بعبارة يخرج منها في الغالب فائزًا متصرراً ولكن كثير الخصوم والأعداء .

وكان جندياً في فصيلة شبان الحرس من الجيش الفرنسي وكان أفراد تلك الفصيلة جميعهم من الحاسكونيين مثله ، وهم قوم معروفون بخشونة الأخلاق ووعورتها وبكثرة التبرج والادعاء والغرور والكذب ، ولم مع ذلك فصيلة الشجاعة والصبر والقناعة والشرف وعززة النفس ، وكان سيرانو متصفاً بحسناهم متربعاً عن سيئاتهم فكان له في نقوتهم أسمى منزلة من الإجلال والإعظام ،

وكانوا يحبونه جـًـا شــديداً ويدعون لرأيه ويستطرون أحــادــيــه
ودعــابــاتــه ويــفــاخــرونــ بهــ وــبــنــيــوــغــهــ وــشــجــاعــتــهــ وجــرــأــتــهــ وــصــراــحــتــهــ ،
كــمــاــ كــانــ يــفــخــرــ بــهــ وــبــعــصــبــيــتــهــ ، وــكــانــ مــنــ أــســوــاــ الشــعــرــاءــ حــظــاــ
فيــ حــيــاتــهــ فــقــدــ قــضــىــ عــمــرــهــ كــلــهــ خــامــلاــ مــغــمــورــاــ ، يــجــهــلــ الــدــهــمــاءــ
قــدــرــهــ لــأــهــمــ لــأــهــمــ لــأــهــمــ فــضــلــهــ لــأــهــمــ يــغــضــبــونــهــ
وــيــجــدــونــ عــلــيــهــ وــيــنــقــمــونــ مــنــهــ خــشــونــتــهــ وــشــدــتــهــ فيــ مــوــاــخــذــتــهــ وــنــقــدــهــ ،
فــلــمــ يــكــنــ يــحــفــلــ بــذــلــكــ كــثــيرــاــ لــأــنــ كــانــ مــخــلــصــاــ لــأــهــمــ إــلــاــ أــنــ يــكــونــ
عــظــيــماــ فــيــ عــيــنــ نــفــســهــ ثــمــ لــأــيــالــيــ بــعــدــ ذــلــكــ بــمــاــ يــكــونــ .

وكــثــيرــاــ ماــ كــانــ يــنــظــمــ الرــوــاــيــةــ الــجــلــلــيــةــ ذاتــ المــغــزــىــ الــعــظــيمــ وــالــأــســلــوبــ
الــرــاقــقــ فــلــاــ يــفــكــرــ فــيــ إــهــاــئــاــ إــلــىــ أــحــدــ مــنــ الــعــظــمــاءــ ليــتــوــســلــ بــذــلــكــ
إــلــىــ نــشــرــهــاــ وــتــرــوــيــجــهــاــ وــحــمــلــ الــفــرــقــ التــمــثــيلــيــ عــلــىــ تــمــثــيلــهــاــ كــمــاــ كــانــ
يــفــعــلــ الشــعــرــاءــ فــيــ عــصــرــهــ ؛ أــنــفــةــ وــإــيــاءــ وــضــنــاــ بــنــفــســهــ أــنــ يــقــفــ مــوــقــفــ
الــذــلــ وــالــضــرــاعــةــ عــلــىــ أــيــ بــابــ مــنــ الــأــبــوــاــبــ كــيــفــمــاــ كــانــ شــأــنــهــ ، وــرــبــمــاــ
ســرــقــ بــعــضــ الرــوــاــيــنــ قــطــعاــ مــنــ رــوــاــيــاتــهــ فــضــمــنــوــهــاــ رــوــاــيــاتــهــ وــانــتــفــعــوــاــ
بــهــاــ فــلــاــ يــغــضــبــهــ ذــلــكــ وــلــاــ يــزــعــجــهــ ، وــكــلــ مــاــ كــانــ يــفــكــرــ فــيــهــ أــوــ يــســأــلــ
عــنــهــ فــيــ هــذــاــ الــمــوــقــفــ ؛ مــاــذــاــ كــانــ وــقــعــ تــلــكــ الــقــطــعــةــ فــيــ نــفــوــســ الــجــمــاهــيرــ
حــينــاــ ســمــعــوــهــاــ ؟

ولــقــدــ أــخــلــصــ فــيــ جــبــهــ لــابــنــهــ عــمــهــ «ــرــوــكــســانــ»ــ إــخــلــاصــاــ لــمــ يــســمــعــ
بــثــلــهــ فــيــ تــارــيــخــ الــحــبــ ؛ فــأــحــبــهــ وــهــ لــاــ تــعــلــمــ بــجــبــهــ ، وــتــأــلــمــ فــيــ ســيــلــ
ذــلــكــ الــحــبــ أــلــاــ شــدــيــداــ وــهــ لــاــ تــشــعــرــ بــأــلــهــ وــأــحــبــتــ غــيــرــهــ فــلــمــ يــقــدــ
وــلــمــ يــنــتــقــمــ بــلــ كــانــ أــكــبــرــ عــوــنــ طــاــ فــيــ غــرــامــهــاــ الــذــيــ اــخــتــارــتــهــ لــنــفــســهــ ،
وــلــمــ يــلــبــثــ أــنــ اــتــخــذــ حــبــيــهــاــ الــذــيــ آــتــرــتــهــ صــدــيقــاــ لــهــ وــأــخــلــصــ فــيــ مــوــدــتــهــ
إــخــلــاصــاــ عــظــيــماــ وــأــعــانــهــ عــلــىــ اــســتــمــارــ صــلــتــهــ بــهــ وــبــقــاءــ جــبــهــ فــيــ قــلــبــهــ ؛
لــأــنــهــ مــاــ كــانــ يــهــمــ شــيــءــ فــيــ الــعــالــمــ ســوــىــ أــنــ يــرــاــهــ ســعــيــدــةــ فــيــ حــيــاتــهــ

مغبطة بعيشها ، وهذا كل حظه في الحياة .

ولم يزل هذا شأنه طول حياته حتى خرج من دنياه ولم تعلم روكسان بسريرة نفسه إلا في الساعة الأخيرة التي لا يغنى عندها العلم شيئاً .

روكسان

ابنة عم سيرانو دي برجراك ، وهي فتاة شريفة متعلمة وافرة الفضل والذكاء عالية الهمة عفيفة الذيل مولعة بالشعر والأدب ، إلا أنها كانت تذهب في ذوقها الأدبي مذهب النساء المتحذقات في ذلك العصر ، أي أنها كانت كثيرة التكلف في أحاديثها وإشارتها ، وكان لا يعجبها من الكلام إلا ذلك النوع الذي يسمونه بالصناعة الفقظية ، ولا من المعاني إلا تلك الحالات الطائرة المأهولة على وجهها التي لا أساس لها في الحياة ولا وجود لها في فطرة النفس وطبيعتها .

وقد نشأت يتيمة منقطعة لا أهل لها ولا أقرباء إلا ابن عمها سيرانو ، إلا أنها كانت تعيش عيشاً رغداً هنباً بفضل الثروة الواسعة التي ورثتها عن أبيها .

تأحبها كثير من النبلاء والأشراف وعرضوا عليها الزواج فلم تحمل بهم وأحبها « الكونت دي جيش » وهو أحد قواد الجيش الفرنسي وكان متزوجاً بابنة أخت الكردينال دي ريشليه ؛ فأراد أن يستخدم نفوذه وجاهه في حملها على الزواج من فتى من أشباعه اسمه فيليكونت فالفير على الطريقة المعروفة في ذلك العهد عند الملوك والنبلاء ، فدفعته عنها برقة وحكمة خوفاً على نفسها منه ، وظللت تماطله زمناً طويلاً حتى أحبها البارون كرستيان

دي نوفيست فاحبته وأخلصت له إخلاصاً عظيماً ، ولم يكن في الحقيقة متصفاً بصفات الفطنة والذكاء والنبوغ التي كانت تظنها مجتمعه فيه ، لولا الحيلة الغريبة التي احتالها عليها سيرانو حتى أوهمها ذلك ، وهنا نكتة الرواية وبيت قصيدها ، ثم تزوجت منه بعد ذلك زواجاً سرياً ، ولكنها لم تكن تضع شفتها على الكأس حتى انتزعـت منها ، وكان هذا آخر عهدها بسعادة الحياة وهنائـها .

كريستيان دي نوفيست

نبلاً من نباء الريف وفد إلى باريس ليتحقق بفرقة الحرمس من الجيش الفرنسي كما كانت عادة الأشراف في ذلك العهد وهي الفرقة التي كان يعمل فيها سيرانو ، وكان في جميل الصورة شريف النفس طيب القلب إلا أنه كان أقرب إلى البلادة منه إلى الذكاء ، فوقع نظره على روكسان في حانة بورجونيا فأحبها وأحبته على بعد ، وكان قد علم من أمرها أنها فتاة قدبرة متغيرة ذكية الفؤاد غزيرة العلم قوية الإرادة ، لا يعجبها من الرجال إلا الأذكياء المتفوقون ، فهاب الدنو منها وافتختها في شأن حبه ، وخشي أن يسقط من عينها سقطة لا قيام له من بعدها ولم يزل هذا شأنه حتى أدركه سيرانو واحتال له تلك الحيلة الغريبة المدهشة التي جعلت روكسان تعتقد أنها قد أحببت أذكي الناس وأسمائهم عقلاً وأبعدهم غوراً وأطلقهم لساناً وأبلغهم قلماً ، لا يريدا بذلك إلا سعادتها وهناءها وهو يتهالك بينه وبين نفسه غماً وكيناً ، لأنـه وهو ظامي هيمان يقدم الكأس بيده للشاربين ولا ينـوـق منها قطرة واحدة .

الكونت دي جيش

أحد قوّاد الجيش الفرنسي وهو من أصل جاسكوني كسيرانو روكسان ، إلا أنه كان يذهب في حياته مذهبًا غير مذهب أبناء جلدته الجاسكونيين في قناعتهم وخشونتهم وبساطة عيشهم ، بل كان رجلاً واسع المطامع شغوفاً بالمعالي متطلعاً إلى المناصب العليا والراتب الكبرى ، وقد تم له ما أراد من ذلك بجهده واجتهاده فأصبح قائداً من قوّاد الجيش الفرنسي وصهرآ للكردينال دي ريشلية .

وقد رأى روكسان في طريقة مرة فشغف بها شغفاً عظيماً . وأراد أن يضمها إليه من طريق تزويجها من أحد صنائعه فاحتالت للخروج من ذلك المأزق بحيلة لطيفة جداً ، وتزوجت من الرجل الذي أحبته بمعونة ابن عمها سيرانو ، فعاداها الكونت من أجل ذلك وانتقم منها ومن زوجها ومن سيرانو انتقاماً هائلاً .

لينبير

شاعر مسكون من أصدقاء سيرانو نظم قصيدة طويلة هجا بها الكونت دي جيش وعرض فيها بقصته مع روكسان وفضح جريمته التي أراد أن يقتربها منها ، ففقد عليه الكونت حقداً شديداً ، ودس له كميناً مؤلفاً من مائة رجل ليقتلوه عند رجوعه إلى منزله ليلاً ، لو لا أن أدركه سيرانو وأعانه على أعدائه فنجا .

لبريه

أحد أصدقاء سيرانو المخلصين ، ينصحه داعماً بالمدوء والسكنية

وينسى عليه شدته وصرامته في أخلاقه وطباعه ، وينصح له باتخاذ خطوة في الحياة تناسب البيئة التي يعيش فيها رحمة بنفسه وإيقاء على راحته وسكونه ، فلا يحفل بنصيحة لأن له رأياً في الحياة غير رأيه ومذهبآ غير مذهب ، ولم يكن اختلافهما هذا في المشرب واللحطة مانعاً لهما من الصداقة والإخلاص ووفاء كل منهما لصاحبه حتى ما كانوا يستطيعان الانفراق ساعة واحدة .

مونفلوري

أحد الممثلين في حانة بورجونيا ، وكان مشهوراً بحسن إلقائه لرواية « كلوريز » تأليف الروائي الشهير « بارو » .

وكان سيرانو يبغضه ويستقل حركاته التمثيلية وينقم عليه بإعجابه بنفسه على قبحه ودمامته ، ويأخذ عليه كثرة تردید نظره أثناء التمثيل في مخادع السيدات يحاول افتتاحهن واجتذاب قلوبهن وقد رأه مرة ينظر إلى روکسان نظرة مريبة فتعمل عليه بعض العلل وأمره أن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملاً ، فحاول الامتناع عليه وعصيان أمره فأنزله من المسرح بالقوة وطرده رغم دفاع الكثيرين من الأشراف والبلاء عنه وخاصة الكونت دي جيش .

راجنو

طباطخ مشهور يبيع في حانوته الكبير أفرخ أنواع المطاعم من شواء وفطائر ، وحلوى ، وكان محباً للشعر والأدب والتمثيل عطوفاً على المؤسأء من الشعراء والممثلين ، وكان يستقبلهم في حانوته استقبالاً حافلاً ، ويقدم لهم على حسابه ما يقتربون من طعام وشراب ، وكان كل حظه منهم أن يجلس إليهم ويسمع

محاوراتهم الأدبية ويلتقط ما ينثر حولهم من مسودات أشعارهم وقصوهم ويسمعهم ما ينظمه من الشعر الضعيف النافع فيتظاهر ون باستحسانه والإعجاب إبقاء على موته ، حتى أدركته حرفه الأدب فأفلس ، وأغلق حانوته ، فأعانه سيرانو على شؤون حياته وكان من أكبر أنصاره والتشيع له ، ولكن الحظ كان قد فارقه فلم ينجح في عمل من الأعمال التي اشتغل بها وظل البوس ملازمًا له طول حياته .

ليز

زوجة راجنو وهي امرأة فاسدة الأخلاق خبيثة النفس ، كانت تهزا بزوجها وتسرخ منه وتنعى عليه اشتغاله بالشعر والأدب واهتمامه بالشاعر والأدباء وعناته بهم ، وكانت تفضل أن تقدم هي بنفسها الحانوت كله لضباط من ضباط الجيش تعجب به ، على أن يقدم زوجها راجنو لقمة واحدة منه لأديب من الأدباء ، ولما رأت تضيّص حالي وانتكاس أمره فرت مع أحد ضباط الجيش بعد ذلك .

كاربون دي كاستل

قائد فصيلة شبان الحرس وكان كل أفرادها من الجاسكونيين وهو جاسكوني مثلهم فكان يحبهم جًأ شديداً ويعطف عليهم ، وكان يعتمد في أعماله على سيرانو ويعده خير جنوده ، والتاريخ يذكر له دفاعه العظيم بفصيلته في ميدان أراس عن الموقع الذي اختار جيش العدو مهاجمته حتى تم النصر للراية الفرنسية على الرأة الأسبانية .

الفَصْنُلُلْأَوْلَات

حانة بورو جونيا

في ليلة من ليالي سنة ١٦٤٠ بدأ الناس يفدون إلى حانة بورو جونيا في باريس لمشاهدة رواية «كلوريز»، وهي إحدى روايات الشاعر المشهور «بلتازار بارو»، ولم يكن التمثيل في ذلك العصر دور خاصية به، وإنما كانوا يمثلون في الحالات أو المطاعم الكبيرة على مسارح خاصة يعدونها لذلك.

وكان جمهور المشاهدين في تلك الليلة كما هو شأنهم في جميع الليالي خليطاً من العمال والجنود واللصوص والخدم والأشراف والعلماء والكتاب وأعضاء المجتمع الفرنسي. وقد اختلط بعضهم بعض وجلس أحياناً بجانب أشرارهم، في بينما العلماء يتناقشون في مباحثهم العلمية والأدبية يتحدثون في شؤونهم الأدبية، إذا فريق من الخدم قد ألسقوا شمعة بالأرض واستداروا من حولها حلقة واسعة وأخذوا يقامرون بالمال الذي سرقوه من أسيادهم في ساعات لهوهم واستهتارهم، وآخرون من أبناء الأشراف قد تمسكوا بأيديهم وظلوا يدورون حول أنفسهم راقصين متزحين، وآخرون من الغوغاء يأكلون ويقصفون^(١) ويتسابون ويتلاكمون ويختارون بأصوات عالية متنوعة كأنهم في سوق من أسواق المزايدة وجماعات من الجندي يتلهون بالعبارة والملاكمات لا يبالون من يطأون

(١) القصف : الإقامة في الشرب وال فهو .

يأقدامهم ، أو يصيرون بشفرات سيفهم . وفئة من الصعاليك قد اصطفوا صفاً واحداً بين يدي لص من دهاء اللصوص ومنا كثيرهم يعلمهم كيف يسرقون الساعات من الصدور ، ويمزقون الجيوب عن الأكياس ، وكيف يتغفلون صاحب المطاف عن محفظه ، والقبعة عن قبعةه والعصا عن عصاه ، كأنه فائد يدرس جنوده على الحركات العسكرية . وفي من المتألقين المتطرفين يطارد فتاة المقصف^(١) من ركن إلى ركن يحاول إمساكها والعبث بها وهي تختنق عليه وتتأني تأنياً أشبه بالإغراء منه بالامتناع . وجندي من جنود الحرس قد تغفل البواب عند دخوله وأملس من يده دون أن يدفع إليه شيئاً والباب يطارده ويلاحقه ويأخذ بتلابيه فيجادل عن نفسه بأنه حارس الملك وحراس الملك أحراز يدخلون من الأمكانة ما يشاورون . وزمرة من المتأذين قد انتبذوا ناحية من القاعة وأخذوا يندبون الأدب وحظه وشقاء أهله وبلامهم ويقول بعضهم البعض : أليس من مصابيح الدهر ورزاياه أن يقف موقف الممثل بين هذا الجمهر الساقط أمثال « منفلوري » و « بلوز » و « بويريه » و « جودليه » ، وأن تمثل على مثل هذا المسرح الحقير التبدل روایات أكابر الشعراء الروائين أمثال « روترو » و « كورني » و « بارو »؟ .

ولم يكن يضيء تلك القاعة على كبرها واتساعها إلا بضعة مصابيح ضئيلة تتراءى تلك الجماهير على نورها كأنها الأشباح المتحركة ، أو الأرواح المائمة . وقد يسمع السامع فيها من حين إلى حين في وسط هذه الضوضاء صوت فتاة المقصف ، وهي تصيح خلف مقصفها بصوتها الدقيق الرنان « الين » « الحلوي »

(١) مكان المقصف .

«عصير البرتقال» ، «عصير الرمان» ، «الشواء» ، «الفطير» ، «النبيذ» ، أو صوت شيخ هرم يسب ويختدم ويضرب الأرض بقدميه ، وهو عاري الرأس منقلب السجن لأن أحد الجالسين في الطبقة العليا من الملعب قد أرسل على رأسه المستعار شصاً^(١) فاجتذبه به وظل معلقاً في الفضاء على مرأى من الجماهير الصاحفين ، أو صارخاً متلماً قد وضع يده على عينه وظل يصيح واغوثاه وأولياته لأن بعض المترجين صوب إليها حصاة صغيرة أو نواة فأصابها بها ، إلى أمثال ذلك من صرائح الصارخين وهناف الماقفين من جميع جوانب القاعة : أشعلوا الأنوار وارفعوا الستار .

ولم يزل هذا شأنهم حتى دقت الساعة العاشرة من الليل وقرب ميعاد التمثيل فدخل جماعة من الاشراف المتألقين يجررون أذيالهم ويشمخون بأنوفهم ، ويتآفون لضعف الأنوار وضوضاء الجماهير ، ويصيحون : الطريق الطريق ، أيها الصعاليك ، فتنفرج الصفوف لهم انفراجاً ، حتى بلغوا مكان المسرح فصعدوا عليه وجلسوا فيه على مقاعد متفرقة في أنحائه جلسة باردة وقحة لا أدب فيها ولا احتشام ، وكانت المقاصير في ذلك التاريخ خاصة بالنساء لا يجلس فيها غيرهن إلا مقصورة واحدة بجانب المسرح كان يجلس فيها الكردinal إذا حضر أو من ينزل منزلته من عظماء المملكة ووجوهاً .

طاهي الشعراء

جلس في ركن من أركان القاعة في تلك الساعة شخصان منفردان

(١) الشخص : حديقة عقفاء يصاد بها السمك تشبه السنارة .

أحدهما الشاعر «لينيير» ، وهو رجل بائس مسكون مغموم بالشراب ومعاقرته لا تكاد تفارق يده الكأس ليله ونهاره ، وثانيهما البارون «كريستيان دي نوفيليت» وهو في من اشرف الريف ، جميل الطلعة حسن الري والثياب . إلا أن هندامه على الطراز القديم ، حضر من «تورين» إلى باريس منذ عشرين يوماً ليتحقق بفرقة المسرح من الجيش الفرنسي فلم يدخلها إلا صباح اليوم ، فقال الشاعر للبارون : إن صاحبتك لم تحضر حتى الساعة ، وها هي مقصورتها التي أشرت لي إليها لا تزال خالية ، وقد اشتد ظميء فأذن لي بالذهاب إلى إحدى الحانات القرية لأنتناول قليلاً من الشراب ، ثم أعود إليك ، فاضطرب كريستيان وتشبت بشوبه ، وقال له : إنك إن ذهبت لن تعود يا لينيير ، وأنا في أشد الحاجة إليك ، فإني أريد أن أعرف من هي ؟ وما منبت دوحتها ، تور بما بدا لي أن أزورها الليلة في مقصورتها وأنعرف إليها ، وليس في استطاعتي أن أقدم على ذلك وحدي ، فأنت تعلم أنني رجل جندي ساذج حديث عهد بهذا البلد وأهله وآدابه ومصطلحاته ، ويخيل إليّ ، وإن لم أكن قد حادتها أو جلست إليها ، أنها فتاة ذكية متقدمة بارعة في أساليب الحديث ومناهجه وأخاف إن أنا لقيتها وحدي أن أضعف أمامها وأضطرب أو أرتبك في حركة من الحركات بين يديها فأسقط من عينها سقطة لا مقيل لي منها أبد الدهر ، فابقى معي وكن عوناً لي عليها لتم بذلك يدك عندي .

وهنا مرت فتاة المقصف حاملة على يديها صينية بيضاء ، وهي تتغنى بصوتها الرقيق الشجي ، فناداها لينيير فدلت منه فسالها عما عندها فظلت تسرد عليه أسماء فطائرها وقدائدها وأشربتها وحلوها ، وهو لا يأبه لشيء من ذلك حتى ذكرت له نيد

«بوردو» فتهلل وجهه وتحلّب فوه ، وطلب إليها أن تأتيه بالجيد منه ، فأتت له بما أراد ، فملا كأسه وبدأ يشرب ويتنفس ، وما هي إلا لحظة حتى قال لكريستيان : الآن استطيع أن أبقى معك قليلاً أيها الصديق الكريم .

وفي تلك اللحظة دخل القاعة رجل قصير ضخم الحلة غريب الهيئة في ملابس الطهاة وشمائلهم فصرخ الجماهير حين رأوه : راجنو ! راجنو ! فلم يأبه لهم ، ولم يلتفت إليهم ، واندفع مسرعاً إلى لينير ، وقال له بصوت متهدج مضطرب دون أن يجيئه أو يجيئ جليسه : ألم تر صديقنا سيرانو يا لينير ؟ قال : لا ، وما لي أراك مضطرباً هكذا كأنك هارب من معركة أو مأخوذ بجريمة ، قال : ما أحسب إلا أنه سيحدث الليلة في هذه القاعة حادث عظيم لا يعلم إلا الله كيف تكون عاقبته ، فانزعج لينير ، وقال : أي حادث تريد ؟ قال : قد علمت الساعة أن سيرانو كان وجد على الممثل مونفلوري منذ أيام في شأن من الشؤون لا أعلمه فحكم عليه بأن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملاً وهدده بالموت إن خالف أمره ، وكنت أظن أن الرجل قد أذعن لهذا الحكم ضئلاً بنفسه وبحياته ، ولكنني رأيته الساعة في حجرة الممثلين يترنم بقطعة تمثيلية وأظن أنه سيقوم بتمثيل دوره الذي اعتاد أن يمثله في رواية «كلوريز» ، وهو دور «فيدين» فإن فعل فقد وقعت الكارثة العظمى التي لا حيلة لنا ولا لأحد من الناس في دفعها ، وسيرانو كما نعلم رجل مخاطر جريء لا يبالي بعواقب الأمور ، ولا يفكر في نتائجها ؛ ففقهه لينير ضاحكاً وقال : يا له من قاض غريب ويا له من حكم عجيب ، هدىء روحك يا صديقي ، فالامر أهون مما تظن فربما لا يحضر سيرانو أو لا يمثل مونفلوري فلا يقع شيء من المكرور الذي تتوقعه .

ثم التفت إلى كريستيان وقال له : أقدم إليك الميسو راجنو طاهي الشعراء والممثلين ، وهو اللقب الذي اختاره لنفسه وعرف به بين الناس جميعاً ، لأنه صديقهم المخلص الذي يحبهم ويكرمهم ويذود عنهم ويفتح لهم باب مطعمه على مصراعيه يأكلون منه ما يشتهون ، ويشربون ما يقترون لا يتناقضاهم على ذلك أجرأ سوى قصيدة من الشعر يملونها عليه ، أو قطعة تمثيلية يمثلونها بين يديه ، أي أنه يملأ لهم أفواههم طعاماً ، فيملأون له أذنيه كلاماً ، والأذن كما تعلم ليس طريقاً إلى المعدة كالفم ، وهو فوق ذلك شاعر متقن مطبوع ينظم أكثر شعره في وصف فطائره وحلوه ؛ فانحنى راجنو بين يدي كريستيان وقال : نعم يا سيدي إنني صديق الشعراء والممثلين بل عبدهم ومولاهم ، وصناعة فضليهم وإحسانهم وإن ساعة أقضيها في حضرتهم أسمع طرائف أشعارهم ، وبداعع فصوصهم ، هي عندي ساعة الحياة التي لا أعدل بها ساعة غيرها ، فشكر له كريستيان فضله وأدبه وأثنى خيراً على شرف عواطفه واكتمال مروعاته ، وما هي إلا كرة الطرف حتى عاد إلى راجنو قلقه واضطرابه وأخذ يدور بعينيه في الجماهير يفتش عن سيرانو ، فقال له لينير : إنه لم يحضر حتى الآن ، وهو هو الوقاد قد بدأ في إشعال المصايبع ، وهو هو الستار قد أوشك أن يرتفع ، وما أظنه حاضراً بعد ذلك .

سیر انو

وكان رجل من الأشراف اسمه المركيز دي جيجي جالساً على مقربة منهم يسمع حديثهم وينصت لحوارهم فوضع يده على كتف راجنو فالتفت راجنو إليه فقال له : أستطيع أن تخبرني من هو

سيرانو هذا الذي تتحدثون عنه؟ فهز راجنو رأسه كالمستغرب وقال له: إني لأعجب لأمرك يا سيدى فهى أول مرة سمعت فيها إنساناً في العالم لا يعرف السيد سيرانو! قال إني أعرف عنه شيئاً قليلاً، وأريد أن أعلم أنييل هو أم صعلوك؟ قال إن كنت تريدين من التبلل شيئاً غير الشرانط والأوسمة والذهب والفضة والحرير والدياج فهو أبلل البلاء وأشرفهم؛ لأنه جندي شجاع، سجريء في موقفه ومشاهده صادق في قوله وفعله، لا يخابي ولا يجامل، ولا يتذلل ولا يتزلف، ولا يخضع في شأن من شؤون حياته إلا للحق الذي يعبده ويدين له، ولو عرفته يا سيدى لعرفت أفضل الناس خلقاً وأشرفهم نفساً، وأطيبهم قلباً وأشدتهم عطفاً على البوسائم والمنكوبين. وهو فوق ذلك شاعر مجيد، وعالم فاضل. ونالد بارع، وأما شكله فمن أغرب الأشكال وأعجبها: حتى لو أراد مصوّرنا العظيم «فيليپ دي شاميبي» أن يرسمه كما هو لعجز عن ذلك أو كاد، فإن الناظر إليه ليعجب بكل العجب لنظر قبعته المحلاة بالريشات الثلاث، وردائه الملون الجميل، وقبائه الواسع المسدس الأطراف الذي يرفع مؤخره بطرف سيفه، ثم يمشي به مختالاً كأنه طاووس يجر ذنبه وراءه وله أنف هائل جداً لا يراه الرأي حتى يذعر ويرتابع ويقف أمامه مدھوشًا مذهلاً يعجب لصاحبـهـ كـيـفـ استطـاعـ أنـ يـحملـهـ فيـ رـقـعةـ وجهـهـ وكـيـفـ لاـ يـلتـمـسـ السـيـلـ إلىـ الـخـلاـصـ منهـ،ـ أماـ هوـ فـراـضـ عنـهـ كلـ الرـضاـ،ـ لاـ يـشـعـرـ بـتـقلـهـ،ـ ولاـ يـفـكـرـ فيـ الـخـلاـصـ منهـ بـحالـ منـ الـأـحـوالـ،ـ وـالـوـيلـ كـلـ الـوـيلـ لـمـ يـرـفـعـ نـظـرهـ إـلـيـهـ أوـ تـخـتلـجـ شـفـتـاهـ بـابـتسـامـةـ العـجـبـ مـنـهـ أوـ السـيـخـرـيـةـ بـهـ،ـ فإنـ رـأـسـهـ يـطـيرـ بـضـرـبةـ وـاحـدةـ منـ حـدـ سـيفـهـ،ـ فـقـالـ لـهـ الـمـركـيزـ:ـ كـيـفـمـاـ كـانـ الـأـمـرـ فـإـنـيـ أـسـتـطـعـ أـقـولـ لـكـ،ـ وـأـنـاـ عـلـىـ ثـقـةـ مـاـ أـقـومـ،ـ إـنـهـ أـعـجـزـ مـنـ أـنـ يـمـنـعـ مـوـنـفـلـورـيـ

عن التمثيل بل هو لا يحضر الحفلة الالية فراراً من وعيده الكاذب ،
فقال راجنو : وأنا أراهن على حضوره بدرجات مشوية من مطعم
« راجنو » الشهير ، ولا أرزوك دافقاً واحداً إن أنا ربحت الرهان !
ثم أدار ظهره إليه وجلس يتحدث إلى لينير وكرستيان .

ولإنه كذلك إذ لمح رجلاً مقبلاً على بعد فقال لصاحبه :
ها هو المسيو « لبريه » صديق المسيو سيرانو الحليم ، فأذنا لي
بالذهاب إليه علني أستطيع أن أعلم من شأنه شيئاً ، ثم تركهما
وذهب إليه فرأه يقلب نظره في الجماهير ويلتفت يمنة ويسرة
فقال له : لعلك تفتشر عن سيرانو أنها الصديق ؟ قال : نعم وإنني
قلق من أجله جداً ؛ قال قد فتشت عنه قبلك فلم أجده ، ثم انتهى
به ناحية من القاعة وجلسا معاً يتحدثان .

روكسان

وهنا ظهرت روكسان في مقصورتها فضجع الجمهور حين
رآها ضجيج السرور والابتهاج وصاحت أحد الأشراف بالخالسين
على المسرح : آه يا إلهي ، إن جمالها فوق ما يتصور العقل البشري ،
وقال آخر : إنها زهرة بتسم في أشعة الشمس ؛ وقال آخر : إنها
روضة يانعة يحمل النسم رياها العطر إلى القلوب فينعشها ، وكان
كرستيان مشغولاً بأداء ثمن الشراب الذي شربه لينير فلم ينتبه
إليها ، ثم التفت فرآها فارتعد واصفر وجهه وأخذ بيده لينير وقال
له : ها هي ذي فقل لي من هي ! لاني خائف جداً يا صديقي
فضح يدك على قلبي فما أحسب إلا أنه يحاول الفرار من مكانه رهبة
وجزعاً ، حدثي عنها واذكر لي كل ما تعلم من أمرها وارفق

بي في حديثك ، حتى لا تقضي على الأمل الوحيد الباقي لي من حياتي ، ففهقهه لينير ضاحكاً وقال له : بخ بخ لك يا كرستيان ، لقد أحسنت الاختيار لنفسك كل الإحسان وما أحببت إلا أجمل فتاة في فرنسا ، فإن كان صحيحاً ما تقول من أنها تمنحك من ودها مثل ما تمنحها ، وأتها تنظر إليك بمثيل العين التي تنظر بها إليها فأنت أحسن الناس حظاً وأسعدهم طالعاً ، إنها السيدة مادلين دي رويان الشهيرة بروكسان ، وهي فتاة عذراء يتيمة لا أهل لها ولا أقرباء سوى ابن عمها سيرانو دي برجراك الذي كانوا يتحدثون عنه الآن ، وهي على فrotein جمالها وكثرة محسنها عفيفة طاهرة الذيل عاقلة رزينة تجلس إلى أذكياء الرجال وتحادهم وتقتنن بتصوراتهم وأفكارهم ، وتخوض معهم في كل شأن من شؤون الحياة حتى شأن الحب ولكنها لا تأذن لأحد أن يحبها أو يبعث بقلبها ، فإن حاول ذلك منهم محاولة دفعته عنها برقة وورق وحكمة فسلم لها شرفها وكرمها ، ولا عيب فيها إلا أنها من فريق الأديبات المتحدّلقات اللواتي أفسد الأدباء المتحدّلّقون أذواهن الأدبية فذهب التكلف والتعمل في أحاديثهن وحوارهن فلا ينطّقن بكلمة صريحة خالية من النشائية والمجازات والإشارات والكتابات ، ولا يواجهن المعاني التي يردن الأفضاء بها إلى السامعين مواجهة بل يدرن حولها دورات كثيرة حتى يصلن إليها ، فإذا أردن أن يقلن في أحاديثهن العادية : أشرقت الشمس قلن « ذر قرن الغزالة » أو : أقبل الليل قلن « هجم جيش الظلام » أو طلعت النجوم قلن « تجلت عروس الرنج في قلائدتها الدرية » أو : ها هو ذا الكرسي فاجلس عليه قلن « ها هو الكرسي يفتح ذراعيه لاستقبالك فتفصل إلقاء نفسك بين أحضانه » أي أنهن لا يعجبهن من الأنفاظ إلا المتتكلف المصنوع ولا من المعاني إلا المجلوب المختصر ولا من الشعاء والكتاب

إلا المتكلمون المشدكون في أساليبهم وتصوراتهم ، وهي سعيدة في عيشها مقتبطة بحياتها لا ينفعها صفوها غير هذا الرجل الهمجي المتوحش الذي تراه واقفاً بجانبها الآن ، فالتفت كرستيان فرأى رجلاً رشيقاً متألقاً حسن الزي والهدام متسلحاً بوشاح حريري أزرق متقلداً سيفاً عسكرياً مرصعاً قد أسد ذراعه إلى ظهر كرسبيها كأنه يختضنها وظل يحاذثها بصوت منخفض كأنه يسارها ويناجيها فقال له وهو يرتجف غيظاً وحنتاً : من هذا الرجل ؟ وكان لينير قد ثقل وببدأ يتتمم ويتلعم بنغمة الفأفة^(١) : إنه الكونت دي جيش أحد قواد الجيش الفرنسي وصهر الكردينال دي ريشيليه وزير فرنسا العظيم وقد أحب روكسان وأغرم بها غراماً شديداً ولما رأى أن لا سبيل له إليها من طريق المخالة^(٢) لأنها شريقة مترفة ، ولا من طريق الزواج لأنه متزوج بأبنة أخت الكردينال أراد أن يزوجها من رجل ساقط من أشياعه لا تحبه ولا تأبه^(٣) له اسمه الفيكونت «فالفير» طمعاً في أن ينال منها من طريقه ما لم ينل من طريق آخر فهالما الأمر وتعاظمتها وأبىت أن تذعن لرأيه أو تنزل على حكمه ، ولكنه لا يزال يلح عليها ويضايقها وهي تدافعه عنها بلطف وأدب وحذر واحتياط ، وأخاف إن استمرت هذه الحال أن يتنهى بها الأمر إلى الخضوع والإذعان ؛ لأن الرجل قوي جريء مدل بمكانه من قيادة الجيش وبمحظته عند الكردينال وليس في أنحاء المماككة كلها جميعها من يجرؤ على التفكير في مشادته أو الخلاف عليه ، ولقد أثرت هذه الحادثة في نفسي تأثيراً شديداً وأشفقت على تلك الفتاة المسكينة

(١) فناناً : أكثر الفناء في كلامه وظل يرددنا فهو فنان .

(٢) المخالة : المصادبة ، من الملة بالكسر أي الصدقة .

(٣) أبه بالشيء : احتفل به .

أن يستبد بها وبمستقبلها رجل جائز متواضع كهذا الرجل فنظمت
 قصيدة رنانة شرحت فيها قصته معها وهجوبه فيها هجاء مرأ
 لا أحسب أنه يغترف لي مدى الدهر ، وإن شئت أن تسمع هذه
 القصيدة فهاكها ، وكان الشراب قد نال منه أقصى مناله فنهض
 قائماً على قدميه وأخذ يصوب إلى الكونت نظرة هائلة مخيفة ورفع
 الكأس بيده وحاول أن يتغنى بقصيده فأمسكته كريستيان وقال له
 لا تفعل فإني ذاهب ، قال : إلى أين ؟ قال : أفتر عن فالفير ،
 قال : لماذا تريد منه ؟ قال أقتله ، قال : إني أخاف عليك منه
 لأنه أقوى منك وربما قتلك ، قال : لا أبابلي الموت في سبيلها ،
 قال : انظر ما هي ذي تنظر إليك وتحدق فيك تحديقاً شديداً
 فلا يشغلك شاغل عنها ، أما أنا فإني ذاهب لشأني فإن أصدقائي
 ينتظرونني في الحال ولا خير لي في الكأس من دونهم فأذن لي
 بالذهاب ، فأذن له وانصرف وظل هو شاحضاً إلى مقصورة
 روكسان يبادطا نظارات الحب والشغف ، ويفضي إليها من طريق
 الصمت والسكون بما عجز عن الإفشاء به من طريق الكلام ،
 وكان الكونت دي جيش قد نزل من مقصورتها ومشي في القاعة
 يحف به جمع عظيم من حاشيته وأصدقائه يتلقونه ويدهونه ،
 وحساده ومنافسوه من تبلاع القوم وأشرافهم يتغامزون عليه فيما
 بينهم ويرمونه بنظارات الحقد والحد ويسوونه القائد المغرور
 مرة والحاسكوني الكذاب أخرى ، حتى إذا مر بين أيديهم نهضوا
 له إعظاماً وإجلالاً وانحنوا بين يديه وداروا به يصانونه ويماسحونه
 حتى بلغ مكان المسرح فصعد إليه هو وأتباعه وجلس على كرسيه
 المعد له ثم التفت حوله وقال : أين الفيكونت فالفير . فأجابه :
 هاؤندا يا سيدي . قال : تعال بجانبي لأحدثك قليلاً ، وكان كريستيان
 واقفاً مكانه ينظر إليه على البعد نظارات الحقد والمرارة ، فما

سمع اسم فالفير حتى ثار ثائره وغلى دمه في رأسه، وعلم أنه قد وجد خصميه ، فوثب من مكانه وثبت عظمي وصاح ها قد عرفه وسلطمه بقفازي على وجهه لطمة هائلة ، وضع يده في جيبيه ليخرج قفازه منه فدهش حين عثرت يده فيه بيد أخرى غريبة فقبض عليها بشدة والتفت وراءه فإذا لص قبع المنظر زري الهيئة يحاول سرقته . فصاح فيه : من أنت وماذا تريد؟ فتضعضع الرجل واستخدى واستطير عقله خوفاً ورعباً ، ثم ما لبث أن عاد إلى نفسه واستجتمع قواه وقال : له عفواً يا سيدي فإني ما أردت سرقتك ، وإنما هو تمرين بسيط فقد تلقيت الساعة أول درس من دروس اللصوصية على أستاذِي « بوار » وقد بعثي إليك كما بعث غيري إلى غيرك لا لنسرقكم أو نخول بينكم وبين أموالكم بل لستوتش من أنفسنا أننا قد حذقنا دروسنا واستظهرناها فاعف عنِي واغترف لي هذه الزلة واعلم أن في صدرِي سراً هائلاً جداً ينفعك تفعلاً عظيمأً أن أفضي به إليك ، وهو خير لك مني ألف مرة ، فضحك كريستيان طويلاً وقال : أي سر ت يريد؟ قال : إن صديقك الذي كان جالساً معك منذ هنـيـهـةـ وقد نسيـتـ اسمـهـ الآـنـ هوـ فيـ السـاعـةـ الـآـخـيـرـةـ منـ ساعـاتـ حـيـاتـهـ إنـ لم تـسـرـعـ إـلـىـ نـجـدـتـهـ ، قال : أـتـرـيدـ لـيـنـيـرـ؟ـ قال : نـعـمـ ، فـدـهـشـ كـرـيـسـتـيـانـ وـقـالـ : لـمـ أـفـهـمـ مـاـ تـرـيدـ ، قالـ إـنـهـ كـانـ قدـ هـجـاـ مـنـذـ أـيـامـ عـظـيـمـاـ مـنـ عـظـمـاءـ هـذـاـ الـبـلـدـ بـقـصـيـدـةـ مـقـذـعـةـ⁽¹⁾ فـحـقـدـهـاـ عـلـيـهـ حـقـدـاـ شـدـيـداـ وـرـأـيـ أـنـ يـتـقـمـ لـنـفـسـهـ مـنـهـ فـأـعـدـ لـهـ مـائـةـ رـجـلـ يـكـمـنـونـ لـهـ الـلـيـلـةـ فـيـ جـنـحـ الـظـلـامـ عـنـدـ بـابـ «ـ نـيـلـ »ـ فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ مـنـزـلـهـ لـيـقـتـلـهـ وـأـنـاـ أـحـدـ أـلـثـكـ الرـجـالـ ، فـأـخـرـجـ الـآنـ وـأـطـلـهـ فـيـ الـحـانـاتـ الـتـيـ يـجـلـسـ فـيـهـاـ وـهـيـ الـمـصـبـطـ الـذـهـبـيـ وـالـفـاحـةـ الـخـشـبـيـةـ وـالـحـزـامـ

(1) الإقطاع : الشتم .

المزق والمشاعل والأقماع الثلاثة ، واترك له بطاقة في كل واحدة منها لتندره بهذا الخطر الداهم ، قال : ومن هو ذلك العظيم الذي دبر له هذه المكيدة ؟ قال : ذلك سر المهنة لا أستطيع أن أبوح به ، فضحك كريستيان وقال : لا حاجة بي إليك فقد عرفته ، ثم خلى سبيله فذهب لشأنه ، والتقت هو إلى مقصورة روكسان فرأها ملتفتة إليه لا تكاد ترفع نظرها عنه ، فألقى عليها نظرة حزينة وقال في نفسه : وأسفاه لا بد لي أن أتركها الآن ، ثم ألقى على الفيوكوت نظرة ملتهبة وقال : وأن أتركه أيضاً ، لأنني أريد إلقاء لينير ، ثم ترك الملعوب وانصرف ليغتسل عن صديقه في تلك الحالات الخمس .

البطل

بدأ الموسيقيون يوقعون على آلاتهم نغماتهم الرقيقة الشجية وسكتت الحماهير تنتظر رفع الستار ، فهمس لبريه في أذن راجنو : ترى هل يظهر منفلوري على المسرح الآن ؟ قال : نعم ما من ذلك بد ، لأنه صاحب الدور الأول في الرواية ، ولأنه قد علم أن سيرانو لا يحضر بعد الآن ، وأظن أنني قد خسرت الرهان ، قال : فليكن فقد كنت أتوقع من حضوره شرّاً عظيناً .

وهنا دق الجرس ثلاث دقات ثم ارتفع الستار فظهر منفلوري على المسرح لابساً ملابس راع وعلى رأسه قبعة حملة بالورود مائلة إلى أذنه وفي يده أرغول طويل ينفتح فيه ، فصافق له الجمهور تصفيقاً كثيراً فشكرهم بإيماءة رأسه ، ثم أنشأ يمثل دور فيدين ويختفي بهذه القطعة « هنئاً للذين يبتعدون عن قصور الملوك جهلاً »

بل يعتزلوا العالم بأسره ويفررون منه إلى مكان ناء في منقطع العمران لا يرون فيه غير وجه الطبيعة الجميل « وهذا رن صوت عظيم في جوانب القاعة يقول : « ألم أحرم عليك التمثيل شهراً كاملاً يا منفلوري » ؟ فدهش الجمهور وحمد منفلوري في مكانه والتفت ناس يمنة ويسرة يفتحون عن صاحب الصوت أين مكانه ، ووقفت النساء في المقصورة ينظرن ماذا جرى ، وهمس راجنو في أذن لبريه . قد ربحت الرهان يا صديقي فيها هو سيرانو قد حضر ، فقال لبريه : ليته لم يحضر هوليث خسرت كل شيء ، وما هي إلا لحظة حتى ظهر سيرانو يتخطى الرقاب ويدفع المقادع بين يديه دفعاً ويزجر زمرة الرعد حتى وصل إلى كرسي أمام المسرح فاعتلاه وهز عصاه الطويلة في وجه الممثل وقال له : اترك المسرح حالاً يا أحقر الممثلين ، وإلا فأنت أعلم بما يكون ، فسخط جمهور من الناس سخطاً شديداً وضجوا من كل ناحية : مثل يا منفلوري مثل ولا تخف . فتشجع منفلوري وعاد إلى التغنى بقطعته : « هنيئاً للذين يبتعدون عن قصور الملوك ، جهدهم بل يعتزلون العالم بأسره ... » فمقاطعه سيرانو وصال وهو يزار زير الليث : كأنك تأبى أيها الغي الأحمق إلا أن أجعل ظهرك مزرعة لعصايك هذه فاترك المسرح حالاً فقد أوشكك أن أغضب . فاحتدم الجمهور غيظاً وأخذوا يصيحون : صه أيها الجنون مثل يا منفلوري إنه فضول غريب ، إنها سماحة نادرة ؛ فعاد إلى الممثل هدوءه وسكونه ، وعاد إلى التغنى بقطعته « هنيئاً للذين ... » مما نطق بأول حرف منها حتى وثبت سيرانو من كرسيه الذي كان واقفاً عليه إلى أقرب كرسي إلى المسرح وهز عصاه في وجهه وصال : لا تمثل أيها الدب المائل ولا تنطق بحرف واحد ، فإن فعلت ضربتك بعصايك هذه على وجهك ضربة لا تعرف من بعدها أي مكان

أنفك منك ! قد أمرتك وليس في العالم قوة تستطيع أن تعرّض
 أمري ، فطاش عقل منفلوري وتلجلج لسانه والتفت إلى الأشراف
 الحالسين على المسرح من حوله وقال : النجدة يا سادي ، فنظر
 أحدهم إلى سيرانو نظرة عظمة وكبراء وقال له : كفى هذيان
 إليها الفضولي الثرثار فقد أزعجتنا بفضوضائكم وكدرت صفونا ،
 والتفت آخر إلى الممثل وقال له : مثل يا رجل ولا تحفل بشيء
 فأنا أححبك ، وقال آخر : لقد تجاوز الحد هذا الواقع حتى كاد
 يفرغ صبرنا ، فاتجه إليهم سيرانو وأنشأ يخاطبهم ويقول : يجب
 على حضرات السادة الأشراف أن يلزموا أماكنهم ويخافظوا على
 حيالاتهم ، فإني أشعر أن عصايك تتلهف شوقاً إلى التهام شرائطهم
 وأوسناتهم ! فانتقض الأشراف غيظاً وتناهضوا للقيام وهاج
 بال الجمهور هياجاً شديداً وأحاط جمع عظيم منهم بكرسى سيرانو
 وأخذوا يصيحون في وجهه ويولولون ويقلدون أصوات الحيوان
 كالدبى والهر والكلب والحمار ، فاستدار نحوهم سيرانو وألقى
 عليهم نظرة هائلة خفيفة فتراجعوا قليلاً إلا أنهم ظلوا مستمرين
 في هياجهم وفضوضائهم وأخذوا يغنون بصوت واحد أشودة
 هزلية يقولون فيها : « برغمك يا سيرانو ستقتل رواية كلوريز ،
 برغمك يا سيرانو سيمثل منفلوري » يكررونها مراراً ، فاستدار
 إليهم ثانية وزجر في وجوههم وصرخ فيهم صرخة هائلة وقال :
 إلا تستطيعون إليها السفلة الأوغاد أن تتركوا سيفي هادئاً في عمد
 ساعة واحدة ؟ لا أحب أن أسمع منكم هذه الأشودة مرة أخرى
 إلا حطمتكم جميعاً ، فقال له أحدهم : إنك لست بشمسون
 الجبار الذي ضرب جمعاً عظيماً من الناس بعث كلب فقتلهم ،
 فالتفت إليهم وقال : أستطيع أن أكون مثله لو أنك أعرتني فنك
 يا هذا ! ثم التفت إلى منفلوري فرأه لا يزال واقفاً مكانه فقال :

يا للعجب ، إنه لم ينفذ أمري حتى الآن إنه يأتي إلا أن أجعل هذا المسرح مائدة أشرح عليها حمه تشيحاً ، فعاد منفوري إلى استنجاده واستصراره وظل يقول : النجدة النجدة ، الغوث الغوث ؛ فازداد غضب الجمورو وهياجهم وأحاطوا بكرسي سيرانو من كل ناحية وأخذوا بهدونه ويندرونه بالويل والثبور ، وعادوا إلى الترم بأنشودتهم الأولى وتقليل أصوات الحيوان ، فاستدار اليهم فجأة ثم وثب من كرسيه إلى الأرض وتقىدم نحوهم بعصاه فتفهقروا بين يديه حتى اتسعت الدائرة من حوله اتساعاً عظيماً فصاح فيهم إني أمركم جميعاً أن تسكتوا ، لا ينطق أحد منكم بحرف واحد بعد الآن ، إني أعرف صور وجوهكم جميعاً فليس في استطاعة واحد منكم أن يفلت من يدي ، من ذا الذي يريد أن يكون أول ناطق ليكون أول قتيل ؟ ثم مر بهم يتصفح وجوههم واحداً فواحداً ويقول من ذا الذي يريد ؟ أنت أيها الفتى ؟ أم أنت أيها الكهل ؟ أم أنت أيها الشيخ الهرم ؟ من منكم يجب أن يكون اسمه أول اسم في جريدة الأموات ! لم يجئني أحد بحرف واحد ؟ ما سكتكم ؟ أجبتم ؟ مالكم تفرون من وجهي ؟ قلدوا أصوات الحيوان ، غنو الأتشودة الباردة ! أرى صمتاً عيناً وسكوناً سائداً لا حركة ولا إشارة ؛ أظنهم قد ماتوا من شدة الخوف الآن استطيع أن أستمر في علي ، ثم اتجه إلى المسرح وأنسا يقول بصوت خشن أحش : أيها الأشراف ، أيها الغوغاء ، أيها الرجال ، أيتها النساء ، لا أريد أن أرى على جسم هذا المسرح هذا العمل القذر الخبيث فإن لم ينفجر من نفسه فجرته بهذا المبغض القاتل ولا أحب أن يعترض أحد منكم إرادتي أو أخذت البريء بذنب المجرم والخوار بذنب البخار ، ثم وضع يده على مقبض سيفه وقد استحالـت صورته إلى صورة وحش هائل كشر عن أنيابه

للفتث بكل ما يدنو منه ؛ فسكن الجمهور سكوناً عيقاً لا نامة فيه ولا حركة . فقال منفلوري بصوت خافت متقطع : إنك بإهانتك إياي يا سيدي قد أهنت الإلهة « تالي » فقال لا شأن لك بتلك الإلهة أيها الأحمق المأفوون ؛ لأنها إلهة التمثيل لا إلهة السخافات ولو إنها شاهدت موقفك هذا وانت تمثل بهذا الجسم الضخم الغليظ وهذه الحركات الباردة الثقلية لتناولت مني عصاي هذه وضررت بها على أحقر عضو في جسمك وهو أنا ذا أصفق ثلاث مرات ، وعند التصفيقة الثالثة لا بد أن تتلاشى من المسرح يا رأس الثور ، أسمعت ؟ فحاول منفلوري أن يتكلم فصيق سيرانو التصفيقة الأولى فطار قلب الممثل فرقاً ورعباً ، وظل يقلب نظره في الجماهير فلم يجد بينهم معيناً ولا ناصراً ، فأنشأ يقول بصوت مرتعد : سادتي سادتي ... أيرضيكم أن أهان في حضر تكم وأن يهان الفن على مرأى منكم ومسمع ؟ فصيق سيرانو التصفيقة الثانية ، فاشتد اهتمام الجماهير وتطاولت أعناقهم وتحولوا من المياج والغضب إلى الاهتمام بمعروفة النتيجة وأخذ بعضهم يهس في أذن بعض بأمثال هذه الكلمات : سيفي ، سيخرج ، سيجبن ، سيقاوم ، لا يستطيع البقاء ، لا يلقي به الفرار ؛ فحاول منفلوري أن يقول شيئاً آخر ولكنه سمع التصفيقة الثالثة فاختفى من المسرح كأنما قد غاص في مهوى عميق .

فهتف الجمهور لسيرانو هتافاً عظيماً إلا بضعة أفراد قلائل ، لا بل أخذ الكثير منهم يسب الممثل ويستهeme ويُسخر منه ، وجلس سيرانو على كرسيه جلسة الفائز المنتصر ، فتقدّم نحوه فتى من المفترجين وقال له : أتأذن لي يا سيدي أن أسألك ما هو السبب في بغضك منفلوري ؟ فصمت سيرانو لحظة ثم ألقى عليه نظرة باسمة هادئة وقال له : عندي لذلك سببان أولهما قبح تمثيله ورداءة

حركاته وأنه يعني الشعر العذب الرقيق بصوت مأنوذ خفتق فيفسده على صاحبه وينقصه على الناس ، وأما السبب الثاني فهو سري الخاص الذي لا يمكنني أن أبوح به لأحد ، فنقدم نحوه في آخر وقال له : ولكنك حرمتنا على كل حال مشاهدة رواية « كلوريز » وما كنا نؤثر ذلك ولا نرضاه ، قال : أظن أبي لم أحمرك شيئاً تقليساً إليها الفتى . فإن نظم « بارو » كثراه كلامها بارد غث لا يساوي شيئاً ولذلك قد كفيفتكم وكفيت نفسى مؤونة سماع روايته السخيفة غير آسف عليها ، فصاحت فتاة في الماقصير : من ذا الذي يعيش شاعرنا بارو ؟ أيسستطيع أحد أن يجرؤ على ذلك ؟ وتكلمت فتيات أخريات بمثل كلامها فرفع سيرانو نظره إلى الماقصير وأنشأ يخاطبهن ويقول : لكنّ يا سيداتي أن تكونّ جميلات رائعتن كما ت شأن ، ولكنّ أن تخبن الألباب وتستبن العقول بحسنكن ودلّكن ، ولكنّ أن تتسمن الابتسامات اللاجمعة البديعة التي تضيء بنورها ظلمات هذه الحياة ، ولكنّ أن تبعن السعادة والغبطة والسرور والبهجة في نفوس الناس جمياً فيحيوا بفضلن في هذا العالم حياة المسرة والمناء ، ولكنّ أن توحين روح الشعر إلى الشعراء ، وتملينها عليهم بسحركن وفتتكلن فيستطيعوا أن يطيروا بأجنحتهم في أجواء السموات العلا ويشرقوا منها على الدنيا ومن فيها شموسًا وأقمارًا . لكنّ كل هذا ، ولكن ليس لكنّ أن تجلسن في محكمة الشعر لتحكمن في قضية الشعاء .

وكان « بلوروز » صاحب الحان واقفاً على مقربة منه فقال له : وما رأيك يا سيدى في المال الذي خسرته الليلة بسبيلك ؟ قال : هذه هي الكلمة الوحيدة المعقولة التي سمعتها الليلة في هذا المكان ، ثم ضرب يده في جيشه وأخرج منه كيساً مملوءاً فضة ورمى به إليه ، فنهض بلوروز فرحاً وابتهاجاً وقال له : بمثل هذا الثمن آذن لك

يا سيدى بالحضور كل ليلة وبنعطيك ما تشاء من الروايات ، ثم التفت إلى المترجين ، وقال لهم : قد انتهى التمثيل يا سادتى فهيا جميعاً إلى الباب لتستروا نقودكم .

الأنفیات

وهنا تقدم رجل زري الهيئة قدر المنظر تلوح على وجهه سمات المهاة والضعة ممزوجة بالوقاحة والسماجة وقال له بصوت خشن أجيشه : لا يقف موقفك هذا يا سيدى ، ولا يجرؤ على مثل ما جرؤت عليه إلا أحد رجلين : إما عظيم أو صنيعة رجل عظيم ، فهل لك أن تخبرني من هو مولاك الذي أنت صنعيته ؟ فعجب سيرانو لأمره وظل يردد نظره فيه ساعة ، ثم قال له : ما أنا بصنعيه أحد إليها الرجل ، قال : أليس لك سيد يحميك ويرعاك ؟ قال : لا ، قال : ألا تلجم في ساعات شدّتك وحرصتك إلى نبيل من بناء هذا البلد أو أمير من أمرائه يسبّل عليك ستر حمايته ؟ قال : قلت لك « لا » مرتين فهل ترى حتماً لازماً أن أقوّلها لك مائة مرة لتفهمها ؟ ثم وضع يده على مقبض سيفه وقال : ليس لي حام ولا سيد غير هذا ، فقال : إذن لا تطلع عليك شمس الغد حتى تكون قد شددت رحلتك وتزودت زادك وغادرت باريس إلى بلد ناء لا رجعة لك منه أبداً الدهر ، قال : لماذا ؟ قال : لأن مونفلوري الذي أهنته الليلة صنيعة رجل عظيم هو « الدوق دي كندال » وذراع هذا الرجل طويلة جداً تتناول أبعد الأشياء ولو كانت في قرن الشمس ، قال : ولكنها ليست أطول من ذراعي حين أصلها بسيفي . قال : إنك لا تستطيع أن تزعّم في نفسك أنك .. فقاطعه سيرانو وصاح : أستطيع أن أزعم كل شيء إليها الفضولي الثرثار فاغرب من وجهي وأطلب لنفسك طريق الخلاص مني ، فظل

الرجل جامداً مكانه يحدق فيه تحديداً شديداً لا يطرف ولا يتحرك ، فانفجر سيرانو غيظاً وانقض عليه وأخذ بتلاييه وقال له : اخرج من هنا حالاً أو حدثي مالي أراك تنظر إلى أنفي هذه النظرة المريبة ؟ فصعق الرجل في مكانه وظل يرتعد بين يديه ، وكان يعلم كما يعلم الناس جميعاً أن سيرانو لا يغضب لشيء من الأشياء غضبه لأنفه ولا يتقم لشيء انتقامه له وقال : أنا يا سيدي ؟ قال : نعم أنت فما الذي تراه غريباً فيه ؟ قال إنك واهم يا سيدي فإني أقسم لك ما فكرت قط في شيء مما تقول ، قال : أتراه رخواً متهدلاً كخرطوم الفيل ؟ قال لا يا سيدي ، قال أو محدودباً كمتقارب البومة ؟ قال لا يا سيدي . قال : أو ينحيل إليك أن أربنته دمل كبير يزعجك منظره ؟ قال أبداً يا سيدي ، ما فكرت في ذلك فقط ، قال أو يتراءى لك أن الذباب يعشى منزلقاً فوق تضاريسه ؟ قال لا يا سيدي لم يخطر بيالي شيء من ذلك وأقسم لك ، قال : أتراه أعجبية من أعاجيب الده أو فلتات الطبيعة ؟ قال : لا يا سيدي لا هذا ولا ذاك ، قال : أترى لونه مضرأ بالنظر أو وضعه خارجاً عن الحد أو شكله مخالف للآداب العامة ؟ قال : آه يا إلهي ، لاني لم أسمح لنفسي بالنظر إليه مطلقاً ، قال : ولم لا تسمح لنفسك بالنظر إليه ؟ ... أتشمىز منه ؟ قال : أبداً يا سيدي سيدتي وأقسم لك .. !! قال : فهو في نظرك كبير جداً إلى هذا الحد ؟ قال : لا بل صغير جداً لا أكاد أشعر به ، قال : أتهزا بي إليها الرجل ! قال : عفواً يا سيدي فإني لا أدرى ما أقول ، قال : وهل تظن إليها الغبي الأحمق أن الأنف الصغير مفخرة من المفاخر التي يعتز بها صاحبها ؟ نعم إن أنفي كبير جداً لا يكبره أنف في هذا البلد ، وذلك ما أفتر به كل الفخر ، لأن الأنف الكبير عنوان الكرم والشرف والشجاعة والشمس ، وأنا

ذلك الذي اجتمعت له هذه الصفات جميعها ، وأما الوجه الكروي الأملس المجرد من هذا العنوان الشريف كوجهك هذا فلا يستحق غير اللطم ، ولطمه على وجهه لطمة هائلة ، ثم وكره برجله فقر الرجل هارباً من يديه ، وهو يصبح : التسجد. التسجد ! فعاد سيرانو إلى مكانه وجلس على كرسيه مفتخرأً وظل يقول : هذا إنذار مني لجميع الفضوليين الثرثرين الذين يحاولون أن يهزأوا بهذا الموضع الثاني في وجهي أن لا يفعلوا ، فإن خذلهم نفوسهم بشيء من ذلك سواء أكانوا من الغوغاء أم من النبلاء فليعلموا أنني لا أسمح لهم بالفرار من يدي كما سمحت لهذا الجبان الرعديد قبل أن أغرس ذباب سيفي في سويدة قلوبهم .

فانتفض الأشراف غيطاً وثاروا من أماكنهم ، وقال الكونت دي جيش : يخيل إليّ أن الرجل قد بدأ يضايقنا ، ثم انحدر من المسرح تبعه حاشيته حتى دنا من سيرانو والتفت إلى أصحابه وقال لهم : ألا يوجد بينكم من يصلح لمقارعة هذا الرجل ؟ فقال الكونت فالفير : أنا صاحبه يا سيدي فانتظر قليلاً فإني سأوفق إليه سهماً لا قبل له بالنجاة منه ، ثم تقدم نحو سيرانو ، وهو جالس على كرسيه جلسة العظمة والكرياء وظل يرد النظر في وجهه طويلاً ، ثم قال له : إن أنفك أيها الرجل قبيح جداً . فرفع سيرانو نظره إليه بهدوء وسكون ، ثم قهقهه قهقهة طويلة وقال : ثم ماذا ؟ قال لا شيء سوى أن أقول لك مرة أخرى : إن أنفك أتعجوبة من أتعجب الزمان ؟ فنهض سيرانو عن كرسيه متثاقلاً وتقدم نحوه خطوة وألقى عليه نظرة من تلکم النظرات الهائلة التي اعتاد أن يصرع بها خصومه حين يلقاها عليهم وقال له : ثم ماذا ؟ فاضطرب الفيكونت وشعر بدبب الحرف في قلبه وقال : لا شيء ، قال : لهذا هو السهم القاتل الذي أردت أن ترمي بي به ؟

لقد كنت أظن أنك أذكي من ذلك ، فازداد اضطراب الفيكونت وقال : وماذا تريده ؟ قال : أريد أن أقول لك إن مجال القول في الآفاف ذو سعة ، ولو كان عندك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء أو أن لك بعض العلم بأساليب الخطاب ومناهجه لاستطعت أن تقول لي في هذا الموضوع شيئاً كثيراً ، كأن تقول لي مثلاً بلهجة « المتنطعين » : لو كان لي إليها الرجل أنف مثل أنفك هذا لأرحت نفسي والعالم منه بصرية واحدة من حد سيفي ، وبلهجة « المتلطفين » حبذا لو صنعت يا سيدي لأنفك كأساً خاصة به فإني أراه يشرب معك من كأسك التي تشرب منها ، وبأسلوب « الواصفين » : ما أرى أنفك إلا صخرة عاتية ، أو هضبة مشرفة ، أو روشا مطلأً أو رأساً ناتتاً ، أو لساناً متداً . وبنغمة « الفضوليين » : ما هذا الشيء الثاني في وجهك يا سيدي ؟ أحصاره مستطيلة أم دواة للكتابة ، أم صندوق للأمواس ، أم علبة للمقاريف ؟ وبلهجة « الماجنين » أبلغ بك غرامك بالطيوور يا سيدي أن تبني لها في وجهك برجاً خاصاً بها لتقع عليه كلما قطعت شوطاً من أشواطها ؟ وبأسلوب « المداهين » هنيئاً لك يا سيدي هذا القصر الضخم الذي بنيته لنفسك على هذه الربوة البدعة ! . وباللهجة الشعرية : أنفك القباثة التي توقع عليها إلهة الشعر أغamasها الشجية ؟ وبروح السذاجة : في أي ساعة تفتح أبواب هذا الهيكل يا سيدي الحارس ؟ وبالبساطة الريفية : ما هذا يا سيدي أنف ضخم ، أم لفته كبيرة أم شمامه صغيرة ؟ وباللهجة العسكرية : صوب هذا المدفع نحو فرقه الفرسان إليها الجندي . وباللغة المالية : أتريد أن تصفع أنفك هذا في « اليانصيب » إنه يكون بلا شك النمرة الكبرى ، وباللهجة التمثيلية : وهذا هو الأنف الذي أفسد تحنيط وجه صاحبه فساداً عظيماً يا له من مجرم أثيم ، ومعتد زنيم .

ويمكنك أن تقول لي «متعبراً» : ألا تخاف أنها الرجل وأنت تنفس دخان لفافتك من هذه المدخنة الضخمة أن يصيغ الناس حين يرونك : الحريق الحريق؟ و «متأدباً» : لقد أخر هذا التوء البارز في وجهك يا سيدى بتوازن جسمك فاحترس من السقوط ، و «متائفاً» : ألا يحمل بك يا سيدى أن تضع لأنفك هذا مظلة خاصة به حتى لا يتغير لونه من تأثير حرارة الشمس؟ و «متخذلقاً» : إن الحيوان الضخم الذي سماه الفيلسوف أرستوقان «تيلخر تيفيلو جملوس»^(١) هو الحيوان الوحيد الذي يمكنه أن يحمل كمية من اللحم توازن الكمية التي تحملها في وجهك ، و «مازحاً» : ما أجمله مشجباً لتعليق القلans والطials . و «مغالياً» : ليس في استطاعة أي ريح مهما اشتد هبوبها أن تجلب لأنفك الزكام غير ريح السموم . و «متهكمًا» ما أجمله إعلاناً لو وضع على واجهة حانت من حوانيت الروائع العطرية ! و «متفعجاً» ما البحر الأحمر إلا الدم الذي فصد من أنفك . ذلك ما كان يجب أن تقوله لي لو كان في رأسك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء ، على أنك لو استطعت لحال بينك وبين ذلك الحوف والرعب ؛ لأنك تعلم أنني إن سمحت لنفسي بالسخرية من نفسي أحياناً فإني لا أسمح لأحد بالسخرية مني مطلقاً ، فلقد جمعت في نفسك بين الغباء والجهل ، والجن وآلور ، حتى لا أحسب أنك لا تحسن هجاء كلمة في اللغة غير كلمة الحماقة ، ولا تحمل في رأسك معنى غير معناها ؛ فجن الكونت دي جيش غيظاً وقال للفيكونت : منرأي أن ترك هذا المجنون و شأنه فإننا متحدون الليلة برجل لا بد أن يكون قد

(١) حيوان خيالي ضخم ، والكلمة منحوتة من تيلخ ، خرتقيت ، فيل ، جل ، أكبر سجم هذه الأنواع من الحيوان .

أفلت الساعة من يد حارس المارستان ، فقال الفيكونت : إن الذي يغطيوني ويولّني أن تصدر أمثال هذه الكلمات الملوءة كبراً وعظمة من حقير مفلوك لا يملك من متع الدنيا شيئاً حتى قفازاً في يده ولا يحمل على ثوبه أي علامة من علامات الشرف ؛ فارتعش سيرانو غيظاً ولكن تجلد واستمسك وأنشأ يقول بصوت هادئ رزين :

نعم أعرف لك يا سيدي بأنني رجل فقير مفلوك لا أملك من متع الدنيا شيئاً وأنني لا أحمل على صدرني أي هنة من تلك المحنات التي تسمونها شارات الشرف ، ولكن ائذن لي أن أقول لك كلمة واحدة ثم أنت وشأنك بعد ذلك .

لاني لا أحفل يا سيدي بالصور والرسوم والأزياء والألوان ، ولا يعنيني جمال الصورة وحسنها ولا برقشة الثياب ونحنتها ، وحسبي من الجمال أني رجل شريف مستقيم ، ولا أكذب ولا أتلون ، ولا أداهن ، ولا أتلق وأن نفسي نقية بيضاء غير ملوثة بأدران الرذائل والمفاسد ، فلن فاتني الوجه الجميل والثوب — الملوف والوسام اللامع والجواهر الساطع ، فلم يفتني شرف المبدأ ولا عزة النفس ولا إباء الضيم ولا نقاطه الصغير .

إن الحبطة العالية يا سيدي لا تحتاج إلى تاج يزيّنها ، وإن الصدر الملوء بالشرف والفضيلة لا يحتاج إلى وسام يرزاً فوقه ، فليفخر الفاخرون بما شاعوا من فضتهم وذهبهم وألقابهم ومناصبهم . أما أنا فحسبي من الفخر أني أستطيع أن أمشي بين الناس برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقى أبيض ، لم تعلق به ذرة من غبار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب السفاله والدناءة ، لا أهاب شيئاً ، ولا أغضى شيء ، ولا أخجل من شيء .

نعم لأنني لا أملك قفازاً في يدي كما تقول ، ولكن آتري ما السبب في ذلك ؟ السبب فيه أنني قطعت جميع قفازاتي على وجوه السفهاء والفضوليين الذين يغترضون طريفي مثلث عقاباً على وقاحتهم وفضولهم ، ولم يكن باقياً لي منها حتى ليلة أمس إلا زوج عتيق جداً احتجت إليه في موقف كموقي هذا ملوك فرميت به في وجه أحد السفهاء فلصق بخدّه فتركه مكانه وانصرفت .

فجن الفيكونت غيظاً وأخذ يهدى ويقول : صعلوك ، باش ، وقع ، حقير ، سافل ؛ فانحنى سيرانو بين يديه رافعاً قبته عن رأسه وقال له : تشرفت بمعرفة اسمك يا سيدي ، أما أنا فأسمى سيرانو سافينيان هركيل دي برجراك الجاسكوني ، فصاحب الفيكونت : صه أيها النذل الساقط ، فجمد سيرانو لحظة ثم انحنى على نفسه وأخذ يتلوى ويصبح كأنما أصيب بألم شديد في بعض أعضائه ، فظن الفيكونت أنه قد عرض له عارض ميت ، فحنا عليه وقال له : ماذا أصابيك ؟ فلم يجب ، وظل يصبح ويتآوه ، فقال له : ما شكاتك أيها المسكين ؟ قال : خدر شديد يوشّي جداً ، قال : في قدمك ؟ قال : لا ، قال : في فخذك ؟ قال : لا ، قال : إذن في ذراعك ؟ قال : ليته كان كذلك ، قال : قل لي في أي مكان هو ؟ قال : في سيفي ، فدهش الفيكونت وقال : وماذا تريدين ؟ قال : لقد طال لبئه في غمده زماناً طويلاً فأصابه هذا التعذيب الشديد ولا علاج له غير الامتناع .

المبارزة الشعرية

فقطن الفيكونت لما أراد وعلم أنها المبارزة ما من ذلك بد فتشجع وقال فليكن ما تريدين ، قال : أتعلم أنني سأضررك ضربة

غريبة لم ير الراؤون مثلها؟ قال : خيال شاعر كذاب ، قال : ان الشاعر لا يكذب ولكنه يقول ما لا يفهمه الأغياء فيظنونه كاذباً ، وفي استطاعتي أن أرتجل في أثناء القتال الذي يدور بيني وبينك موشحاً لا أقول فيه شيئاً إلا فعلته ، وسيكون مركباً من خمس قطع يتدلى أولاً بابتداء المبارزة وينتهي آخرها بانتهاء حياتك يا فيكونت ، فصاح الفيكونت كذبت وإنك لأعجز من ذلك ، قال : لم أكذب في حياتي قط ، وهو هو ذا عنوان موشح بالجديد وأخذ يلقي العنوان ماداً به صوته كأنما يمثل على مسرح ويقول : «موشح القتال الذي دار بين السيد سيرانو دي برجراك وبين صعلوك من الصعاليك المتبلين اسمه الفيكونت فالفير في حانة بورجونيا » ثم جرد سيفه وبدأ يقاتل ويلقي موشحه ويوقع ضرباته على نفماته ويقول :

* * *

لاني أرمي بهدوء قبقي ، وأنخلع عن منكبي ردائى ، ثم أجرب من غمده سيفي ، ثم أتقدّم نحوك رشيقاً كسيلادون وشجاعاً كاسكاريوس ، ولا بد أني في المقطع الأخير أصيّب .

* * *

وكان جديراً بك أن تضن بنفسك على الموت ، إن الموت لا بد آت إليك ، لا أدرى أين أضع ذباب سيفي من جسمك أفي جنبك تحت ثدييك؟ أم في قلبك تحت وسامك؟ وعلى ذلـ حال ففي المقطع الأخير أصيّب .

ترسلك يرن تحت ضربات سيفي ، ذباب سيفي يلتهب التهاباً ، قلبك يخفق من الرعب والخوف ، فرائصك ترتعد وتضطرب

من القاعة تباعاً وكان الممثل منفلوري لا يزال واقفاً في الطريق العام فظلوا يسبونه ويشتمونه كلما مرروا به ويعبرونه بالجبن والقرار ، حتى إذا لم يبق في الحانة أحد قال لبريه لسيرانو : هل لك أن تختلف هنا قليلاً أيها الصديق لأنني أريد أن أتحدث إليك في بعض الشؤون ؟ فقال سيرانو لصاحب الحانة : أناذن لنا أن نبقى هنا هنيهة أنا وصديقي لبريه ؟ قال : نعم كما تشاء يا سيدي وسأخرج أنا وجماعة الممثلين لتناول طعام العشاء ونتزه قليلاً ثم نعود بعد ساعة لتهيئة الرواية المقبلة وصاح بالخدم :أغلقوا الأبواب وأبقوا الأنوار كما هي حتى نعود ، ثم انصرف هو وسائر الممثلين .

سريرة سيرانو

قال لبريه لسيرانو : وأنت ألا ت يريد أن تتعشى أيضاً قال : لا ، قال : لماذا ؟ قال : لأنني لا أملك نقوداً ، فقهه لبريه ضاحكاً ، فدهش سيرانو والتفت إليه وقال له : مم تصاحك ؟ قال : تذكرت ذلك الموقف البخمي وأنت تخرج كيسك من جيبك وترمي به بكل قواك إلى بلووز وتقول له : خذ هذا أنها الرجل فهو لك ، قال : ألا ترى أنها كانت حركة بدعة ، قال : نعم ، ولكنها لا تغفي عن العشاء شيئاً ولا أدرى ماذا تصنع بعد اليوم وأنت لا تزال في الأسبوع الأول من الشهر ، ولا أحسب أن أبيك يرسل إليك النفقة الشهرية مرة أخرى ، وكانت فتاة المتصرف واقفة على مقربة منها تسمع حديثهما دون أن يتبهبا لها فتحركت حركة مسموعة فالتفت إليها سيرانو فمشت نحوه ووضعت يدها على كتفه وألقت عليه نظرة عطف وحنو لو أنها ألقتها على وجه غير وجهه لظنها الناس بحملها ورفتها نظرة حب وغرام وقالت له : أنت ضيفي الليلة يا سيدي ، وهذا هو ذا الطعام بين يديك فادر

من المائدة وتناول منها ما شاء ، فقال : شكرأ لك يا صديقتي ، وبالرغم من أن عظمي الجاسكونية لا تسمح لي أن أمد يدي لتناول أي شيء من أي إنسان فإني ألبى دعوتك لإبقاء على صداقتك وودك ، ثم تقدم نحو المائدة وتناول ثلاث حبات من العنب وقرصاً صغيراً وكأساً من الماء وقال . هذا يكفي ، قالت له : خذ شيئاً آخر ، قال : لا حاجة بي إلى شيء بعد ذلك إلا إلى قبلة من يدك الجميلة فاسمح لي بها ، وتناول يدها فقبلها وجهها يلتهب حباً وخجلاً ، ثم وضع الطعام بين يديه وهو يتمتم بصوت ضعيف ويقول : « لقمة صغيرة لا تملأ معدة طفل وثلاث حبات من العنب لا تملأ الفم . آه ما أشد جوعي » ثم التفت إلى لبريه وقال له : ماذا كنت تريدين أن تقول لي يا لبريه ؟ تكلمت فإني مصفع إليك ، قال كنت أريد أن أقول لك : إن هؤلاء الطائشين المغرورين الذين لا حديث لهم ولهم ونهاهم إلا حديث الطعن والضرب والغالبة والمصارعة سيفسدون عليك عقلك ، ويهدمون نظام حياتك ، ولو أنك جريت معهم في هذا المصمار طويلاً ، وكانت عاقبتك أونجم العاقد وأردأها ، سل العقلاء أصحاب العقول الراجحة والآراء المستحصلة ، ماذا كان وقع حادث الليلة في نفوسهم وخاصة في نفس رجل عاقل كيس كنيافة الكردينال ؟ فقال له وكان قد انتهى من طعامه : أكان الكردينال هنا ؟ قال : نعم ، ولا بد أن يكون رأيه فيك شيئاً جداً ، قال لا بل بالعكس ، لأنه شاعر ، والشاعر يعجبه دائماً أن يربى بعينيه منظر سقوط رواية ينظمها شاعر آخر . قال : ولكنك قد اخترت لك الليلة أعداء كثيرين لا ادرى ماذا يكون شأنك معهم غداً ، قال : كم تظنهم على وجه التزبيب ! قال : أربعين غير النساء ، قال : أذكر لي بعضهم مثلاً ، قال منفلوري ، دي جيش ، دي جيجي ، فالفير ، بارو مؤلف

الرواية ، الممثلون ، أعضاء المجتمع العلمي ... قال : كفى كفى ،
فقد فهمت ، إنها نتيجة جميلة جداً ، كنت أظن أن أعدائي
أصغر شأناً من ذلك ، فعجب لبريه لأمره وقال له : أتعرف
لك يا سيرانو أنني قد عيت بأمرك إعيا شديداً وأصبحت لا
أدرى إلى أين تصل بك هذه الحالة الغريبة وتلك الأساليب الشاذة
ولا أنهم ما هي حقيقة رأيك في الحياة ولا ما هي خطتك التي
انتهيتها لنفسك فيها ! فأطرق سيرانو لحظة ثم رفع رأسه وقال
له : اسمع يا لبريه :

إن الخطط في الحياة كثيرة جداً ومتشعبة شعباً يحار فيه العقل ،
ولقد ضللت في مسالكها ببرهة من الزمن لا أعرف ماذا آخذ
منها وماذا أدع ، حتى اهتديت أخيراً إلى أبسطها وأسهلها ،
قال : وما هو ؟ قال : هو أن أكون موضع الإعجاب في كل
شيء ومن كل إنسان ، قال : فليكن ما تريده ، ولكن على شرط
أن تكون أفعالك أشبه بأفعال العقلاة منها بأفعال المجانين ، قال :
لا أستطيع أن أعرف الحد الفاصل بين العقل والجنون ، قال :
هل لك أن تخبرني لم تضمر في نفسك هذا البعض الشديد لمنفلوري ،
وما أذكر أن الرجل اسمه إليك في حياته قط ؟ قال : أبغضه
لأنه وهو ذلك العتل البطين الذي لا تستطيع يده أن تصل إلى
سرته يظن نفسه رشيقاً جميلاً يستطيع أن يخليب قلوب النساء
ويستهوي ألباهن بخفة ورشاقته ، فإذا وقف على المسرح للتمثيل
القى عليهم في مقاصير هن نظارات الضفادع بصورة
تعافها الأنفاس وتندى لها الوجوه ولقد أضمرت له في نفسي
تلك الموجدة منذ الليلة التي رأيته يخترب على أن يوجه إليها
نظراته المتنفسائية البشرية ، فلقد خيل إليّ في تلك الساعة أن دودة
سوداء قد دبت من مكانها إلى وردة نمرة ناعمة فلصقت بها

فأزعجني هذا المنظر المؤلم أزعاجاً شديداً ولم أر بدأ من معاقبته على جهله وغباؤته فحكمت عليه بالانقطاع عن التمثيل شهراً كاملاً ، فقال : لبريه ، ومن هي تلك التي تريد؟ يخيلي إلى أنك عاشق يا سيرانو ، فابتسم ابتسامة الممتعض المتألم ثم تنفس تنفسة طويلة كادت تساقط لها جوانب نفسه وقال : نعم يا لبريه ، إني أحب حباً فاتلاً لا بد أن يسوقني إلى القبر ، قال : وهل يمكنني أن أعرف من هي تلك التي تحبها؟ فإنك لم تحدثني عنها قبل اليوم . قال : أي فائدة لي من ذكرها وهي لا تخبني؟ قال وكيف عرفت ذلك ، هل فاحتها في شيء؟ قال وكيف يمكنني أن أفاحتها وأنا أعلم أن هذا الألف البشع القبيح الذي أحمله يتقدمني حيالها ذهبت وأنى سلكت ، فلا يسمع لي بالطبع في قلب امرأة قبيحة شوهاء فضلاً عن جميلة حسناء؟ قال : ألا يمكنني أن أعرف من هي؟ قال : إذا عرفت أن سيرانو لا يمكن أن يحب إلا أجمل امرأة في العالم يمكنك أن تعرف من هي؟ فصمت لبريه هنيئة وهو يفكر حتى عجز فقال : لم أستطع أن أفهم شيئاً ، فهل لك أن تصفها لي؟ قال أما هذه فنعم ، هي الخطر العظيم الذي يحيط بالمرء من جميع نواحيه فلا يعرف له سبيلاً إلى الخلاص منه ، هي المغناطيس الجذاب الذي يستهوي قلب الناظر إليه وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، هي الوردة النسمة الناعمة التي تكمّن حية الحب السامة بين أوراقها ، من رأى ابتسامتها رأى الكمال الإنساني كلّه ، ومن رأى نظراتها رأى الدعة واللطف والرقة والعنودة وجميع معاني الحياة اللذيدة ، وفي كل حركة من حركاتها ، وإشارة من إشاراتها ، ولفتة من لفاتها شمس تضيء الكون وتثير ظلماته ، ليس في استطاعة « الزهرة » ربّة الجمال وهي جالسة فوق علياء عرشها العظيم

أن تضارعها في بعائثا وجلاطا . ولا في استطاعة « ديانا » إلهة الحب حين تسير بخفة ورشاقة وسط الرياض الناصرة أن تحاكيها في مشيتها وهي سائرة على قدميها الصغيرتين في ملابسي بستانها ، فقال لبريه : حسبك يا سيرانو فإنك تحب ابنة عملك روكسان ، ولكن لا ادري لم لا تفضي إليها بذات نفسك ما دمت تمت إليها بصلة القرابة التي بينك وبينها ؟ قال : ذلك ما أعجز عنه يا صديقي ، فإني رجل بائس مسكون قبضى الله عليه أن أغrieve في هذا العالم بلا أمل ولا رجاء ، تأمل في وجهي قليلاً وانظر هل يستطيع صاحب مثل هذا الوجه البشع الدميم أن يحيى في العالم حياة الحب والغرام ؟ أو أن يكون له أمل في اختلاف الأفتاده واجتناب القلوب ؟ لقد تمر بي في بعض أيامي ساعات أشعر فيها بحاجة قلبي إلى تلك الحياة الخلوة اللذينة التي يحيها الناس جمياً حياة الحب والغرام فأدخل إحدى الحدائق العامة وأمشي بين رياضها وأزهارها ، وأتسم روائحها وأنفاسها ، فأنسى نفسي وتخيل إلى آني أسبع في جو رائق صاف من الغواطف والوجدانات فإذا رأيت في ضوء أشعة القمر الفضية امرأة جميلة تمشي وحدها خيل إلى آني أستطيع أن أكون رفيقها الآخذ بذراعها ، وإذا رأيت فتى وفتاة سائزين على مهل يتهامسان ويتناجيان وتتموج أنوار الحب بينهما خيل إلى آني يجانبي رفيقة حسنة ترفرف على عاليها هذه الأجنحة البيضاء التي ترفرف عليهما ، ثم أستسلم لهذه التصورات والأفكار وأستغرق فيها ساعة طويلة حتى إذا وقع نظري فجأة على خيال وجهي في حائط الحديقة في ضوء القمر عدت إلى صوابي وأفقت من غيبوتي ورجعت أدراجي إلى منزلي وبي من الحزن ما الله به عليم ، ثم نكس رأسه ملياً وصمت صمتاً عميقاً كأنما يعالج في نفسه ألمًا مضًا فحنا عليه لبريه ، وقال

له : رحمة بنفسك يا صديقي ، فرفع رأسه وقال : نعم إن آلامي
 عظيمة جداً لا يتحملها بشر ، فلبت الله إذ خلقني على هذه الصور
 الدميمة البشرية لم يخلق لي قلباً خفافاً ، أو لبته إذ خلق لي هذا القلب
 الخفاف خلق له أجنحة يستطيع أن يطير بها في جو الحب كما
 طير القلوب الحوافق ؛ أما الآن فإني أشعر أنني وحيد في هذه
 الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، ولا أئيس ولا عشير ، ولا زوجة
 ولا ولد ، ثم عاد إلى إطراقه مرة أخرى وأنحدر يبكي فقال له :
 أتبكي يا سيرانو ؟ فانتفض ورفع رأسه وقال : لا يا
 لبريه ، وإن البكاء قبيح بمثلي ، ولا يوجد في العالم منظر أقبح
 ولا أسمج من منظر الدمعة الجميلة ، وهي سائلة على مثل هذا
 الأنف الضخم الطويل ، لا شيء في العالم أبدع ولا أرق ولا
 أجمل من الدمع ، وإن أحسن بها أن أذيلها وأهينها وأكلر
 صفوها وأشوه جمالها ؛ فتأثر لبريه لنظره تأثيراً شديداً وكاد يبكي
 لبكائه ، ولكنه تجلد واستمسك وقال له : لا تحزن يا صديقي
 ولا تستسلم لهذه الأوهام فما الحب في الدنيا إلا حظوظ وجذود ،
 وقد يأتيك عفواً ما تظن أنه أبعد الأشياء منهاً منك ، قال :
 لا أنت مخطيء يا لبريه فإنه لا يجوز لي أن أطمع في حب « كلبيباتره »
 إلا إذا كنت « قيسراً » ولا في حب « بيرنيس » إلا إذا كنت
 « تيتوس »^(١) قال : إن الله قد وهبك من العقل والذكاء
 والصفات الكريمة النادرة ما يقوم لك مقام الجمال ، ألم تر تلك
 الفتاة بائعة الحلوى ، وهي تنظر إليك نظرات الحب والشغف
 على أثر تلك المبارزة الغريبة التي انتصرت فيها على الفيكونت

(١) بيرنيس أميرة إسرائلية من أسرة هيرود حكم جوديه بفلسطين داماً تيتوس
 الامبراطور الروماني أثناء فتوحاته هناك فأحبها وأعجبه فأنهى بها إلى روما وأراد أن
 يتزوجها فأبى شبه عليه ذلك إباءً شديداً فاضطر أن يعيدها بالرغم منه ومنها .

الليلة؟ كذلك كان شأن روكسان ، فقد شاهدتها وهي تتبع سركانك أثناء المبارزة باهتمام عظيم وقلقها عليك ظاهر في اضطراب اعضائها واكتهار وجهها حتى إذا انتصرت على خصمك كانت هي أعظم الناس سروراً بانتصارك ؛ فانتعش سيرانو وهدأت نفسه قليلاً ، وقال : أصحح ما تقوله يا لبريه؟ قال : نعم ولا بد أن تكون تلك الحادثة قد تركت في قلبها أثراً عظيماً ، فإنها بهذه الفرصة وفاتها في شأن حبك ، قال : أخاف أن تسخر مني ، وهو الأمر الذي أخشاه أكثر من كل شيء في العالم .

وهنا ظهرت وصيحة روكسان دائلة من الباب الكبير ، ولم تزل سائرة حتى وقفت أمام سيرانو ، فدهش لرؤيتها دهشة عظمى وخفق قلبها خفقاً متداركاً وقال : آه يا لها إنها وصيحتها ، وظل يرتعد ويضطرب ؛ فانحنى الوصيحة بين يديه محية وقالت له : إن سيدتي روكسان تسأل ابن عمها البطل الشجاع سيرانو دي برجراك : متى يمكنها أن تراه غداً على انفراد لتحادثه في بعض الشؤون؟ وأين يكون مكان الاجتماع؟ فازداد اضطرابه وارتعد و قال : تراني أنا؟ قالت : نعم في المكان الذي تريده ، وفي الساعة التي تراها . قال : آه يا لها ، كيف يمكنني أن أصدق ذلك؟ قالت : إنها ستذهب غداً عند تفتح زهرات الصباح لسماع خطبة الوعظ في كنيسة «سان روك» ففي أي مكان تحب أن تقابلها بعد خروجها من الكنيسة؟ فارتاج عليه وظل يهمهم ويتنفس وانتشر عليه رأيه فلم يعرف ماذا يقول ، فقالت له : مالي أراك مضطرباً هكذا؟ أسرع باللحواب فإنها تنتظرني ، فقال بصوت خافت منقطع : إنني أنتظرها في الساعة السابعة من صباح الغد في مطعم راجنو ، قالت : وأين مكان هذا المطعم؟ قال : في رأس شاعر سان اتريه ، قالت : سأبلغها ذلك ، وانحنى ثانية بين يديه وانصرفت ، فظل

شانحصاً ببصره إلى السماء كالذاهل المشدوه ، وهو يردد بينه وبين نفسه : آه يا إلهي : كيف يمكنني أن أصدق ذلك ، إنها أرسلت إليـ وصيفتها تسأليـ أن أقابلها على انفراد فليت شعري ماذا ت يريد أن تقول لي ؟ فقال له لبريه : ت يريد أن تقول لك إنها تحبكـ ما في ذلك ريب ، ولقد تبأـت لك بذلك من قبل فلم تصدقني ، قال كيـفـما كان الأمر كذلك فحسبي منها أـنـي خطرت يـالـهاـ . إنـهاـ تعلمـ أـنـ في العالم إنساناً اسمـهـ سـيرـانـوـ ، قالـ : ما أحـسـبـكـ إـلاـ رـاضـيـاـ عنـ نفسـكـ الآـنـ ولاـ بدـ أـنـ تكونـ قدـ هـدـأـتـ تلكـ الثـورـةـ الـيـ كـانـتـ قـائـمـةـ فـيـ نـفـسـكـ ، قالـ : لاـ ماـ هـدـأـتـ ولاـ فـرـتـ ، بلـ أـصـبـحـتـ ثـائـرـاـ جـداـ ، وـأشـعـرـ أـنـ قـوـيـ قدـ اـزـدـادـتـ أـضـعـافـاـ مـضـاعـفـةـ ، فـلـوـ لـقـيـتـ الآـنـ جـيـشاـ كـامـلـ العـدـةـ وـالـعـدـ لـقـهـرـهـ وـحـديـ ، وـيـخـيـلـ إـلـيـ أـنـ بـيـنـ جـنـيـ عـشـرـةـ قـلـوبـ ، وـأـنـ فـيـ مـنـطـقـيـ عـشـرـةـ سـيـوفـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـقـاتـلـ بـهـاـ جـمـيـعاـ فـيـ آـنـ وـاحـدـ ، وـلـاـ يـكـفـيـ أـنـ أـحـارـبـ الـأـفـرـامـ وـالـضـاوـينـ وـالـجـبـنـاءـ كـذـلـكـ المـسـخـ الـذـيـ حـارـبـهـ الـلـيـلـةـ بلـ لـاـ بـدـ لـيـ مـنـ جـبـابـرـةـ وـعـالـقـةـ أـفـخـرـ بـقـاتـلـهـ وـالـفـلـجـ عـلـيـهـمـ .

باب نيل

وـكانـ يـتكلـمـ بـصـوـتـ عـالـ رـنـانـ وـيـصـرـخـ صـرـخـاتـ هـاـئـةـ مـزـعـجـةـ تـدوـيـ بـهـاـ أـرـجـاءـ القـاعـةـ كـأـنـاـ خـيـلـ إـلـيـهـ أـنـهـ فـيـ مـيـدانـ حـرـبـ ، وـأـنـهـ يـقـاتـلـ فـيـ أـوـلـئـكـ الـعـمـالـقـةـ وـالـجـبـابـرـةـ الـذـيـنـ ذـكـرـهـمـ .

وـكانـ المـمـثـلـونـ قـدـ عـادـواـ مـنـ نـزـهـتـهـمـ وـأـخـدـواـ يـهـيـئـونـ عـلـىـ المـسـرـحـ الرـوـاـيـةـ الـمـقـبـلـةـ فـأـرـعـجـهـمـ صـوـتـ سـيرـانـوـ ، وـهـوـ يـصـرـخـ فـصـاحـ بـهـ أـحـدـهـمـ : أـلـاـ تـزـالـ باـقـيـاـ هـنـاـ حـتـىـ الآـنـ يـاـ سـيرـانـوـ ؟ لـقـدـ أـزـعـجـتـنـاـ بـضـوـضـائـكـ وـصـبـخـكـ فـاهـدـاـ قـلـيلـاـ لـتـسـتـطـعـ أـنـ تـأـخـذـ فـيـ

عملنا ، فابتسم سيرانو وقال عفواً يا سادتي فسأترك لكم المكان
مسروراً مغتبطاً ، وهم بالمرحوم ، فما راعه إلا جماعة من الجنود
والضباط قد دخلوا الحانة يحيطون برجل يتزاح سكرآ فتأمله فإذا
هو لينير ، فهرع إليه مذعوراً وقال : ما بك يا صديقي ؟ قال
بلهجة متباقة : خذ هذه الورقة واقرأها إنها تنذرني بأن مائة رجل
يكمون لي الليلة في طريقي إلى منزلي عند «باب نيل» ليقتلوني
بسبب تلك القصيدة التي تعلمها ، فأذن لي بالذهاب إلى منزلك
لأنما فيه الليلة ؛ فأطرق سيرانو هنيهة ، وهو يهمهم قائلاً :
مائة رجل على رجل واحد ؟ ما أجيئهم وأسلف نفوسهم ، ثم
رفع رأسه وألقى على لينير نظرة عالية مترفة وقال له بهدوء
وسكون : لينير ! إنك ستاتم الليلة في بيتك ، فلم يفهم غرضه
وقال له وهو يتزاح ويتملق : ولكنك تعلم يا سيدي أنني رجل
ضعيف مسكون لا أقوى على مقاتلة هر فمن لي بلقاء مائة رجل
وحدي ؟ قال : إنني أنا الذي ألقاهم ، وأنا الذي سأقاتلهم ،
فخذ المصباح من يد الباب وسر أمامي ، وأقسم لك أنك ستاتم
الليلة في بيتك ، وأنني سأمهد لك فراشك بيدي ، لقد كنت أتمنى
منذ هنيهة أن أقاتل جيشاً كامل العدة والعدد ، وهذا هو ذا الجيش
الذي كنت أتمناه قد وافقني وحده ، إنني في هذه الليلة بل في هذه
الساعة على الأخص لا يحمل بي أن أقاتل أقل من هذا العدد ،
فتقدم نحوه لبريه ووضع يده على كتفه وأسر في أذنه : ألا يستطيع
هذا الرجل أن ينام الليلة في غير بيته ؟ وهل ترى من اللازム الختم
أن تخاطر بنفسك دفاعاً عن مثل هذا الأبله المأفون ، وكان المثلون
قد نزلوا من المسرح وأقبلوا يشاهدون الحادثة فوضع سيرانو
يده على كتف لبريه ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة هادئة لطيفة :
إن هذا السكير الذي لا يفيق بل السرزق الذي لا ينفذ هو أرق

الناس قلباً وأجملهم حساً وأشرفهم شعوراً ، رأيته مرة وقد خرج من الكنيسة يوم الأحد فرأى المرأة التي يحبها تتناول بيدها اللطيفة قليلاً من الماء المقدس فظل يرقبها حتى انصرفت فهجم على الحوض الذي وضع يدها فيه ، وما على وجه الأرض شيء أبغض إليه من الماء القرابح ؛ فما زال يكرع منه حتى أتى عليه ؛ فصاحت إحدى المثلاة : ما أجمل هذه الحادثة ، وما أرق هذا الشعور ! فالتفت إليها سيرانو وقال لها : أليس كذلك أيتها الفتاة ؟ قالت وارحمتها لهذا الرجل المسكين كيف يسمح مائة رجل لأنفسهم أن يتلقوا عليه ؟ ألا تعلم ما هو السبب في ذلك يا سيدي ؟ فلم يحبها سيرانو والتقت إلى جماعة من الجند الذين دخلوا مع لينير وقال لهم : ها أنذا ذاهب إلى المعركة الليلة ؛ فإن شئتم أن تكونوا معي فأنتم وشأنكم ، غير أن لي عليكم شرطاً واحداً فقط ، هو أنكم مهما رأيتم من الخطر المحدق بي فلا يتقدم أحد منكم لمساعدي ، ول يكن مكانكم مني مكان مراسلي الصحف ومندوبيها في المعارك ، يشاهدونها ولا يقرءونها ؛ فقالت الممثلة ؛ هل تأذن لي يا سيدي أن أذهب معكم حيث تذهبون ! قال نعم آذن لك ولكل من أراد الذهاب منكم ، فصاح الممثلون والموسيقيون جميعاً : كلنا نذهب معاً ؛ فابتهر سيرانو وتهلل وجهه وقال : يا له من موكب شائق بديع ، ثم جرد سيفه من غمده وضرب به الهواء وصاح صبيحة القائد في جنده ليتقدم الضباط ثم الجندي ثم الممثلون ثم الممثلات ثم الموسيقيون ، وهم يعزفون بالحانهم الحماسية ، وليتأخذ كل منكم في يده شمعة أو مصباحاً ، أما أنا فإني قائدكم العام وهذا هي الريشة التي ناولتني إياها يد المجد والفالخار ترفرف فوق قبعتي ؛ فأخذناوا يصطفون كما أمرهم ، وهم يمجنون ويضحكون كأنهم ذاهبون إلى مرصص ، وهنا التفت سيرانو إلى

الممثلة التي أعجبتها قصة لينير وقال لها : قد كنت سألتني أيتها الفتاة منذ هنีهة : لم يتلقى مائة رجل على رجل واحد مسكين ؟ فأقول لك جواباً على ذلك : إنهم ما فعلوا ذلك من أجله بل من أجلـي ؛ لأنـهم يعلمون أنـي صديقه الذي لا يخذلكـه ، ثم أمر البابـان أن يفتحـ البابـ الكبيرـ على مصراعـيه ففعلـ فتجلـي أمامـه منظرـ باريسـ العامـ في ضوءـ القمرـ الساطعـ فوقـ هنـيـهـةـ يتأملـ هذاـ المنـاظـرـ الـبـدـيـعـ ويـقـولـ : آهـ لـقـدـ طـلـعـ الـبـدـرـ وـتـلـلـاتـ أـشـعـتـهـ فـاخـتـفـتـ بـارـيـسـ الـمـظـلـمـةـ وـحـلتـ بـارـيـسـ الـمـيـرـةـ ،ـ هـاـ هيـ النـجـومـ الـلامـعةـ تـسـطـعـ فـيـ سـمـاءـهاـ ،ـ وـهـاـ هيـ أـشـعـةـ الـقـمـرـ تـسـيلـ عـلـىـ منـحدـراتـ سـطـوـحـهـاـ ،ـ وـهـاـ هوـ نـهـرـ السـينـ يـرـجـفـ تـحـتـ أـخـرـتـهـ الـبـيـضـاءـ اـرـتـجـافـ الـمـرـآـةـ السـحـرـيـةـ .

إنـ الطـبـيـعـةـ هـيـءـ لـنـاـ مـيـدانـاـ جـمـيـلاـ لـلـقـتـالـ الـرـهـيـبـ فـهـيـاـ بـناـ جـمـيـعاـ إـلـىـ «ـبـابـ نـيـلـ»ـ .

ثـمـ مشـىـ فـمـشـىـ الـجـمـيعـ وـرـاءـهـ يـنـقـلـونـ خطـواتـهـمـ عـلـىـ نـغـمـ الـموـسـيـقـىـ .

الفصل الثاني

المتشاعرون

فتح راجنو طاهي الشعاء والممثلين مطعمه مبكراً كعادته والطبور لا تزال جائمة في أوكرارها فجلس بين يدي منضدته ينظم على ضوء المصباح قطعة شعرية في وصف «اللوزينج»^(١) فكان يكتب على أوراقه مرة ليقيد ما حضره من الأبيات ويرفع عينيه إلى السماء أخرى ليستمد من إلهة الشعر روحها ويستلهمها وحيها ، ولم يزل على ذلك ساعة حتى بدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى من خلال النوافذ والكوى ودلت في المطبخ جلبة العمال، وضوضاؤهم وصلصلة الآنية والقدور فألفى قلمه واعتدل في جلسته وتأنه آلة طويلة ثم قال مخاطباً إلهة الشعر : وداعاً أيتها الإلهة القوية القادرة ، قد انقضى الليل وانقضى سكونه وهدوئه ، وجاء النهار بجلبه وضوضائه فدعوني واذهبني لشأنك غير مقلية ولا بجتوأة وموعدنا الليلة القابلة ، ثم مثني إلى المطبخ فرأى في مدخله إناء من النحاس الأصفر قد ألقت الشمس عليه أشعتها الصفراء فاشتد وريقه ولاؤه فوقف أمامه لحظة يتأمله ويقول : هذه هي الشمس قد استطاعت أن تصنع ما لا يصنعه الكيميائي الماهر ؛ فقد حولت النحاس الأصفر بشعاع واحد من أشعتها إلى عسجد وهاج ، ثم قال : ما أجمل هذا المعنى وأبدعه ، لا بد لي من

(١) نوع من الحلوي يؤدم بدهن اللوز .

تقبيده حتى لا يفلت من يدي إذا احتجت إليه ، وأخرج دفتره من جيده فقيده ، ثم وقف بأحد الفلامان وهو يشق بعديه في يده رغيفاً إلى شقين فقال له : لقد أخطأت القسمة أنها الغلام فالمصرا عن غير متوازنين ، ورأى آخر يشوي في نصل واحد ديكاً كبيراً وعصفوراً صغيراً فقال : إنها طريقة الشاعر « مالرب » وهي لا تعجبني ، فلما أن يكون البيت تماماً كله أو مجزوءاً كله ومر بطباخ يطبخ مرفاً في قدر فتناول الملعقة وأدار ما فيه ثم قال له : ما أرق هذا الحساء ! إنه كالشعر الملهل وأنا لا يعجبني إلا الجزل المتين ، ووقف أحد العمال بين يديه وسأله كم قيراطاً تحب أن يكون ارتفاع قبة القالوج اليوم ؟ قال : ثلاثة تقاعيل ، وتقدم بين يديه آخر حاملاً على يديه صينية مقطعة بنسيج رقيق وقال له : لقد اخترعت اليوم هذا الشكل يا سيدي فلعله يعجبك ثم رفع النسيج فإذا قبارة مصنوعة من الحلوى مغشاة بدقيق السكر الأبيض فنهل وجهه فرحاً وصاح : فكرة شعرية جميلة لم يسبقك إليها أحد ، وقد أعفيتك اليوم من العمل مكافأة لك على حسن تصورك وسمو خيالك ؛ فاذهب لشأنك وخذ هذه القطعة الفضية واشرب بها نخب الفنون الجميلة .

دواوين الشعراء

لم يزل يطوف بالعمال ويختابهم بهذا الأسلوب المضحك الغريب ، وهم يتغامرون عليه ويتصاحكون من ورائه حتى خرج فمشى إلى قاعة الطعام فرأى زوجته « ليز » تصفف على المائدة أنواع الحلوى والفطائر والقدائد والرشاش والرقائق وقد اتخذت أو عيّتها وأكياسها من صحائف الكتب الأدبية ودواوين الشعراء

التي كانت تبعاً عنها من الوراقين لهذا الغرض ؛ فألقى على الأكياس نظرة حزينة مكتوبة وقال : أهكذا تصنعن بدواوين أصدقائي الشعراً المجيدين ! لقد كنت أتمنى أن أرى وجه الموت قبل أن أرى تلك الأخلاق التفيسة والبواهر المتناثرة أوعية للقطائر والحلوى في حوانيت الطهاة والحلويين فوارحمته للأدب ووأسفاً عليه وعلى عهده الزاهر النضير ، فألقت عليه نظرة ازداء واحتقار وقالت له : إننا ما أردنا إهانة دواوين أصدقائك ولا الزرارة بها ولكننا علمنا أنها لم تخلق إلا للعنة والأرضة وأن شاعر الشمس لن يصل إلى مكانها أبداً الدهر ، فأردنا أن نختال على الناس في أمرها فنشرناها من قبورها وقدمناها إليهم لفائدة القطائر والحلوى عليهم يلمحونها عرضاً فيقرعونها ، فليشكِّر لنا أصدقاؤك متتنا عليهم ويدنا عندهم ، فاختد راجنو غيظاً وقال لها : أيتها النملة الضعيفة لا تهيني الثور العظيم فيصرعك بخافره صرعة لا قيمة لك من بعدها . فقالت : لعنة الله عليك وعلى جميع ثيرانك من عهد هومير^(١) إلى عهدهك ، وتركته وانصرف .

وما هي إلا هنيئة حتى دخل المطعم غلام صغير يطلب قرصاً من الحلوي فتناول راجنو أحد الأكياس وتأمله قبل أن يعطيه إياه فوق نظره على هذه الكلمة « ولما فارق عولس بينيلوب » فأعاده إلى مكانه ، وقال : شعر بديع لا أستطيع أن أسمح به . وتناول كيساً آخر فقرأ عليه هذا العنوان « إلى أبولون » فقال : وأ هذا ، ووضعه مكانه وتناول كيساً ثالثاً فقرأ عليه « إلى فيليس » فقال : ولا هذا أيضاً ، وأراد أن يعيده إلى مكانه فالتفت إليه ووجته فخافها وأعطاتها الغلام فأخذه وانصرف .

(١) هومير - صاحب الإلياذة - شاعر يوناني قديم .

ولم يلبث أن تغفل زوجته وعدا وراء الغلام حتى أدركه في الطريق فصرع إليه أن يرد له الكيس فارغاً فأبى الغلام إلا إذا أخذ في مقابلة قرصاً آخر أو أخذ القرص بلا ثمن ! فرد إليه راجنو الثمن وعاد بالصحيفة فرحاً مغبظاً يمسح عنها الدهن الذي غمرها ويضمها إلى صدره ويتزم بأبياتها .

الموعد

وإنه كذلك إذا فتح الباب فجأة ودخل سيرانو وهو مصفر الوجه ، شاحب اللون على أثر تلك المعركة الليلية التي دارت بينه وبين أعداء لينير . فسأل راجنو كم الساعة الآن ؟ قال السادسة يا سيدي ، وقدم له كرسياً فجلس عليه ثم وقف بين يديه متأدباً متخلساً وقال له : أهنتك يا سيدي بانتصارك العظيم الذي انتصرت له أمس ، فلقد كانت تلك المعركة أجمل معركة حضرتها في حياتي ، وسيمر بي زمن طويل قبل أن أنساها وأنسى حسنها وجمالها ، فالتفت إليه سيرانو ، وقال : أي معركة تريده ؟ قال : معركة « بورجونيا » قال : لعلك تريده المبارزة ؟ قال : نعم أويد تلك المبارزة الغربية التي ألفت فيها بين نغمات سيفك ونغمات شعرك تأليفاً بديعاً كأحسن ما يصنع الموسيقار الماهر وارتجلت فيها ذلك الموشح الجميل الذي لم يسبقك إليه شاعر من قبلك ، كان إله الشعر كانت مرففة فوق رأسك تدلك بروحها وقوتها ، فقالت ليز وهي تشير إلى زوجها : نعم يا سيدي إنه ما زال يلهج بتلك الحادثة مذ رأها حتى الساعة لا يفارق خيالها يقظته ولا منامه ، حتى ليخيل إليّ أنه قد أصابه مس من الشيطان ، فقال راجنو : نعم إنها لم تفارق خيالي قط ، وما حسدت أحداً في حياتي على

موقف من المواقف حسلي إياك على موقفك هذا ، ثم مد يده إلى المائدة وتناول مدبة طويلة وأخذ يلوح بها في الهواء مقللاً مدبراً متواولاً كأنما يمثل تلك المبارزة ويترنم في أثناء تمثيله بهذا الشطر «وفي المقطع الأخير أصيـب ، وفي المقطع الأخير أصيـب» ثم يقول : ما أجمل هذه النغمة ! وما أبلغ هذا الشعر وما أمن تلك القافية ، وسيرانو ينظر إليه مدهوشًا مستغرباً حتى فرغ من تمثيله ، فقال له : كم الساعة الآن يا راجنو : ست وعشرون دقيقة يا سيدى ، فقال في نفسه : لم يبق على الساعة إلا القليل ؛ ثم وقف وأخذ يتمشى في أرجاء القاعة ذهاباً وجبيحة فمر بليز وهي واقفة بجانب المائدة فلمحـت في يده بجرحاً دامياً فقالـت له : ماذا أصـابـك يا سيدـي ، وما هـذا الجـرحـ الـذـيـ فيـ يـدـكـ ؟ قالـ خـدـشـ بـسيـطـ لاـ أـهـمـيـةـ لـهـ ، فـقـالـتـ : يـخـيلـ إـلـيـ أـنـكـ كـنـتـ فـيـ مـعرـكةـ ، قالـ : لاـ ، فـقـالـتـ : أـخـافـ أـنـ تـكـونـ كـاذـبـ ، قالـ : هلـ رـأـيـتـ أـنـقـيـ يـضـطـرـبـ ؟ تـلـكـ هـيـ العـلـامـةـ الـوحـيـدـةـ لـلـكـذـبـ فـيـ مـذـهـبـ ، ثمـ التـفـتـ إـلـيـهـ وـإـلـيـ رـاجـنـوـ وـقـالـ لـهـماـ : إـلـيـ أـنـتـظـرـ بـعـضـ النـاسـ هـنـاـ وـأـحـبـ أـنـكـونـ مـعـهـمـ عـلـىـ اـنـفـرـادـ فـاتـرـكـاـ القـاعـةـ الـآنـ ، فـلـمـ يـبـقـ عـلـىـ حـضـورـهـ إـلـاـ القـلـيلـ ؛ قـالـ رـاجـنـوـ : وـلـكـ مـاـذـاـ أـصـنـعـ بـشـعـرـأـيـ ياـ سـيـدـيـ ، وـهـمـ عـلـىـ وـشـكـ الحـضـورـ الـآنـ ، قـالـ : لـاـ بـأـسـ أـنـ يـخـضـرـواـ عـلـىـ شـرـطـ أـنـ تـأـذـنـهـمـ بـالـاـنـصـرـافـ أـوـ بـالـتـحـولـ إـلـىـ غـرـفـةـ أـخـرىـ عـنـدـمـاـ أـشـيرـ إـلـيـكـ . ثـمـ سـأـلـهـ كـمـ السـاعـةـ الـآنـ ؟ قـالـ : ستـ وـثـلـاثـونـ دـقـيـقـةـ . قـالـ أـعـطـيـ قـلـمـاـ وـقـرـطاـسـاـ فـإـنـيـ أـرـيدـ أـنـ أـكـتـبـ شـيـئـاـ ؛ فـجـاءـهـ بـمـاـ أـرـادـ ، فـجـلسـ عـلـىـ مـنـضـلـةـ رـاجـنـوـ وـأـسـكـ بـالـقـلـمـ وـأـشـأـقـولـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ نـفـسـهـ : لـيـسـ فـيـ اـسـطـاعـتـيـ أـنـ أـفـاتـحـهـاـ فـيـ شـيـءـ مـاـ أـحـبـ أـنـ أـفـاتـحـهـاـ فـيـهـ ، فـخـيـرـ لـيـ أـنـ أـكـتـبـ لـهـ كـتـابـاـ أـقـدـمـهـ إـلـيـهـ بـنـفـسـيـ عـنـدـ حـضـورـهـ ثـمـ أـتـرـكـهـاـ وـأـنـصـرـفـ

لشأنني لتقرأه وحدها ، وأطرق برأسه ثم تنفس نفساً طويلاً وقال .
آه ، لقد كنت أظن أنني شجاع جريء لا أهاب الإقدام على
أي خطر من الأخطار مهما كان شأنه ، فإذا أنا سجان عاجز لا
حول لي فيما يعرض لي من الخطوب ولا حيلة وينجذل إليّ أن
الموت هو أهون عليّ من أن أقف أمامها وجهًا لوجه وأفضي
إليها بشيء مما يعيش في صدري ، ثم أكب على المنضدة وحاول
أن يكتب شيئاً فاردحتمت الأفكار في رأسه وانتشرت عليه خيالاته
وتصوراته فلم يستطع أن يكتب حرفاً واحداً ، فألقى القلم من
يده وقال : قبح الله التكلف والتعمل لو لا أنها تلميذة « المدرسة
القديمة » وأنها من فريق المتألقين المشددين المفتتنين بالصور والأساليب
لما وجد قلمي في طريقه ما يعترضه دون الوصول إلى الغاية التي
يريدوها ، فالكتاب مسطور في صدري بأكمله وليس بيبي وبينه
إن أرده إلا أن أضع قلبي بجانبي وأستملبه ما يشعر به فيميله عليّ
بساطة ووضوح ، ثم تناول القلم مرة أخرى وشرع في الكتابة
فإذا هو صوت غليظ أحش يقعق ناحية الباب « صباح الخير
يا ليز » فرفع سيرانو رأسه فإذا ضباط ضخم الجثة هائل الخلقة
ذو شاربين كثيفين مستطيلين ، فسأل راجنو من الرجل ؟ فقال
إنه ضابط من ضباط الجيش الفرنسي يسمى نفسه « الرجل الهائل »
وهو كما يزعم بطل من الأبطال المغاؤير الذين لم يسمح الدهر
بمثلهم في جيش من جيوش العالم ، وهو صديق زوجي ليز ولا
يأتي هنا إلا لزيارتها ، فألقى سيرانو على الضابط نظرة شديدة
ثم عاد إلى شأنه واستمر يكتب كتابه ويهتم بينه وبين نفسه من
حين إلى حين بأمثال هذه الكلمات : « أحبك جباراً يعجز القلم
عن بيانه لأن القلم مادة من مواد العالم الأرضي والحب روح
من أرواح الملائكة » ، « لا يرى الناس من عينيك الجميلتين

سوى صفاً هما ورونقهما ، أما أنا فاني أستشف من وراهما نفسك الجميلة العذبة المملوكة رقة وشعوراً ؛ فإذا قال الناس ما أجمل عينيها وأحلاهما ! قلت : ما أجمل نفسها المترفة في عينيها ، وما أصفى أديعها ! « إنني أعيش في هذا العالم عيش اليائس القانط ، واليأس يقتل الفضائل في النفوس ويميتها ، فأحييني أبالأمل واخلفي مني إنساناً جديداً تتخذلي عندي بل عند العالم جمع يدأ لا أنها لها لك أبد الدهر ، وفي اعتقادي أن ليس بيني وبين أن أكون إنساناً نافعاً في المجتمع ، بل نعمة على الدنيا بأجمعها إلا أن تسبيلي عليّ ستر حمايتك ورعايتك » .

بؤس الأدباء

وظل مستغرقاً في تصوراته وأفكاره التي كان يرسمها على قرطاسه كما يرسم المصور مظراً بدرياً من مناظر الطبيعة على لوحته كما يراه لا يزخرف ولا يوشي ولا يتندع ولا يتذكر فلم يتتبه إلى جماعة الشعراء حين دخلوا الحانوت هاتفين مهليين وهم في ملابسهم الزرية الغبراء ونعلهم البالية وقبعاتهم المزقة فقالت « ليز » لزوجها وأشارت إليهم : ها هم صعاليكك وقادوراتك يا راجنو ، فلم يعبأ بها فقام لاستقبالهم والترحيب بهم فعائقوه فحبقوه ودعوه بالزميل والرصيف والصديق وبكل ما يحب من الألقاب والتنوع وهو فرح مغبظ فوقف زعيمهم وسط القاعة وأخذ يتسمم بأنفه ويقول : ما أذكي رائحة بلاطك يا ملك الطهاة والشوائين ، فانحنى راجنو بين يديه شاكراً وقال : ما أسعد الساعة التي أراككم فيها أيها الأصدقاء الأولياء ! ثم أشار لهم إلى المائدة فوقوا حولها وضربوها بأعينهم في أنحائها وظلوا

يأكلون ويقصرون ويمسحون ويمجنون فيقول أحدهم وهو يشير إلى قطعة من الحلوى ذات رأس مسم : إن هذه القطعة لم تحسن وضع قلنسوتها على رأسها فلا بد من معاقبها ! فيقول له الآخر : وبيم تعاقبها ؟ فيقول : بهشم رأسها ، ثم يتناولها فيهشمتها كلها رأساً وجسداً ؛ وينظر آخر إلى قطعة أخرى محشوة بالقشدة ويضغطها فتبرز قلنسوتها البيضاء فيقول : ما أجملها ! كأنها ثغر ضاحك فلا بد لي من تقبيله ، ثم يدليها من فمه ليقبلها ، ويقول آخر وهو ينظر إلى قبارة الحلوى التي صنعها ذلك العامل في الصباح وأجازه راجنو عليها : كانت القبارة قبل اليوم غذاء الأرواح ، أما اليوم فهي اليوم غذاء الأجسام ؛ ثم ينقض عليها فيأكلها وراجنو واقف أمامهم يبتسم ويتلهل ويقول في نفسه : ما أجمل هذه المعاني وأبدعها ، يأبى الشاعر إلا أن يكون شاعراً في كل موقف وفي كل مقام .

ثم قال : هل تاذنون لي أيها السادة أن أنشد بين أيديكم قصيدة الجديدة التي نظمتها في وصف «اللوزينج» وسميتها باسمه ؟ فصاحوا جميعاً : نعم نعم ! ولا بد أن تكون قصيدة جميلة لأن عنوانها جميل جداً فاغتره مدحهم وثناوهم فرفع عقيرته وأخذ ينشد قصيده ويرجع في إنشادها ترجياً مضمحاً وهم لا هون عنه بشأنهم لا يعبأون به ولا يلتفتون إليه إلا في الفينة بعد الفينة ، فقال له الرجل المائل : ألا تراهم يا راجنو وهم يلتهمون حلواك وأنت لاه عنهم بالحانك وأغانيك فمشي نحوه وانحنى عليه وألقى في أذنه هذه الكلمات : إنني أراهم أيها الغبي الأبله ولكنني أغض الطرف عنهم رحمة بهم وإشفاقاً عليهم ، فهم قوم بؤساء معدمون قلما يرون وجه الطعام الشهي إلا في حانوقي وأظننك لا تجهل أن ضيوف أولى بالتجلة والإكرام من ضيوف زوجي : وكانا على مقربة من مكان سيرانو فانتبه لكلماته الأخيرة فرفع رأسه وقال

له ادن مني يا راجنو . فدنا منه فقال له إنك تعجبني أيها الرجل ، فالشعراء في هذا العالم كالشجرة الوارفة في المهمة الفقر ، يفيء إلى ظلها الغادون والرائحون وهي وحدها التي تحتمل حر الماجرة ولظاها فرحمة الله ورضوانه على من يحسن إليهم ويتصدق عليهم ، ثم عاد إلى شأنه الذي هو فيه وظل الشعراء يأكلون ويقصصون وييتاعون ما شاعوا من فطائر راجنو وحلواه بطرفهم الأدبية وملحthem النادرة حتى فتح الباب . ودخل عليهم أحد زملائهم وكان قد تخلف عنهم قليلاً فهالوا حين رأوه وصاحوا بصوت واحد : لقد تأخرت أيها الصديق ! قال : قد حال بيبي وبين الع hac بكم ازدحام الناس ازدحاماً شديداً عند « باب نيل » ؟ قال : وهل حدث شيء هناك ؟ قال : نعم ، كان ازدحامهم على ثمانية قتلى وجدوهم هناك مضرجين بدمائهم ، ولا يعلم أحد كيف قتلوا ولا من جنى عليهم هذه الجنائية الفظيعة ، فانتبه سيرانو للحديث واعتدل في جلسته وقال في نفسه : يا للعجب ، كنت أظنهم سبعة فقط ، إذاً قد ربحنا واحداً آخر ، فقال راجنو للمتكلّم : وما ظن الناس بهذه الحادثة ؟ قال : يقوز ، بعضهم : إن رجلان واحداً هو الذي قام بمفرده بمقاتلة هؤلاء اللصوص وكانتوا مائة أو يزيدون فانتصر عليهم جميعاً وفرق شملهم وقتل منهم هذا العدد الكبير ولقد رأينا العصي والخناجر والمدى التي كانت مع أفراد تلك العصابة مبعثرة هنا وهناك وظل الناس يتقطعون القبعات التي طارت عن رؤوس المنهزمين من باب نيل إلى النهر ، فمشى راجنو إلى سيرانو وقال له : أسامع أنت هذا الحديث يا سيدي ! قال : نعم ، فما ظنك ببطل هذه الواقعة ! فرفع رأسه إليه وقال : لا أعرفه ، فهرعت ليز إلى صديقها « الرجل المائل » تسأله : وأنت يا سيدي ! فابتسم وقتل شاربيه وغمز بعينيه وقال : أظنني أعرفه .

وكان سيرانو قد أتم كتابه وأراد أن يوقع عليه ثم توقف وقال :
 لا لزوم للتوقيع لأنني سأقدمه إليها بنفسِي ، ثم طواه
 ووضعه في صدره ونهض قائماً على قدميه وهتف راجنو فأسرع
 إليه فسأله : كم الساعة الآن ! قال ست وخمسون دقيقة ، فقال
 في نفسه : لم يبق إلا عشر دقائق ، وأخذ يتمشى في القاعة ذهاباً
 وجبيبة ، وكانت ليز وصديقتها الضابط جالسين على افراد في
 أحد أركان القاعة فخيل لسيرانو أنه رأى بينهما شيئاً مريباً ، فدنا
 منها ووضع يده على كتف المرأة وقال لها : يخيل إلى أيتها السيدة
 أن هذا البطل بالحالين يجانيك يدبِر خطة للهجوم على حصنك ،
 فانقضت وتظاهرت بالغضب ، وقالت له : ماذا تقول يا سيدتي
 إن نظرة واحدة مني تكفي لهزيمة من يحاول ذلك ، قال : ولكنني
 أرى عينيك ذاتين متضحيتين تلوح عليهما علام الانكسار ،
 فاضطررت وحاولت أن تقول شيئاً فخانها صوتها فصممت ،
 فقال لها : أيتها الفتاة إن راجنو يعجبني جداً لذلك لا أسمح لأحد
 أن يعبث بشرفه أمامي ، ثم التفت إلى الضابط فنظر إليه نظرة
 شقراء ، وقال ، ولقد سمع من كانت له أذنان : أليس كذلك
 أيها « الرجل الهايلي » ، ثم تركهما واستمر في سيره فهمست
 « ليز » في أذن صديقتها تقول له : إنك تدهشني جداً يا صديقي ،
 ولا أعلم سبباً لسكوتك وصمتك حتى ليخيل إنك تخافه وتخشاه !
 قل له كلمة تؤله وتكسر من شرته أو اسخر من أنفه على الأقل
 فإنه موضع الضعف منه ، فنظر إليها ذاهلاً مشدوهاً ، وقد سرت
 في جسمه وعدة شديدة ، وقال : أنفه ! لا ، لا ، مالنا وللسخرية
 بمصابيح الناس وأرزاهم ، ثم تسلل من مكانه وخرج من القاعة
 قد جاء الميعاد يا راجنو ؟ فهتف راجنو بشعراه : هيا بنا أيها
 الأصدقاء إلى الحجرة الثانية ، وأغلق بابها عليهم ، ووقف سيرانو

على مقربة من باب المطعم ينتظر قدوة روکسان ويقول في نفسه :
لا أعطيها الكتاب إلا إذا رأيت في وجهها بارقة أمل .

اللقاء

وهنا سمع حبيب ثوب مقبل فخفق قلبه خفقاتاً شديدة ،
ثم فتح الباب ودخلت روکسان وراء وصيفتها ، وهي تنظر في
مشيتها تلك الخطوة البدعة التي عرفت بها وافتنت بها الناس من
أجلها ، وقد أسبلت قناعها على وجهها فحياتها تهيبة ترجم
بين الأدب والكبراء وأشار لها إلى كرسي قد أعد لها فجلست
عليه ، ثم تركها وذهب إلى الوصيفة ، وكانت واقفة على عتبة
الباب تقلب نظرها في صنوف الأطعمة المنتشرة على المائدة فقال
لها بلهجة المازح المداعب : أشرهه أنت أيتها الفتاة ! قالت :
نعم يا سيدي إلى الموت ، فمشي إلى المائدة وتناول كيسين من
أكياس الحلوى وقال لها : هاك قصيدين بديعتين للشاعر العظيم
«بنسراد» فخذيهما ؛ فلم تفهم ما يريد ، وقالت : وما أصنع
بهما ! قال : قد اخترتنيما «لیز» كما اخترت غيرهما من قصائد
الشعراء المجيدين أكياساً للحلوى وأوعية للفطايا فخذيهما واجلسني
خارج الباب فإنك ستتجدين فيهما من ألوان الحلوى ما تشتهين
ولا تعودي إلا بعد أن تشبعي ، فتلاً ووجهها فرحاً وسروراً
وتناولت الكيسين وعادت أدراجها ، ورجع سيرانو إلى روکسان
فوقف بين يديها حاسر الرأس وقال لها : لقد أسديت إليّ يا
سيدي بزيارتكم هذه نعمة لا أنساها لك مدى الدهر وإنني أفتخر
بهذه الثقة التي أوليتها وأنظر بكل شوق سماع ما تريدين أن
تفضي به إليّ ، فحسرت قناعها عن وجهها فأضاء ضوء القمر
الساطع في الدجنة الحالكة وقالت له : شكراً لك يا ابن عمي ،

إنك قد أحسنت إلى ليلة أمس إحساناً عظيماً بقتلك ذلك الفتى
 الواقع الجريء الذي حاول أن يعبث بك ويستهين بكرا متك فغضبت
 لنفسك غضبة الأبي الأنوف ، ولم ترم مكانك حتى غسلت بدمه
 أثر الإهانة التي لحقت بك ، أتعرف هذا الفتى يا سيرانو ؟ قال
 لا يا سيدتي قالت : أبارزته دون أن تعرف اسمه ! قال : نعم ،
 قالت إنه الفيكونت « فالفير » الذي أراد أحد المغرين بي من
 عظماء هذا البلد ، وهو الكونت دي جيش أن يزوجني منه على
 الرغم مني زواجاً لا أعرف كيف أسميه ! قال : زواجاً اسيماً !
 فأطرقت برأسها حياء ومحجلاً وقالت نعم ، فقال ما أفظع ما
 تقولين ! لقد أصبحت الآن راضياً عن نفسك كل الرضا في تلك
 الحطة التي انتهجتها معه والتي انتهت بانتهاء حياته بعد ما علمت
 أنني إنما كنت أقاتل في سبيلك لا في سبيل نفسي وأذود عن
 عينيك الجميلتين لا عن أنفي ، فاستضحكـت وأشارت إلى كرسـي
 بجانبها فجلس عليه صامتاً ساـكناً يتـظر ما تـقول ، وسـاد السـكون
 بينهما هـنـيـهـة ، ثـم أـقـبـلـتـ عـلـيـهـ وـقـالـ لهـ : كـنـتـ أـرـيدـ أـنـ أـقـولـ
 لكـ كـلـمـةـ أـخـرىـ ياـ سـيرـانـوـ فـهـلـ تـسـمـحـ لـيـ بـهـاـ ؟ـ قالـ : نـعـمـ أـسـمـعـ
 لكـ بـكـلـ شـيـءـ فـقـوـلـيـ مـاـ تـشـائـنـ ،ـ قـالـتـ : أـتـذـكـرـ تـلـكـ الـأـيـامـ
 الـماـضـيـةـ الـيـ قـصـيـنـاـهاـ مـعـاـ وـنـحـنـ صـغـيرـانـ فـيـ «ـ بـرـجـرـاـكـ»ـ فـيـ تـلـكـ
 الـمـرـوـجـ الـخـضـرـاءـ عـلـىـ ضـفـافـ الـبـحـيرـةـ ؟ـ فـانـتعـشـتـ نـفـسـهـ وـخـفـقـ
 قـلـبـهـ خـفـقـانـاـ شـدـيـداـ وـقـالـ نـعـمـ يـاـ اـبـنـةـ عـيـيـ أـيـامـ كـنـتـ تـأـتـيـنـ هـنـاكـ
 مـعـ أـبـويـكـ لـقـضـاءـ فـصـلـ الصـيفـ فـيـ كـلـ عـامـ قـالـتـ : إـنـيـ أـذـكـرـ
 تـلـكـ الـأـوـقـاتـ الـجـمـيـلـةـ كـأـنـهـ حـاضـرـةـ بـيـنـ يـدـيـ وـأـذـكـرـ تـلـكـ الـأـعـوـادـ
 الشـائـكـةـ الـيـ كـنـتـ تـقـطـعـهـاـ بـيـدـيـكـ مـنـ أـشـجـارـ الـغـابـ وـتـتـخـذـ مـنـهـاـ
 أـسـيـاـفـاـ صـغـيرـةـ تـلـعـبـ بـهـاـ فـيـ الـمـوـاءـ كـأـنـكـ تـبـارـزـ أـشـبـاحـ خـفـيـةـ تـرـاءـيـ
 لكـ ؛ـ قـالـ : نـعـمـ أـذـكـرـ ذـلـكـ وـلـاـ أـنـسـاهـ ،ـ وـأـذـكـرـ أـنـكـ كـنـتـ

بجمعين أعود النرة من الحقل ثم تجلسين على صفة البحيرة لتخذلي
من خيوطها شعوراً ذهبية لعرائشك الجميلة ، قالت نعم ما كان
أجمل تلك الأيام ، وما كان أسعد ساعاتها ! وما كان أحلى مذاق
العيش فيها ! كان يخيل إليّ في ذلك الوقت أنني صاحبة السلطان
المطلق عليك وأنك تحبني جاً شديداً وتهتم بشاني اهتماماً عظيماً
بل تأتير بأمرني في كل ما أشير به عليك وتنزل عند جميع رغباتي
وآمالي وأظن أنني كنت جميلة في ذلك الحين أليس كذلك ؟ فازداد
خففان قلبه وخیل إليه أنه يرى بين شفتيها ظل تلك الكلمة العذبة
التي يتلهف شوقاً إلى سماعها من فمها ، فرفع رأسه ونظر إليها
نظرة باسمة عذبة وقال نعم يا سيدتي كما أنت الآن ؛ قالت
وكنت كثير الشغف بتسلق الأشجار الشائكة والمخاطرة بنفسك
في ذلك مخاطرة عظمى فكنت إذا أصابك جرح في يدك هرعت
إليك وعطفت عليك عطف الأم الرؤوم على ولدها وأخذت
يدك بين يدي هكذا ، ومدت يدها إلى يده فجذبتها إليها فوقع
نظرها على ذلك الجرح الدامي الذي أصابه في معركة الليل فدهشت
وقالت : ما هذا يا سيرانو ؟ ثم ابتسمت وقالت ألا تزال تتسلق
الأشجار حتى الآن ! فضحك وقال نعم لا أزال أحب اللعب
حتى الآن ، ولقد لعبت ليلة أمس لعبة شيطانية عند «باب نيل»
سفكت فيها من دم أعدائي فوق ما سفكوا من دمي أضعافاً
مضاعفة ، ثم حاول أن يسترد يده فامسكت بها ، وقالت له :
لا بد أن تدعها لي الآن حتى أرى الجرح وأسرره كما كنت أفعل
في عهد طفولتي وأعالجه بالطريقة التي كنت أعالج بها جروحك
من قبل ، ثم أخرجت منديلاها من صدرها وغمست طرفه في
قدح الماء وطلت تمسح به الجرح برفق وتودة وتقول له : هكذا
كنت أعالج جروحك التي كانت تصيبك من تسليق الأشجار

الشائكة في عهد طفولتك الأولى ، وهو يرتعد بين يديها ويضطرب من تأثير ملامسة جسمها بجسمه ويقول : نعم يا روكسان ، إنها رحمة لا تكون إلا في قلوب الأمهات ، قالت : قل لي كم كان عدد أعدائك الذين قاتلتهم في تلك المعركة ؟ قال مائة أو يزيدون ، قالت مائة ! يا للشجاعة النادرة ، قال وربما كنت لا تعلمين أنها المرة الثانية التي قاتلت فيها من أجلك في ليلة واحدة ، قالت من أجلي ؟ لم أفهم ما تريده ، قال نعم لأنني كنت أدفع عن ذلك الشاعر المسكون الذي انتصر لك وزاد عنك ومثل بخصمك أقبح تمثيل في قصيده التي هجاه بها فحقدها عليه ودس له هولاء الرعاع ليقتلوه في جنح الظلام ، قالت : ما أعظم شكرى لك يا ابن عمى ، وما أكبر شأن تلك النعمة التي أسديتها إليّ ، حديثي حديث الواقعه من مبدئها إلى متها فلا بد أن تكون واقعة غريبة جداً لم يسطر التاريخ مثلها ، قال سأحدثك عنها فيما بعد ، أما الآن فحدثني أنت عن ذلك الأمر الذي جئتني من أجله والذي لم تجرئ على أن تفتخيني فيه حتى الآن ، قالت وهي لا تزال آخذة بيده تمسحها وتستغثها^(١) : أما وقد ألقينا نظرة على ماضينا الجميل وجدنا عهد تلك الذكرى القديمة وعلمنا أن الصلة التي بيننا صلة وثيقة محكمة لا تزال منها يد الدهر ولا تأخذ منها عadiات الأيام ، فاسمح لي أن أفضي إليك بسري وأن أقول لك بصراحة إنني عاشقة يا سيرانو ، فتلاً وجهه وانتعشت نفسه ومشت رعدة خفيفة في أجزاء جسمه وكاد منظره ينمّعما في نفسه لولا تجلده واستمساكه وقال لها ومن هو هذا الإنسان السعيد الذي يشتم بنعمة حبك ؟ قالت : إنه لا يعلم شيئاً مما أضمراه له في قلبي حتى الآن ولم أفض إليه بسريرة نفسي حتى

(١) استثنى الطبيب المرح : نقى غنيته وصديقه بمتليل ونحوه .

الساعة ، وسيكون سروره عظيماً جداً حينما يعلم أن الفتاة التي يحبها ويموت وجدأً بها تلك تضمرنا لها ، فازداد سروره وانتعشه وقال : ألا تستطيعين أن تقولي لي من هو يا روكسان؟ قالت : سأصفه لك لتكون أول ناطق باسمه ، هو شاب خجول شديد الحياة ، يحبني جباراً يملك عليه حواسه ومشاعره ولكنه يكتم سره في صدره ؟ قال : وكيف وقفت على سيرة نفسه ؟ قالت عرفتها من ارتياح شفتيه واكفهار وجهه وتدلله نظراته كلما رأني ، قال : ثم ماذا ؟ قالت : وهو ذكي نبيه تلوح على وجهه علام النجاح والتبوغ .

فأطرق برأسه حياء وحاول أن يختبئ يده من يدها وكانت قد انتهت من تصميدها ، فقالت له : دعها لي الآن فهي لا تزال ملتهبة بالحمى ، فتركها لها وهو يقول في نفسه : ما أسعدني وأعظم هنائي ، واستمرت في حديثها تقول : وهو فوق ذلك شجاع مقدام شريف النفس عالي الهمة ، يأبى الضيم ويأنف الذل ، ولا يبغي على ضيم يراد به ، قال : هيه ! قالت : وهو جندي في فصيلة شبان الحرس أي فصيلتك يا سيرانو ، فهمهم بين شفتيه : لم يبق في الأمر ريب ، قالت : أما صورته فهي أجمل صورة خلقها الله في العالم ؛ فصعب عند سمع هذه الكلمة التي ذهبت بجميع آماله وأحلامه وتأوه آلة شديدة كادت تخرب فيها نفسه ، فعجبت لأمره وقالت له : ماذا أصابك يا سيرانو ؟ فتراجع إلى نفسه سريعاً واستجمعت من قواه في تلك اللحظة ما يعجز أشجع الرجال وأصبرهم عن استجماعه فيها وقال : لا شيء لقد أحسست بوخز في يدي من تأثير الحمى وقد ذهب الآن كل شيء ، وصمت لحظة ثم قال : نعم قد ذهب كل شيء فتحدثي فإني مصغ إلينك ، قالت : لقد أحببت هذا الفتى جباراً

ملك عليّ عواطفي واستغرق مشاعري ولا عهد لي به إلا منذ أيام قلائل كنت أراه فيها يختلف إلى قاعة التمثيل ، فيجلس منفرداً وحده فأنظر إليه من بعيد ، وقد جئتك الآن لأنحدث إليك في شأنه ، فأطرق هنيهة . ثم رفع رأسه إليها ، وقال لها بصوت ساكن هادئ : ألم تتحدى إليه قبل اليوم ؟ قالت : لم نتalking إلا بالعيون ؟ قال : وكيف عرفت جميع هذه الصفات التي ذكرتها فيه وما حادثته ولا جلست إليه ؟ قالت : سمعتها منذ أيام تحت أشجار الزيزفون في الميدان الملكي في مجتمع العجائز الفضوليّات لا حرمنا الله ثرثّهن وفضولهن ، قال : وهل هو من فرقة الشبان ؟ قالت : نعم شبان الحرس ، قال : أتعرف لك يا سيدي أني قد عجزت عن معرفة اسمه فقولي لي من هو ؟ قالت : هو « البارون كريستيان دي نوفيت » قال : لا أذكر أني سمعت بهذا الاسم قبل اليوم ، قالت : إنه لم يدخل الفرقة إلا في هذا الصباح تحت قيادة « كاربون دي كاستل جالو » فصبت هنيهة ثم نظر إليها نظرة عطف وحنو وقال لها : ولكن يخيل إليّ يا روكسان أنك تخاطرين بقلبك في هذا الحب مخاطرة عظمى لا تدررين ما عاقبتها ، وأنك تلقين بنفسك في هوة لا تعرفين السبيل إلى الخلاص منها ، وكانت الوصيفة قد فرغت من طعامها في هذه اللحظة فلدت الباب وأطلت برأسها وقالت : قد أكلت كل شيء يا سيدي فماذا أصنع ؟ فالتفت إليها وقال : حسبي ذلك فاقرني ما على الأكياس من الأشعار ، ولا تعودي إلا إذا دعوتكم ، فانصرفت وعاد هو إلى إتمام حديثه فقال : أنت يا ابنة عمي فتاة رقيقة الشعور ذكية الفرود لا يعجبك إلا التفوق والنبوغ ولا تأنس نفسك إلا بالذكاء الحارق والقطنة النادرة فماذا يكون شأنك غداً لو أن ذلك الفتى الذي أحببته

واصطفت به كأن بليداً أو غبياً أو ضعيف الذهن أو خامل الفكر ،
 قالت : لا يمكن أن يكون كذلك ، قال : لماذا ؟ قالت : لأن
 منظر شعره الذي يشبه في صفتته ولعله منظر شعر أبطال « أورفية »
 يدل على نبوغه وذكائه ، قال : ربما كان جميل الشعر بديع .
 الصورة ولكنه بليد الذهن ضيق العطن ، قالت : لا أظن ذلك .
 بل يخيل إليّ وإن لمجلس إليه ولم أسمع حديثه أنه أرق الناس
 حديثاً ، وأعلمهم سرراً ، وأقصحهم لساناً ، وأغزرهم بياناً ،
 فقال في نفسه : نعم كل الألفاظ جميلة ما دام الفم الذي ينطق
 بها جميلاً ؛ ثم قال لها : ولكن ماذا تصنعين لو تبين لك أنه
 جاهل أحمق ؟ قالت : إذن أموت هماً وكماً . قال : هذا
 الذي أخاف عليك منه ، وصمت هنيهة وهو يردد بيته وبين
 نفسه : وارحمتاه لها إنها على شفا الماوية ؟ ثم قال لها : وفي أي
 شأن من شؤونه تريدين أن تتحدى إليّ ؟ قالت : قد علمت
 بالأمس أمراً أحزني جداً وأقلق مضجعي فلم أطعم الغرض
 ساعة واحدة ، قال : وما هو ؟ قالت : علمت أن جنود فصيلتكم
 جميعهم من البلاسكونيين الحفاة وأنهم لا يحبون أن يدخل فصيلتهم
 غريب عنهم ، فإذا دخل ناؤوه وشاكسوه حتى يخرجوه ،
 وربما تعللوه عليه العلل فبارزوه وقتلوه ؛ فقطن لفرضها وقال :
 نعم لأنهم قد يفعلون ذلك ولهم الحق فيما يفعلون ، وخاصة إذا
 كان هذا الواقع عليهم أحد أولئك الأغياء الجهلاء الذين يتظمون
 في سلك الفرقه من طريق الشفاعات والوصيات لا من طريق
 الكفاءة والاستحقاق ، قالت : ذلك ما جئت من أجله ، فقد
 أتعجبني موقفك الشريف الذي وقفته ليلة أمس أمام ذلك الفتى
 الواقع البذر الذي حاول أن يهزأ بك وينال من كرامتك ،
 وامتلاً قلبي ثقة بما كنت لا أزال أعرفه لك طول حياتك من

الشجاعة والحمية وعلو المهمة وإباء الفضيم فأتتني إليك أسائلك أن
تتولى كريستيان بحمايتها .

فصمت سيرانو لحظة ذهبت نفسه فيها كل مذهب وتمثلت
له روكسان في صورتين مختلفتين قد وقفت إحداهما بجانب
الأخرى : صورة امرأة عاشقة مستهترة ت يريد أن تسخره في غرض
من أغراضها الغرامية وتطلب إليه أن يضع يده في تلك اليد التي
قتلته وأتلفت عليه نفسه وأن يكون صديقاً لذلك الفتى الذي
حرمه سعادته وهناءه وقطع عليه سبيل حياته ووقف عقبة بينه
 وبين آماله وأمانيه ، وصورة امرأة مسكونة ضعيفة من أقربائه
وذوي رحمة قد نزلت بها نكبة من التكبات العظام فزعزعت إليه
فيها تساؤله أن يعينها عليها تقى منها بفضله وكرمه ، وهنته ومروغته ،
 وهي لا تعلم من شوؤن قلبه شيئاً ، ولا تدرى أن هذا الذي
تفزع إليه فيه إنما هي نفسه التي بين جنبيه وحياته التي لا يملك
في يده حياة غيرها .

ثم ما لبث أن رأى الصورة الأولى تتضاعل في نظره وتنتصغر
حتى تلاشت واضمحلت ، وظللت الثانية ثابتة في مكانها بارزة
واضحة إليه نظرة الضراعة والاسترحام وتبسط إليه يد الرجاء
والأمل ، فالتفت إليها وقد هبت من بين أردانه رائحة الكرم
وقال لها بصوت قوي رنان لا تتخalle رنة الحزن ولا تمازجه
نغمة اليأس « كوني مطمئنة يا روكسان فإني سأتولى حمايتك »
وما علم أنه قد نطق في نطقه بهذه الكلمة بحکم الموت على نفسه .

فقالت له : شكرآ لك يا ابن عمي فسأعتمد على وعدك ما
حييت ، قال : اعتمدي ما شئت ؛ قالت : ولكن صديقه الوفي
الذي يأخذ بيده في جميع شدائده ومحاضره ، قال : بل أصدق

أصدقائه ، قالت : وحل بيته وبين التعرض لأنخطار المبارزات والمشاجرات ، قال : إنه لن ييارز قط ، قالت : أتفقsm لي ؟ قال : لا ؛ لأنني ما تعودت الكذب ، فتلاً وجهها فرحاً وسروراً وقالت : الآن يمكنني أن أنصرف آمنة مطمئنة شاكراً لك فضلك الذي لا أنساه قط ، ثم تناولت برعمها فألقته على وجهها وهي تتقول : إنك لم تتمم لي حديث الواقعه التي جرحت فيها فحدثني عنها قليلاً ، يا للعجب ! مائة رجل كانوا ضدك ؟ إنك كفء لكل عظيمة يا ابن العم ، لا تنس أن تقول له أن يكتب إليّ اليوم كتاباً ! حدثني حديث الواقعه يا صديقي ، مائة رجل ؟ يا للشجاعة التادرة ! إن كريستيان لا يعلم أنني أحبه حتى الساعة ، فكن أول من يحمل إليه هذه البشرى ، قل لي كيف استطعت أن تلقي وحدك هذا العدد الكبير أو قل لي ذلك فيما بعد ؛ لأنني تأخرت كثيراً ، ولا بد لي من الذهاب الآن .

ثم نهضت ومدت إليه يدها فقبلها ، قالت : إلى اللقاء يا ابن العم إني أنتظر من كريستيان كتاباً اليوم ، ثم انصرفت . فوقف على عتبة الباب ، يشييعها بنظراته حتى غابت عن عينيه ؛ ثم عاد يترنح هماً وحزناً ، حتى وصل إلى كرسيه فتهافت عليه وهو يقول : إنها تعجب لشجاعتي في تلك المعركة ، وأنا في هذه الساعة أشجع مني في كل موقف وقوته في حياتي .

وكان راجنو قد أحسن بخروج روكسان فأطل من باب الحجرة فرأى سيرانو جالساً جلسته تلك فصاح به : أيمكنا الرجوع الآن يا سيدي ؟ قال : نعم ؛ فأشار إلى أصدقائه الشعراء فدخلوا جميعاً ودخل في تلك الساعة نفسها من باب المطعم « كاربون دي كاستل جالو » قائد فرقة الحرس وهو يهدى بصوت كال وعد :

قد عرفنا كل شيء يا سيرانو ، وإنني أهنتك من صميم قلبي بذلك النجاح العظيم الذي أحرزته ليلة أمس على أعدائك المائة ، فنهض سيرانو متضعضعاً وانحنى بين يدي قائده وقال : شكرأ لك يا سيدي ، فقال : مالي أراك شاحجاً مصفرأ؟ وما هذه الغيرة السوداء المنتشرة على وجهك؟ يخيل إليّ أنك قد لقيت في تلك المعركة عناء عظيمأ ، قال : نعم يا سيدي ، قال : إن ورائي ثلاثة جندياً من أبناء فرقتك قد اجتمعوا في تلك الحانة المقابلة لهذا المطعم ، وهم يربدون تهنتك والاحتفال بانتصارك ، فاذهب إليهم وقابلهم ، ثم قال : لا ، لابد أن يأتوا هم إليك بأنفسهم ليهنتوك تكراة لك وإعظاماً لشأنك ، ثم وقف على عتبة باب المطعم وصاح بأعلى صوته :

أيها الأصدقاء ، إن البطل لا يستطيع الحصول إليكم لأنّه تعب قليلاً ، فاحضروا أنتم إليه ، وما هي إلاّ هنيبة حتى قبل الجنود الثلاثون ينزلون الأرض بمحقق نعاهم وصلصلة أسلحتهم ويطمئنون بلغتهم الجاسكونية سانديوس - ميل ديوس - كاب ديوس - مورديوس - بو كاب ديوس ، ثم دخلوا ؛ ففزع راجنو عند رؤيتهم لما هاله من طول قاماتهم وضخامة أجسامهم وقال لهم : أكلكم أيها السادة جاسكونيون؟ فأجابوا جميعاً بصوت واحد : نعم كلنا ، ثم اندفعوا نحو سيرانو يقبلونه ويعانقونه ويهزون يده ويهتفون : ليحيا البطل ، لتحيا جاسكونيا ، ليحيا الجيش . وهو يتململ في نفسه ويترنم ، ولكنه كان يبتسم في وجوههم ويستقبل تهانهم له بالشكر والارتياح .

وكان خبر تلك المعركة قد انتشر في أنحاء باريس جميعها ، فوفد جمهور عظيم من الناس إلى المطعم يتقدّمهم « لريه »

صديق سيرانو وهم يصيرون : ليحيا البطل لتحيا فرنسا ، ثم دخلوا جميعاً يركضون ويتدافعون ويقطمون كل شيء بين أيديهم وراجنو واقف مكانه يتأمل هذا المنظر الغريب بسرور وارتياح ويقول : واطرباه ها هو ذا الفن يتوج اليوم في مطعمي ، حتى بلغوا مكان سيرانو قداروا به يهشونه ويقبلونه وكلهم يناديه : أية الأخ ، أية الصديق ، أية الزميل ؛ فيقول في نفسه : واعجاً لكم أية الناس ! لم يكن لي بالأمس ينسكم صديق واليوم كلكم أصدقائي ، ووقفت في تلك الساعة مركبة فخمة أمام باب المطعم ونزل منها ثلاثة من الأشراف فدخلوا الحانوت وظلوا يدفعون الناس أمامهم دفعاً حتى دنو من سيرانو ، فوضع أحدهم يده في يده وشد عليها بقوة وقال له : آه لو كنت تدري يا صديقي مقدار سروري بك وبنجاحك ، فالتفت إليه سيرانو غاصباً وقال له : ما أنا بصديقك يا سيدى ؛ لأنني ما عرفتك قبل اليوم ؛ وقال له الآخر : إن بعض السيدات ينتظرنك في مركبتهن أمام الباب ليهتئنك بانتصارك فلو تفضلت بمرافقتي إليهن لأقدمك لهن ! فقال له : وكيف تسمح لنفسك يا سيدى أن تقدمني إلى غيرك قبل أن تقدم نفسك إلى ؟ وقدم إليه الثالث كأساً من الخمر وقال له : اشرب معى يا سيدى نحب بأمسك وشجاعتك ، فالتفت إليه وقال له : يخيل إلى يا سيدى أنك أشجع مني ، لأنك قدمت إلى شيئاً قبل أن تعلم ما رأيي فيه ، ثم دفع الكأس عنه بقوة فهرأها ، وجاءه أحد مراسلى الصحف ، وقد أمسك بيميته قلماً وبسراه قرطاً وقال له : قص على حدث واقعتك أية الفارس البطل لأنشره في جريدة ، فنظر إليه شزاراً وقال له : لأنني لم أقاتل من أجلك يا سيدى ، ولا من أجل جريدتك بل من أجل صديقي لينير ؛ فتملل لبريه من خشونته وجفائه ، وكان

جالساً على مقربة منه فجذبه من ثوبه ، وقال له همساً : ما الذي أصابك يا سيرانو ! وما هذه الحشونة التي تستقبل بها أصدقائك الذين يهتلونك ويمجدونك ؟ فقال له : لا تصدق كل ما تراه يا لبريه ! فليس لي في العالم صديق سواك .

ولهم كذلك إذ ساد السكون وانقطعت الضوضاء وانفوج الجمهور صفين متقابلين خاشعين مستكينين ، وإذا الكونت دي جيش القائد الفرنسي العظيم قد أقبل بجرأة أذياله ويسدد أنفه إلى كبد السماء عظمة وخلاء ووراءه كثير من الأشراف ورجال الجيش حتى توسط القاعة فوقف ونادي : ابن سيرانو فاللقت سيرانو فرأه فدهش وقال في نفسه : لعله جاء أيضاً لتهنتي ، ولئن فعل تكون أعيوبة الأعاجيب ، ثم أجابه وهو واقف مكانه لا يتحرك ، ولا يحتفل ؛ هنا ذا يا سيدى ، قال : أقدم إليك تهنئي الخاصة وأبلغك أن جناب القائد العام المرشال « دي جاسيون » قد أمرني أن أبلغك تهنئته لك وثناءه عليك وإعجابه بك واغتباطه بعملك العظيم الذي قمت به ليلة أمس وأضفت به إلى سجل الشجاعة الفرنسية صفحة من أشرف الصفحات وأمجادها ، ولقد كان في شكل من صحة الخبر ، لولا أن أقسم له بعض الضباط الذين صحبوه ليلة أمس إلى « باب نيل » أنهم شاهدوا الحادثة بأعينهم ، فرفع سيرانو نظره إلى الكونت بهدوء وسكون ، وقال له : لا شك أن المرشال قدمماً راسخة في الفنون الحرية وأساليبها ومثله من يقدر أقدار الرجال فبلغه شكري ، فدهش الناس بجوابه الحسن الحافى ، وطار عقل لبريه حتى كاد ينفجر غيظاً وحنقاً ، إلا أنه تمالك وتجدد وهمس في أذنه : إن هذا لا يليق بك مطلقاً ، قل له كلمة أجمل من هذه ردآ على تحيته واستقبل الصنيعة بمثلها ، فصمت سieranو هنيةه ثم قال : بصوت حفافت : دعني يا لبريه فإني لا أطيق أن أشكراً رجلاً جاء

لتهشتي بانتصاري عليه ، فقال له : يخبل إلليْ أللّك متالم يا صديقي ، فانتقض سيرانو ، وقال : أنا ! لا ، أتظن أنني أتلّم أمام أحد مهما برح بي الهم وأمضني ، أو أسمح لعدو من أعدائي أن يشمّت بي ويرى بعينيه منظر بوسي وشقافي ؟ انتظر قليلاً فسوف ترى ، وكان الكونت قد جلس على كرسيه المعد له جلسة العظمة والكبار ياء ؛ فالتفت إلى سيرانو ، وقال له بنغمة الساخر المازىء :

إن تاريلنك يا مسيو سيرانو حافل بالحوادث والواقعه ويختل إلليْ أنبي رأيتك في فرقة هؤلاء الحاسكونيين الشياطين أليس كذلك ؟ فصاح الحاسكونيون جميعاً : نعم هو في فرقتنا ولنا بذلك الفخر العظيم ، فالتفت الكونت إليهم وقلب نظره في وجوههم ، وهم وقوف بجانب قائهم « كاربون دي كاستل جالو » ، وقال : أكل هؤلاء الذين تلوح عليهم مخالل العظمة الكاذبة جاسكونيون ؟ فهتف كاربون بسيرانو ، وقال له : تفضل إليها البطل الباسل بتقديم فرقتي بالنيابة عنني إلى حضرة القائد العظم ؛ فمشى سيرانو نحو الكونت خطوتين وأخذ يقدم إليه الفرقة بموضع بديع ارتجله في الحال وضممه الثناء عليهم والتنويه بفضلهم والإشادة بذكرهم حتى أتمه ، فأعجب الكونت بيداهاته وحضور ذهنه ، وقال في نفسه : إن اصطناع شاعر مجید كهذا الشاعر مفخرة عظمى لمن يصطنعه ، وليس من الرأي أن يفلت منه من أيدينا ، ثم استدناه منه وقال له : أتحب أن تكون لي يا سيرانو ؟ فانتقض وقال : لا يا سيدي ولا لأي إنسان ، قال : إن خالي الكردينال « ريشلية » كثير الإعجاب بك وبأدبك ويحب أن يراك ، فإن شئت قدمتك إليه ، ولقد قيل لي إلنك نظمت منذ عامين رواية تمثيلية جميلة لم توقن إللي تمثلها حتى اليوم ؛ فلو أللّك ذهبت بها إلليه ورفعتها له لعرف لك فضلوك فيها وأحسن جزاءك عليها كما أحسن من

قبل إلى غيرك من الكتاب والشعراء^(١). فهمس لبريه في أذن سيرانو : لقد آن لروايتك «أجريبيين» أن تمثل فليهنت ذلك ، فلم يلتفت إليه سيرانو ، وقال للكونت بنغمة الساخر المتهكم : أحق ما تقول يا سيدتي ؟ قال : نعم والرجل كما تعلمون أديب بارع رسم القدم في النقد الأدبي ؛ وسينظر في روایتك هذه نظر الناقد البصير ور بما أجرى فيها قلم تهذيبه وتتفريحه فجاءت آية الآيات في حسنها وجمالها ، فاكفهر وجه سيرانو وتفصيده جيشه عرقاً ، وقال للكونت : ذلك مستحيل يا سيدتي ، وإن دمي ليجمد في عروقي عندما أتخيل أن إنساناً في العالم يحدث نفسه بتغيير حرف واحد من قصيدة من قصائدي ، وما أنا في حاجة إلى الاستعانة على أدبي بأحد من الناس كائناً من كان ، قال : ولكنك تعلم أنه إذا أعجبه بيت من الشعر دفع ثمنه غالياً ، قال : نعم أعلم ذلك ، ولكنه لا يستطيع أن يبذل فيه ثمناً مثل الذي بذله ، لأنني إنما أسكب فيه دم قلبي حاراً ودم القلب أغلى قيمة من الفضة والذهب ، قال : إنك أبي النفس يا سيرانو ، قال : نعم ، وقد كان جديراً بك أن تفهم ذلك من قبل .

وهنا دخل رجل يحمل على يديه قبعات كثيرة قنطرة كان قد وجدتها في ميدان المعركة عند «باب نيل» من آثار الفارين والمنهزمين . فألقاها بين يدي سيرانو ، وقال له : ها هي أسلاب المعركة التي تركتها احتقاراً لها وازدراء بها قد حملتها إليك ، لا لأنها تستحق عنايتك والتفاتك ، بل لأنها دليل قاطع على جبن أعدائك ونذالتهم ، فضحك الجمهور طويلاً وظلوا يهتفون : قبعات الماردين ! وقال

(١) ما يذكر من مآثر الكرديناك وي Shirley أنه منشى المجتمع العلمي الفرنسي «الأكاديمية» ، وأنه أكبر عنوان في عصره للأدب والأدباء

سيرانو ، وهو ينظر خلسة إلى وجه الكونت : ليت شعري من هو ذلك الجبان النذل الذي جرد مثل هذا الجيش السافل ليحارب به شاعرًا مسكنيناً ؟ ما أحسبه الآن إلا خزيان نادماً يتمنى أن لو انفوجت الأرض تحت قدميه فهو في أعماقها أبد الآبدية ، فصاح الجمhour من كل ناحية : لاشك في ذلك ؛ فارتعد الكونت غيظاً واريداً وجهه وصاح بصوت أجنح كهزيم الرعد : ماذا تقولون ؟ أنا الذي جرد هذا الجيش السافل كما تقولون لأنني أردت تأديب ذلك الرجل الواقع البذيء . ولا يتولى تأديب سافل دنيء مثله إلا سفلة أدنياء ، فقهقه سieranو ضاحكاً وأخذ يجمع القبعات بحد سيفه ، ثم دفعها تحت قدمي الكونت ، وقال له : إذن يمكنني يا سيدي أن أكلفك برد هذه القبعات إلى أصدقائك .

فثار الكونت من مكانه غاضباً ونظر إلى سيرانو نظرة ملتهبة ينبعث الشر من جوانبها ، وقال له : هل قرأت إليها الرجل « دون كيشوت ^(١) » ؟ قال : نعم قرأته وأنا حاسر الرأس إعجاباً بذلك البطل الشريف ، قال : أتذكر من قصصه قصة الطواحين الهوائية ؟ فانحنى سيرانو وقال : نعم « في الباب الثالث عشر » قال : ما رأيك فيمن يحاول مهاجمة تلك الطواحين أو اعتراض سبيلها ؟ ففظن سيرانو لما أراد وقال : ما كنت أظن أن أعدائي طواحين هوائية تذهب مع كل ريح ، قال : إنها تندذر عها الطويلة لتناول من يمسر على مقاومتها وتتفد . به في الهوة العميقه ، قال : أو الكوكب العالي ؛ فصاح الكونت : مركبتي وخدمي ، فابتدر الأشراف تنفيذ أمره وظلوا يتراءكون

(١) دجل خيالي جعله الكاتب الإسباني الشهير « بجول سرفانتس » بطلاً لقصته التيالية المضحكه المسماة بهذا الاسم التي ألفها سنة ١٦٠٥ ، وكان معاصرًا للشاعر الإنكليزي « شكسبير » وباب الطواحين الهوائية أحد أبواب تلك القصة .

ويتدافعون كأنهم بعض الخدم ، وما هي إلا لحظات حتى حضرت المركبة فخرج الكونت وخرج بخروجه جميع الأشراف والبلاء ، من حضر منهم معه ومن حضر قبل ذلك ! لا يحيون سيرانو ولا يدنون منه ولا يرثون أنظارهم إليه مصانعة للكونت ومداهنة ، فمشى وراءهم سيرانو يشيعهم إلى الباب وهو يقول لهم : ماذا دهاكم يا أصدقائي ؟ مالكم تعرضون عني وتغرون مني ؟ مالكم لا تودعون البطل الذي جثم الساعة لتهنته وتكرمه ؟ وما زال يشيعهم بأمثال هذه الكلمات حتى ركبوا جميعاً مركباتهم وانصرفوا .

فعاد إلى مكانه الأول وهتف : « لبريه » فلباه فاستدناه منه واحتضنه إلى صدره وقال له : ألم أقل لك أنها الصديق إنه ليس لي في العالم صديق سواك ! ؟

نفس الشاعر

نكس لبريه رأسه مليأً نظر إلى سيرانو نظرة حزينة مكتوبة وقال له : قل لي أيها الصديق ماذا أعددت لنفسك من الوسائل غداً للخلاص من هذه الهوة العميقية التي قدفت بنفسك فيها ؟ واسمح لي أن أقول لك إني قد جنت جنوناً لا أدرى كيف يتركونك بعده خارج المارستان ، أليس كل ما تستطيع الندو عن نفسك في سلوك هذه الخطة العسراً أن تقول كل يوم : إنك تحب أن تعيش حراً مستقلًا في حياتك لا يسيطر عليك أي مسيطر من القيود والتقاليد ؟ فليكن لك ما تريده ، ولكن هل تستطيع أن تنكر أنك مغال متطرف ؟ إني لا أطلب إليك شيئاً سوى أن تعرف لي بذلك ؛ فابتسم سيرانو وقال له : إن كان هذا هو كل ما يرضيك فإني أُعترف لك به ، فتهلل لبريه فرحاً وقال له : آه لقد اعترفت أنها الصديق

فلزمتك الحجة التي لا قبل لث بدفعها ، قال : إنني لا أنكر يا لبريه أنني مغال متطرف كما تقول ولكن في سبيل المبدأ والفكر ، والتطرف قبيح في كل شيء إلا في هذا السبيل ، قال : ولكنك في حاجة إلى شيء من حسن السياسة وسعة الصدر ولدين الجاذب لستطيع أن تصلك إلى المجد الذي تحبه وتتعشقه ، فاستوى سيرانو في مكانه جالساً وقد ظللت جبينه سحابة سوداء من الهم واستحالات صورته إلى صورة مريعة مخيفة وقال : ماذا تريد مني يا لبريه وما هي الخطوة التي تحب أن ترسمها لي لأنقذ من طريقها إلى المجد الذي تتحدث عنه وتزعم أنني أتعشقه وأصبو إليه ؟ .

أتريد أن أعتمد في حياتي على غيري وأن أضع زمام نفسي في يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء يصطليعني ويجنبني مؤونة عيشي ويحمل عني هموم الحياة وأنقاها فيكون مثل شجرة «البلاب» لا عمل لها في حياتها سوى أن تلتفي بأحد الجذوع تعلق قشرتها وتتنفس مادة حياته بدلاً من أن تعتمد في حياتها على نفسها ؟ ذلك ما لا يكون .

أتريد أن أحمل نفسي على عاتقي كما يحمل الدلال سلطنه وأدور بها في الأسواق منادياً عليها : من منكم إليها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الجاه والسلطان يتبع نفساً بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء ؟

أتريد أن أنصب نفسي سخرية في الأنديـة الخاـصة والمـجـتمعـاتـ العامة ، أـلعـبـ كـماـ يـلـعـبـ الـقـرـدـ ، وـأـنـطـقـ كـماـ تـنـطقـ الـبـيـغـاءـ ، وـأـتـلـونـ كـماـ تـلـونـ الـحـرـباءـ ، رـجـاءـ أـنـ أـجـدـ التـفـاتـةـ منـ عـيـنـ أـمـيرـ ، أوـ أـرـىـ اـبـتـسـامـةـ عـلـىـ شـفـتـيـ وزـيـرـ ؟

أُريد أن تستحيل قامي إلى قوس من كثرة الانحناء ، وأن تنهض أحقافي من كثرة الإطراق والإغضاء وأن مجتمع فوق وكببي طبقة سميكه من كثرة السجود والجثي بين يدي العظاماء ؟

أُريد أن يكون لي لسانان : لسان كاذب أمدح به ذلك الذي اصطنعني واجتباني ، ولسان أعدد به عيوبه وسيئاته ، وأن يكون لي وجهان : وجه راض عنه لأنه ينود عنِّي ويحميَّني ، ووجه ساخط عليه لأنه يستبدلني ويسترني ؟

أُريد أن أقضى حياتي كلها واقفاً وسط دائرة واحدة أثبت فيها وأطفر وأتناول يعني ليتهم الناس أنني طويل وما أنا بطول ، أو أخذني لي بوقاً ضخماً أنفع فيه ليتهم السامعون أنني جهوري الصوت وما أنا إلا نافخ في بوق ؟

أُريد أن أسيّر سفينته شعري في العالم بأذرع العظاماء والكباراء . بدلاً من المحاذيف التي أتحتها بفأسي ، وبشعور « الدوقات » الغائيات بدلاً من الأشرعة التي أنسجها بيدي ، وبتهنيدات الأميرات العاشقات بدلاً من الرياح الخارية التي يسخرها الله لي ؟

أُريد أن أجعل حياتي الأدبية تحت رحمة المقرظين والنقددين ، والراضين والساخطين ، فإن شاعوا رفوعني إلى علیاء السماء ، وإن شاعوا هزوا بي إلى أعماق الجحيم ؟

ذلك ما لا يكون ، الموت أهون علىٰ من ذلك .

أُريد أن أعيش حراً مستقلًا لا أخشى أحداً ولا أهاب شيئاً ، لا يعنيني تهديد الجرائد التجارية الساقطة ، ولا يفرغني أن تنشر الصحف الكبيرة اسمي بالأحرف الضخمة في أكبر أنهارها ،

ولا أبالي أتداول الناس قصائدي وتدارسوها ورنت نعماتها في
أرجاء المسارح ، أم بقيت في كسر خزانتي أقرأها بنفسى لنفسى
وأتغنى بها في ساعات وحشى وخلوتي؟ .

أريد أن أعيش حراً ، أضحك كما أشاء وأبكي كما أريد ،
وأحتفظ بنظري سليماً وصوتي رناناً ، وخطواتي منتظمة ، ورأسي
مرتفعاً ، وقولي صريحًا ، أنظم الشعر في الساعة التي اختارها ،
وفي الشأن الذي أريده فإن أعجبني ما ورد علىّ منه فذاك ،
وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت في نظم غيره بدلاً من أن
أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والمثلين
أن يمثلوه ، والمعظماء أن ينوهوا به ويرفعوا من شأنه .

أحب أن لا أنظم من الشعر إلا ما يوجد به خاطري ، وأن
لا أنظم إلا بالطريقة التي أريدها أنا ، لا التي يريدها الناس لي ،
وأن لا أمتع نظري إلا بمنظر الأزهار التي أغرسها بيدي في
حديقتي . فإن قدر الله لي منزلة في الحياة فلن أكون مدينًا بها
لأحد غيري ، ولن يكون فخرها عائدًا إلا علىّ وحدي ولا
أسمح لأحد من الناس كائناً من كان أن يرفعني بل لابد لي أن
أرفع نفسي بنفسى .

أريد أن أعيش حراً طليقاً أناضل من أشاء ، وأجادل من
أشاء ، وأنتقد من أشاء ، وأن أقول كلمتي الخير والشر للإنجيار
والأشارار في وجههم ، لا متملقاً أوئلئك ، ولا خاشياً هؤلاء .
إن العبد المقيد بقيود الإحسان والنعم لا يمكن أن يكون حراً
طليقاً . فليعفوني الناس من أياديهم وصناعتهم لأنني لا أحب أن
أكون عبداً لهم ، ولا أسيراً في أيديهم .

وآخر ما أقول لك أني أفضل أن أعيش ممقوتاً مرذولاً عند الناس على أن أعيش ذليلاً مستعبدًا لهم ولا أحب أن أرتفع ارتفاع الزيرفون والسرور إذا كانت اليد التي ترفعني غير يدي ، وحسبي من الرفة والشرف أن أنا منها نصيبي الذي قسم لي قدر ما تسمح به قوتي ومواهي لا أزيد على ذلك شيئاً ، فقال له لبريه : عش بنفسك وحيداً كما شئت ، ولكن لا تكون عدواً للجميع .

قال ربما أكون مغالياً في ذلك ، ولكن ما دعاني إلى المغالاة في المعادة إلا مغالاتكم عشر المتتكلفين والمتعلمين في المصادقة والموالاة ، وتصنعتم في اجتذاب الخلان والأصدقاء . وما بغض إليّ التواد والتحاب إلا بغضي لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التي تنفرج عنها شفاهكم كلما قابلتم صديقاً أو عدوآ ، شريفاً أو وضيعاً ، كريماً أو لثيماً ؛ حتى أصبحت لا أحب شيئاً في العالم حبي لبغض الناس أياي ، ولا أكره شيئاً كرهي لحبهم لي وتوددهم إليّ .

هذا هو عيبي الوحيد الذي لا أعرف لنفسي عيباً سواه ولكنه عيب يعجبني جداً ويلذ لي كثيراً ، وإنك لا تستطيع أن تدرك بقدر ما أجد من اللذة والغبطة في نفسي عندما أسير في طريقي فأراه ملوعاً بنظرات البعض متلهياً بنيران الحقد وأرى نفسي محاطاً بنطاق محكم من قلوب الساخطين والناقمين .

أما الشتائم التي أسمعها واللعنات التي تصوب إليّ فهي أشبه الأشياء عندي بذلك البرد المتساقط الذي يناثر من الجو على ردائي ثم ينزلق عنه إلى الأرض فأدوسه بقدمي .

إن الصدقة الباردة المتفككة التي يسعى وراءها الناس أشبه شيئاً باليقة الإيطالية اللينة التي تنهل حول العنق فيتهدل العنق معها ، فهي وإن كانت لينة مريحة إلا أنها رخوة مهلهلة ليست لها مسكة ولا قوام .

أما العداوة فهي الدرع الفولاذيّة الصلبة التي تدور بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتنفعه عن أن يضعف أو أن يختور ، وكل عدو جديد هو حلقة جديدة في تلك الدرع القوية المتينة .

فقال لبريه : إني لم أرك في حياتي راضياً عن البعض مثل اليوم ، وإن نفسي تحذثني بأن كارثة من الكوارث العظمى قد نزلت بك فأثارت هذه الخواطر في نفسك .

فاضطرب سيرانو وخافت صوته وهدأت تلك الزوابعة التي كانت ثائرة في نفسه وقال : ماذا تقول يا لبريه ؟ قال : أظن أنك قد عرفت منها عندما قابلتها أنها لا تحبك ، فأنت ناقم على الحب راض عن البعض ، فنكس رأسه وصمت صمتاً طويلاً لا يقول فيه شيئاً ، ففهم لبريه كل شيء .

المعركة النفسية

وفي هذه اللحظة دخل المطعم البارون كرستيان يختال في حلمه الجميلة ورونقه الشائق البديع ورأى أبناء فرقته مجتمعين فتقديم لتحياتهم فلم يعبأوا به وحاول أن يدخلهم ويتحجب إليهم كما هو شأن أبناء الفرقـة الواحدة عندما يجتمعون في مكان واحد فنقيضوا عنه وتسللوا من جواره فلم ير بدأ من أن يتبدل مكاناً قصباً ويجلس فيه وحده ؛ فلم يقنعهم ذلك منه حتى أرادوا

إز عاجه وإفلاقه وكان من شأنهم - كما حديث روکسان عنهم - أنهم لا يحبون أن يدخل فرقتهم غريب عنهم عصبية لأنفسهم واحتفاظاً بجماعتهم ، والجنوبيون في فرنسا ينظرون دائماً إلى الشماليين بعين البغض والازدراء ويسمون ترفهم ونوعتهم ضعفاً وجبنا ، فمشى أحدهم إلى سيرانو وقال له وهو يغمز كريستيان بعينه : قد كنت وعدتنا يا سيدي منذ هنيهة أن تقص علينا حديث الواقعية التي انتصرت فيها ليلة أمس على أعدائك الشماليين الجبناء فحدثنا ذلك الحديث الآن ليكون درساً تهذيباً لهذا الفتى الشمالي المتأثر ، وأشار إلى كريستيان فانتقض كريستيان غضباً والتفت إلى التكلم وقال له : ماذا تقول ! وكان سيرانو مشغلاً بمحادثة صديقه لبريه ، وكان يمضي إليه بشأنه مع روکسان فلم يشعر بشيء مما حوله فتركه الفتى ومشى إلى كريستيان فوقف أمامه وقال له : عندي نصيحة لك أيتها السيدة أحب أن أقدمها إليك لتنتفع بها في مستقبل حياتك معنا ؛ فألقى عليه كريستيان نظره ازدراء واحتقار وأشاح بوجهه عنه فقال له الفتى : أترى هذا الرجل ذا الأنف الكبير والسخونة المخيفة الحالس هناك ؟ إن هنا كلمة لا يجوز لأحد النطق بها أمامه مطلقاً كما لا يجوز النطق بكلمة الحبل في بيت المشنوق وأحب أن لا يفوتك العلم بها ضئلاً بحياتك ؛ فعجب كريستيان لأمره ورفع رأسه إليه وقال : أي كلمة تريده ! قال انظر إلى وجهي تفهم معناها فإني لا أستطيع النطق بها ! ثم وضع أصبعه على أنفه ، وهو يلتفت ويتحدر ، فقال له : أتريد كلمة الأذ... إيقاطه الفتى ، وقال : صه إياك أن تتمها فيسمعها فيكون فيها هلاكاً . فلم يرفع كريستيان طرفه إليه أńفة وكبارياء فتقدم نحوه فت آخر وقال له : ولا بد لك أن تعلم أيضاً أن أحداً من الناس لا يحدث نفسه بمناؤة هذه

الرجل أو مخاشرته إلا إذا كان من رأيه أن يلاقي حتفه قبل نهاية
أجله ، ثم وقف به آخر وقال له : احضر المخدر كله من أن تنطق
على مسمع منه بهذه الكلمة أو ما يشبهها لا تصريحاً ولا تلميحاً
ولا كناية ، ولا تعريضاً ، فقد قتل في الأسبوع الماضي رجلاً
أخنف لأنه ظنه يتخاصف هزءاً به وسخرية ، وقتل آخرمنذ
يومين لأنه أخرج منديله من جيبيه وأدناه من أنفه .

وهكذا ظلوا يتقدموه نحوه واحداً بعد آخر يندرونه ويهمسون
في أذنه بكلمات مختلفة ويشيرون بين يديه بإشارات غريبة تهويلاً
عليه وإرهاباً له ، وهو صامت ساكن لا يرفع طرفه إليهم حتى
بوم بهم ، فتهض من مكانه بهدوء وسكون ومشى إلى «كاريون
دي كاستل» قائد الفرقة ، وهو جالس على كرسيه فوقف بين
يديه وقال له : ماذا يصنع الإنسان يا سيدي القائد إذا رمت به
يد المقادير بين جماعة من الجنوبيين الواقعاء ، وهم لا يزالون
يشاكسونه ويناوئونه ويستثيرون غيظه وحفيظته بسفاهتهم ووقاحتهم !
فأجابه القائد ببساطة غير مختلف به ، ولا مكررث : يرهن لهم
على أنه ، وإن كان شمالياً فهو شجاع مثلهم ، فانحنى كرستيان
بين يديه ، وقال : سأفعل ما أشرت به يا سيدي ، وعاد إلى
مكانه الأول .

وكان سيرانو قد فرغ من حديثه مع لبريه واعتدل في جلسته
فهرع إليه الجنود من كل ناحية وأحاطوا به وقالوا : الحديث يا
سيرانو ، فاتجه إليهم وأنشأ يقص عليهم قصته ويقول :

تقدمت نحوهم وحدي منفرداً ، وكان القمر يلمع في قبة
السماء لمعان القطعة الفضية في رمال الصحراء ، ثم لم يلبث أن

غشيتها سحابة دكناه فصار الظلام حالكاً مدهماً لا يستطيع المرء أن يرى فيه أبعد من ... فمقاطعة كريستيان وقال «أنفه» فدهش القوم واصفر وجه سيرانو وتهالك في نفسه ، ثم صرخ بصوت كهزم الرعد قائلاً : من هذا الرجل ! وهم بالهجوم عليه ليقتل به . فقال له أحد الجنود : هو رجل شمالي دخل فرقتنا صباح هذا اليوم ، فجحد سيرانو في مكانه ذاهلاً ومر بخاطره كلمح البصر حديث روكسان فقال : صباح هذا اليوم ! وما اسمه ! قال : يزعم أن اسمه البارون كريستيان دي نوفييت ، فتضعضع سيرانو وتخاذل وشعر أن نفسه تتسرّب من بين جنبيه ، وقال : آه ... إنه هو ، ثم استحالّت صورته إلى صورة مرعبة خيفة وظلت أطراوه ترتجف ارتجافاً شديداً فتهافت على كرسى يجانبه وصمت صمتاً عميقاً لا حس فيه ولا حرقة ، ثم أخذ يعود إلى نفسه شيئاً فشيئاً حتى هذا فألقى نظرة على الجنود المحبيين به وقال لهم ماذا كنت أقول لكم ! آه لقد تذكريت ، كنت أقول إن الظلام في تلك الساعة كان حالكاً جداً حتى إن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى أبعد مما تحت قدميه .. وتوقف عن إتمام كلامه لأنّه تذكر مقاطعة كريستيان إياه عند وصوله إلى هذه الكلمة فوثب من مكانه وثبة النمر الجائع وهجم عليه هجمة ما كان عند الحاضرين ريب في أنها تحمل في طياتها الموت الأحمر ، وهو يطمعن بهجته الحاسكونية مورديوس . ميل ديوس ، ولكنه لم يبلغ مكانه حتى جمد أمامه جمود التمثال فوق قاعدته وظل يزفر زفيرًا متتابعاً ، ثم تراجع بهدوء وسكون إلى مكانه الأول وال القوم يتبعونه بانتظارهم ويعجبون لأمره ويمولون في أنفسهم : ماله يقدم ، ثم يحجم ! وما الذي يبدو له فيتراجع بعد اندفاعه ! وما هي إلا هنيهة حتى هذا وسكن وعاد إلى حديثه يقول : كنت أعلم أنني مقدم على

خطر من أعظم الأخطار وأني إنما أحارب في الحقيقة رجالاً عظيم الجاه والسلطان لو شاء أن يسحقني بقدمه كما يسحق السائر النملة الدارجة في طريقه لفعل ، بل لو شاء أن يضعني بين ... فمقاطعه كريستيان ، وقال «منخريه» فاهر سيرانو في كرسيه يمنة ويسرة وغلا دمه في رأسه غليان الماء في مرجله ، ولكنه لم يتوقف بل استمر في حديثه يقول : بين شديقه لما حال بينه وبين ذلك حائل . لأنه صهر الكادريال ، والكاردينال هو كل شيء في فرنسا ، ومررت بي ساعة ضعف كنت أقول فيها لنفسي — وهنا نظر إلى كريستيان كأنه يخاطبه — إنك قد عرضت نفسك إليها الرجل المسكين بتهورك وجنونك للهلاك الذي لا بد لك منه ، ووضعت أصبعك بين الشجرة ولها ، وليس بكثير على رجل قاس مستبد كهذا الرجل أن يزعم ... فمقاطعه كريستيان وقال «أتفكر» فتصامم سيرانو ، وكأنه لم يسمع شيئاً وقال : إرادتك على ما يريد ، ولكنني تجلدت واستمسكت ، ولم أعبأ بهذه الاعتبارات جميعها ، وقلت في نفسي : سر إليها الحاسكوني الحر وأمض في سبيلك قدماء لا تحفل بشيء مما يعرض طريقك وقم بواجبك الذي حملت عليه كما يفعل الحر الشريف ، وبينما أنا أنكر في ذلك أذ لمحت شيئاً من أولئك الأشقياء بهيء لي في هذا الظلام الحالك المدحوم ضربة قوية ، فما هو إلا أن لمحتها حتى رغت منها بأسرع من ضربة السيف فأفسدتها عليه ، ولكنني لم ألبث أن وجدت نفسي في الحال وجهاً لوجه ... فمقاطعه كريستيان وقال «أو أنفأ لأنف» فزار سيرانو زعيماً مخيناً ووضع يده على مقبض سيفه وصاح : «يا لصواعق السماء ورجومها» فذعر القوم وأيقنوا بالشر وأتعلوا إليه أعناقهم ماذا يفعل فلم يفعل شيئاً ، بل استمر في حديثه يقول :

ووجدت نفسي أمام مائة من الغوغاء الساقطين تم ثيابهم البالية وأزيائهم القبيحة عن حقارتهم وسفالتهم وتتصاعد من أرداهم القدرة رواحه كريهة تماماً... فقاطعه كريستيان وقال «الأنف» فانفجرت شفتاه عن مثل ما تنفرج عنه شفتا الليث ، ولكنه لم يلتفت إليه واستمر يقول : تماماً الجلو وتزهق النفس ، فلم أتردد لحظة واحدة في الم{j}جموم عليهم ففتحت باثنين منهم ، ثم اتبعهما بثالث ، وإذا بأحدhem يصوب إلى سهمـاً... فقاطعه كريستيان ، وقال «أنيـا» فلم يستطع على ذلك صبراً وهب من مكانه هبوب العاصفة وصرخ صرخة عظمى : اخرجوا من هنا جميعكم ودعوني مع هذا الرجل وحدي .

فقرروا من وجهه جمـعاً يستبقون الباب ويترافقون ويهمسـ كل منهم في أذن صاحبه : إنها وثبة الأسد ما في ذلك ريب ، وراجنو يقلب كفيه حزنـاً وأسفـاً ويقول : والأسفا عليك أيها الفتى المسكين ، ما أحسـبـها إلا لمحـةـ الطرف حتى أراك قطعاً متناثرة على مائـدـي .

فلما خلا المكان بـسـيرـانـوـ وـصـاحـبـهـ ظـلـاـ يـتـنـاظـرـانـ ساعـةـ في صمت وـسـكـونـ لاـ يـفـوهـانـ بـحـرـفـ واحدـ وـكـرـسـتـيـانـ يـتـنـظرـ وـقـوعـ الكـارـثـةـ وـيـتأـهـبـ لهاـ تـأـهـبـ الـجـريـءـ المـقـدـمـ ، ثمـ ماـ لـبـثـ أنـ رـأـىـ سـيرـانـوـ يـتـقدـمـ نحوـ روـيدـاـ روـيدـاـ حتـىـ وـقـفـ أـمـامـهـ وـوـضـعـ يـدـهـ عـلـىـ عـاتـقـهـ فـارـتـعـدـ كـرـسـتـيـانـ اـرـتـعـادـاـ خـفـيـاـ ، وـبـيـنـاـ هوـ يـتـنـظـرـ عـاصـفـةـ منـ الشـرـ تـهـبـ عـلـيـهـ إـذـ سـمـعـ يـنـادـيـهـ بـنـغـمـةـ لـطـيفـةـ هـادـئـةـ وـيـقـولـ لهـ : سـيـدـيـ كـرـسـتـيـانـ ! فـرـفعـ طـرفـهـ إـلـيـهـ فـرـآـهـ باـسـماـ مـتـلـطـفـاـ فـعـجـبـ لأـمـرـهـ وـقـالـ لـهـ : مـاـذاـ تـرـيدـ يـاـ سـيـدـيـ ؟ـ قـالـ : أـرـيدـ أـنـ أـعـانـقـكـ وـأـقـبـلـكـ أـيـهـ الصـدـيقـ فـتـعـالـ إـلـيـ ، فـظـلـ كـرـسـتـيـانـ يـنـظـرـ إـلـيـ نـظـراـ

حائزأً متضعضعاً لا يفهم من امره شيئاً ، فقال سيرانو : تعال
 إليّ وقلني فإني أخوها ، وقد بعثتني برسالة إليك فاستمعها ،
 فازدادت حيرة كريستيان ولم يفهم ما يريد وقال له : أخو من
 يا سيدي؟ قال : أخو الفتاة التي تحبها ، قال : أي فتاة تريد؟
 قال : روكسان ، قال : أنت أخوها؟ وظل يقلب نظره في
 وجهه كأنه يفتش عن وجه الشبه بين الأخرين فلا يجد ، فقطن
 سيرانو لغرضه وقال : أخوها تقريباً ، أي ابن عمها ، فتألاً
 وجه كريستيان سروراً وقال : هل حدثتك عني؟ قال : نعم ،
 قال : وهل أخبرتك أنها تحبني؟ قال : ربما ، فازداد سروره
 واغباطه وقال له : ما أجمل هذه البشرى التي جئتني بها يا
 سيدي وما أعظم شكري لك ، فابتسم سيرانو وقال : ما أغرب
 عواطف النفوس وما أسرع تقلباتها ، فقال : اعف عني يا سيدي
 فقد أساءت إليك ، قال : وما رأيك في تلك الأنقيات التي رميتي
 بها منذ هنีهة ! قال : إنني أستردها جميعها وأجثو تحت قدميك
 معتقدراً عنها معتمداً على كرمك وإحسانك ، قال : الآن أستطيع
 أن أقول لك إنها اعترفت لي بأنها تحبك حباً شديداً وشريفاً ،
 وتضمر لك في قلبها من الوجد مثل ما تضمر لها ، وقد كلفتني
 أن أقول لك إنها تنتظر منك اليوم كتاباً ، قال : والأسفاء ، ذلك
 ما لا أستطيعه ، قال : ولم؟ قال : لأنني رجل عاطل من جميع
 الموهاب والمزايا لا أملك حلية من حل الدنيا غير حلية الصمت ،
 فإن عطلت منها هلكت وافتضحت ، قال : عجباً لك ، إلا
 تستطيع أن تكتب كتاباً؟ قال : لا ، لأنني غبي بليد . قال :
 إنك مغال جداً وحسبك من الذكاء أنك تعرف مقدار نفسك ،
 على أن أسلوبك في مقاطعي ومحايظي يدل على أنك لم تحرم
 فضيلة الشجاعة والذكاء ، قال : أستطيع أحياناً أن أكون شجاعاً

إذا كان الحديث بيني وبين رجل ، أما المرأة فإني أضعف الناس منه بين يديها . قال : ولكنك جميل ، والحمل قوة يستمد منها اللسان فصاحته وبيانه ، قال : لا أنكر أن لنظراتي تأثيراً خاصاً على النساء ، وأنني ما مررت بهن إلا استشرت بجمالي إعجابهن ودهشتهن ولكنني أذوب حياء وخجلاً إذا جلست إليهن أو جمع الحديث بيني وبينهن ، وربما استطعت في بعض الأحيان أن أتحدث إليهن في بعض الشؤون العامة التي لا يتحامى فيها أحد أحداً حتى إذا وصلنا إلى حديث الحب كان الموت أهون عليّ من أن أنطق بحرف واحد فيه ، قال : إنني لأعجب لأمرك جداً يا كريستيان ، ويخيل إليّ أنني لو كان لي مثل حظك في الجمال لأحسنت الكلام في الحب ، قال : ويخيل إليّ أنا أيضاً أنني لو كان لي مثل حظك في الفصاحة لاستطعت الكلام فيه ، قال : ليتني أستطيع إذا جلست إلى النساء أن أستشير بجمالي إعجابهن ودهشتهن ، قال وليتني أستطيع إذا جلست إليهن أن أسترعي بياني أسماعهن .

وصمت كريستيان لحظة ثم قال : لقد حدثوني عنها أنها فتاة ذكية متفوقة تعشق في الرجال الذكاء والقطنة قبل أن تتعرش فيهم الحسن والجمال ، فماذا يكون شأنها إذا كتبت إليها كتاباً فقراته فلم تر بين سطوره إلا عيّاً وركاكاً وضعفاً وأضطراباً؟ فقال وهو يصعد نظره في وجهه ويصوبه ويعجب بجماله ووضاءته : يخيل إليّ يا كريستيان أنك لو أعرتني جمالك أو لو أنني أعرتك لساني لتتألف منا إنسان تام المواهب والمزايا ، قال : نعم ما في ذلك ريب ، قال : ألا تمنى أن تكون ذلك الإنسان؟ قال : نعم أتمنى أن أكونه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ قال : إن في استطاعتي أن أنفخ فيك روح الفصاحة وأنفت في صدرك

سحرها فإذا أنت أجمل الناس وأذكاهم معاً . قال : لا أستطيع أن أتصور ذلك إلا إذا زعمت أنك من الساحرين ، قال : هل تعجز عن حفظ ما يلقى إليك من الجمل والكلمات وإن لم تفهم معناه ؟ قال : لا ، فإن ذاكرتي قوية جداً ، ولكنها كذاكرة البيضاء تنقل ولا تعقل شيئاً ، وأظن أنني قد فهمت غرضك الآن ، وإني لأعجب أشد العجب من اهتمامك بهذا الأمر الاهتمام الشديد ومن إلحاحك في تلمس الوسائل للوصول إليه هذا الإلحاح كله كأنه شأن من شؤونك الخاصة التي تعنىك . قال : سأفضي إليك بسر المسألة فاستمع لما أقول :

إن روكسان ابنة عبي وصديقي ورفيقه صباي وطفولي ليس لها في العالم من صديق ولا معين سوى ويهمي جداً أن أراها سعيدة في حياتها هائمة في عيشها لا يقدر عليها مكدر من عوادي الدهر ونكبات الأيام . ولا أكتملك أني أخاف عليها الخوف كله أن تخل بها في هذا الحب الذي اختارته لنفسها نكبة من النكبات العظام ، أو فاجعة من الفواجع الجسام تقضي عليها وعلى آمالها ، وما أحسبك تمنى لها إلا ما أمناه أو تضرر لها في نفسك إلا العطف الذي أضمره لها ، خصوصاً وأن الصلة التي ينكمما ستحول طبعاً إلى عشرة زوجية طويلة لا يقطع جبلها إلا الموت ؟ لذلك أردت أن تتعاقد يداً واحدة على إسعادها وترفيه عيشها وحماية ذلك الحب في قلبها وحراسته من أن تخشاه غاشية من وساوس اليأس أو خيبة الأمل ، أنت بحسنك ، حمالك وأنا بفصحي وبياني ، تسمع صوتي ولكن من فمك ، تحسن بروحي ولكن في جسمك وتشرب عواطفني ولكن من كأسك ، وتطرب لغماتي ولكن من قيثارتك ، أى أنني أتقمن في حسمك وأنسرب بين حنایا خدعلك وأكمن في قراره نفسك فتستحيل

نحو الاثنين إلى شخص واحد ، أو تصبح أنت كل شيء وأصبح أنا لا شيء ، وما دامت سعادتها في الحياة تتوقف على أن ترى بجانبها إنساناً يجمع في نفسه بين موهبتي الفصاحة والجمال فليتألف معي ومنك ذلك الإنسان الذي تريده وتتمناه ، ولا تقل إننا نخدعها بذلك أو نغيرها ؟ فإنما لا نريد بما نفعل إلا سعادتها وهناءها .

هذا هو الغرض الذي أرمي إليه ولا أرمي لغرض سواه ؛ فارتجف كرستيان وقال : إنك تخيفني جداً يا سيرانو ، وينجح إلى أن عقلي يحاول الفرار مني دهشة وعجبًا فإنك تقترح علي أمرًا ما سمعت بمثله في حياتي ، قال : إنك مغال يا كرستيان والمسألة بسيطة جداً ، ألم تقل لي منذ هنีهة إنك تخاف إن جالستها أو تحدثت إليها أن تملكك وتحتولك فتموت عواطف الحب في قلبها ؟ ... فما الذي يربيك مني وأنا لا أريد إلا ما تريده ، ولا أرمي إلا إلى بقاء عاطفة الحب حية في قلبها نامية ، فتتمتع أنت بقلب الفتاة التي تحبها وأتعتم أنا بسعادة الصديقة التي أجلها واحترمها وأحرض على راحتها وهدوئها ، قال : وهل تشعر في نفسك أنك سعيد بذلك ؟ فانتقض سيرانو انتفاضة خفيفة لم يشعر بها كرستيان وقال بصوت خافت : سعيد . وصمت لحظة ثم قال بصوت متهدج مرتعش : نعم سأكون سعيدًا يا كرستيان لأنني شاعر ، والشاعر مثل بفطرته ، يلد له دائمًا أن يلبس ثوباً غير ثوبه ويتراءى في صورة غير صورته ، فيمثل دور المجنون وهو عاقل ، ودور الشجاع وهو جبان ، ودور السعيد وهو شقي ، ودور العاشق الوهابي وما في قلبه ذرة واحدة من الحب والغرام ؛ فاسمح لي أن أمثل دور العاشق الوهابي فهو الدور الذي يلد لي تمثيله أكثر من غيره ، ولكن أنت المسرح الذي أمثله عليه وأنظر في أرجائه جيئه وذهوبها .

كن اللسان وأنا الفكر ، كن الجسم وأنا الروح ، كن الجمال وأنا العقل ، كن الزهرة وأنا العطر ، كن العين وأنا التور المنبعث منها ، كن القلب وأنا حبته الكامنة فيه ، فلا تكتب إليها إلا ما أملأه عليك ، ولا تخدعها إلا بما أفتوك لياه ول يكن ذلك سراً بيبي وبينك لا تعرفه روكسان ولا يعرفه أحد من الناس .

فهذا كريستيان وسرى عنه واستقر في نفسه أن الرجل صادق فيما يقول ، ولكنه لو استطاع أن يفهم الحقيقة كما يفهمها بقية الناس لأدرك أن سيرانو عاشق مثله لتلك الفتاة التي يحبها وأنه لما أخفق في حبه وسأله حظه فيه وعجز عن أن يفضي إلى حبيبته بذات نفسه وسريرته قلبه وجهاً لوجه أراد أن يتخد منه بوقة يهتف في جوفه بأناته وزفاته لتصل إلى آذانها فتسمعه من حيث لا تراه ولا تشعر بمكانه لا يرجو من وراء ذلك غرضاً ولا غاية سوى أن يرفة عن نفسه بعض همومها وألامها بالمناجاة والشكوى كما يرفة المريض عن نفسه آلامه وأوجاعه بتردید الآيات ، وتصعيد الزفرات .

فقال له كريستيان : ولكن ما العمل في الكتاب الذي قلت لي إنها تريد أن أرسله إليها اليوم ؟ فمد سيرانو يده إلى صدره وأنحرج تلك الرسالة التي كان يريد أن يقدمها إليها في الصباح فلم يفعل وأعطاه إياها وقال له : أبعث إليها بهذه الرسالة فهي تامة لا ينقصها غير التوقيع ، فذهب كريستيان وعاودته وساوسه وهواجسه وقال له : وهل كتبتها من أجلي ؟ وما الذي دعاك إلى ذلك ؟ قال : لم أكتتبها من أجلك ولا من أجل أحد من الناس ، ولكننا عشر الشعراء لا نخلو جيوبنا غالباً من أمثال هذه الرسائل الغرامية الخيالية ، فإننا وإن كنا محروميين سعادة الحب وهناءه

ولكنا نتخيل أحياناً صوراً وهمية لا وجود لها في الخارج تخاطبها ونناديها كما ينادي المحب محبوبه لاستطاع إمداد الفن الذي نشتغل به بحقائق الحياة وصورها ، ولقد أودعت هذه الرسالة جميع ما يمكن لمحب مفنن أن يضميه في نفسه من لوعة الحب وخواج الغرام ، ولقد كانته أناقى وزفراقي قبل اليوم طائرة هائلة في أجواز الفضاء لا تجد لها مستقرأ ولا مهبطاً أما الآن فقد وجدت على يدك المستقر الذي تتطلبه وتسعى إليه ، وستقرأ روكتان هذه الرسالة بعد ساعة وسترى أنها الصورة الحقيقة لعواطفك وشعورك لا ينقصها شيء حتى روح الإخلاص وجوهره ، قال : ألا تحتاج لتغيير شيء فيها ؟ قال : لا ، قال أخاف أن ترتاب بها ، قال : كن على ثقة من أنها ستعتقد حين تقرأها أنها ما كتبت إلا لها ، وأنها هي التي أوحت بها إلى نفس كاتبها .

فتتناول كريستيان الرسالة طائراً بها فرحاً وترامي على عنق سيرانو يقبله ويلشه ويضمه إلى صدره ويقول : آه يا صديقي الكريم ، ما أعظم شكري لك وأغباثي بصحبتك ، وظل على ذلك هنيهة وكان القوم وقوفاً أمام باب المطعم يتذمرون إذن سيرانو لهم بالرجوع وهم يسمعون ضوضاء الحديث بينه وبين صاحبه فيتوهمون أنه البحدال العنيف واللخصام الشديد حتى شعرو بذلك السكون الذي ساد بينهما فریعوا وخیل إليهم أنه سکون الموت فدفع راجنو الباب قليلاً وأطل من فجورته فرأى هذا المنظر فذعر وخیل إليه الرعب الذي حلقه أنه يرى منظر الموت وأن كريستيان صريح بين يدي سيرانو ، فظل يرتجف ارتجافاً شديداً ، فهمس القوم في أذنه : ماذا ترى ؟ قال : دعوني فإني لا أجرؤ على النظر وأكاد أموت خوفاً ورعاً ، فدفعوا الباب جمیعاً ودخلوا ، ففهموا الحقيقة التي ما كانوا يتتصورونها

ولا يقدرونها في أنفسهم ورأوا أن ذلك الصراع الذي كانوا
 يتوهونه بين خصمين متباuginين إنما هو عناق طويل بين صديقين
 مخلصين ، فدهشوا دهشة عظمى ، وظل بعضهم يهمس في أذن
 بعض : إنه يعانقه ويلتزمه كأنه أصدق أصدقائه ، وقال « كاربون
 دي كاستل » أَحْمَدَ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّ شَيْطَانَنَا قَدْ اهْتَدَى ، وصَاحَ
 آخِرٌ : عَجِبًا لَكَ يَا سِيرَانُو ! لَقَدْ أَصْبَحَتْ مُسِيحِيًّا تَقِيًّا إِذَا
 ضربك أحد على أحد من خريك أدرت له الآخر ، فلم يغضب
 سيرانو هذه المرة ولم يكتثر بل ابتسם له وتطلق . كان بين
 الداخلين « الرجل المائل » صديق « ليز » فأطعمه هذا الموقف
 في حلم سيرانو ، وقال في نفسه : لقد فقد الرجل حميته وانطفأت
 شعلة حماسته وأظنني أستطيع أن أتكلم عن أنفه الآن باطمئنان ،
 ثم أشار إلى ليز فاقتربت منه ، فقال لها : سأريك الآن منظراً
 من أبدع المناظر وأبهجهها وأخذ يدور في أنحاء القاعة ويستنشق
 الهواء بصوت عال كأنما يشعر برائحة غريبة حتى دنا من سيرانو
 فلم يكتف به وقال له : ما هذه الرائحة الغريبة يا سيدي ؟ فضمت
 سيرانو ولم يقل شيئاً ، فأدنى وجهه من وجهه واطال النظر إلى
 أنفه وقال له : قل لي ما هذه الرائحة الغريبة المنتشرة في هذا
 الجلو ، فإنك تستطيع أن تفهمها أكثر مني ؟ فما أتم كلمته حتى
 لطم سيرانو على وجهه لطمة هائلة رنت في أرجاء القاعة وقال :
 رائحة الذعر أيها الجبان ، فصفق القوم تصفيقاً شديداً ، وأغربرا
 في الضحك جميراً حتى « ليز » .

ووضعت قدمي على حافته لأدفعه من تحتي حتى دخل سيرأني
فهاهه الأمر وتعاظمه وفهم لانظرة الأولى كل شيء ، فابتدر
الحبل فقطعه بسيفه وقال : ماذا أصابك أيها المسكين ؟ فنفضت
له جملة حالي وبئته هي ؛ فأشدق عليّ وجلبني من يدي حتى
جاء بي إلى هنا وقصّ على روكسان قصتي وقال لها : إن راجنو
صديقنا وصاحب اليد البيضاء علينا ، وعلى الأدباء جميعاً شعراً لهم
وكتابهم ، وهو وإن لم يكن من نوابع الشعراء المجيدين فهو أديب
متقن محسن إلى رجال الشعر والأدب ضئيل بهم وبكرامتهم ،
للم أحفل كثيراً بتلك الغمزة التي غمزنيها في حديثه ، وما زال
بها حتى استثار عطفها وشفقتها فبكّت رحمة بي واستدنتي
إليها وواستني بعض الكلمات الطيبة ثم عهدت إليّ بهذا الشأن
الذي أقوم به في منزلها كما تعلمين ؛ فاستعبرت الوصيفة باكية ،
وقالت : لقد كان يخيل إليّ يا راجنو أنك سعيد الطالع في اعمالك ،
 وأنك تربع كثيراً مما الذي دهاك وجر عليك هذا البلاء ؟ قال :
حرفة الأدب يا سيدتي ، فقد كنت أحب رجال الشعر ، وكانت
« ليز » تحب رجال السيف فلم يزل « مارس » يأكل ما يشاء ،
ثم ياتي ما يتبقى منه إلى « أبولون »^(١) حتى نزل بي ما ترين !

فرثت الوصيفة خاله وطلت تلاطفه وتواسيه حتى هدا وسكن ،
ثم نهضت من مكانها واتجهت جهة الشرفة وطلت تنادي : سيدتي
روكسان أسرعي فقد دنا ميعاد المحاضرة ، فأجبتها سيدتها من
داخل البيت : ها أنا ذي آتية فانتظري قليلاً ؛ فقال لها راجنو :
أية محاضرة تريدين ؟ قالت : سيخضر الساعة إلى منزل « كلومير »
— وأشارت إلى ذلك المنزل المقابل لمنزل سيدتها — رجل من

(١) مارس : إله الحرب . وأبولون : إله الشعر وغيره من الفنون .

العلماء الباحثين اسمه «الكاندر» ليلاقي حاضرة عن الحب ، وقد دعيت سيدتي لاستماعها وسأذهب معها بالطبع ، فضحك راجنو ، وقال : ما سمعت قبل اليوم أن الحب فن من الفنون التي تلقى فيها المحاضرات ، قالت ، وهي تبسم : ليس في الفنون ما هو أحق بالمحاضرات من الحب .

وهنا سمعا صوت قيثارة آتية من بعيد فالتفتا وراءهما فإذا سيرانو مقبل ووراءه غلامان صغيران يحمل كل منهما في يده قيثارة يقع عليها ، وهو ينهرهما ويتعظ عليهما كأنهما طالبان بين يدي موذبها ، ويقول لهما : قد أمرتكما أينما البليدان أن تثلذا النغمات وأنتما تأييان إلا تنبئتها فقال له راجنو : بخ بخ يا سيرانو . متى كان عهلك بمعرفة المثالث والمثاني ! قال : عهدي بها منذ ذلك اليوم الذي جثوت فيه بين يدي جاصنبي الموسيقي العظيم . وما أنا إلا تلميذه وخريج مدرسته ، ثم التفت إلى أحد الغلامين وانزع منه قيثارته واستقبل شرفة روکسان وأخذ يغنى هذه القطعة : «قد جئت أسلم على ياسمينك ، وأقدم تحياطي لورودك ، وأثم بخضوع وخشوع أوراق زنابقك البيضاء » فسمعت روکسان صوته فخرجت إلى الشرفة فرأته ، فقالت : ها أنا ذي قادمة يا سيرانو ، وكانت قد فرغت من زيتها ولباسها ، فنزلت فحيته وقالت له : ما هذا المنظر الغريب ! ومن هذان الغلامان الصغيران ! قال : هما ولدان موسقييان قد رببتهمااليوم في رهان ، فضحكـت وقالت : أي رهان ؟ قال : قد جادلت اليوم « داسوسي » في مسألة نحوية موضوعها الفرق بين « لا وبل » واشتد بيـضا اللجاج ساعة فاستحقـق وأشار إلى هذين الغلامين ، وكانـا واقفين بين يديـه ، وقال لي : سأراجع المسـألـة الآـن في مـطـانـها من الكـتب ولـيـكونـ هـذـانـ الغـلامـانـ طـوعـ أمرـكـ لـيلـةـ كـامـلـةـ تـذـهـبـ بهـماـ حيثـ

تشاء ويعنيانك ما تريده إن كان الفوز لك فيها ، ثم قام إلى خزانة كتبه فراجع المسألة فكان الحق في جاني فأخذت الغلامين وسرت بهما يعنياني ويأثران بأمرني في كل ما أقرحه عليهما من الضروب والألحان حتى وصلنا إلى هنا ، قالت : وهل أنت راض عنهما ؟ قال : إنهما يجيدان بعض الإجاده ، وقد طربت لنعمتهما ساعة ، ثم سئلتهما ، ولا أدرى ماذا أصنع بهما الآن ! وأحسب أنني لا أستطيع احتتمالهما حتى مطلع الفجر ، وصمت هنئها ثم ابتسم والتفت إليهما ، وقال لها : أتعرفان منزل مونفلوري الممثل البطين ؟ قالا : نعم ، قال : اذهبا إليه وقفوا تحت نافذة مخدعه الذي ينام فيه واضربا لمنا طويلاً مزعجاً مضطرب النغمات يذهب براحته وسكونه ويملاً صدره غيظاً وحنقاً ، ثم عوداً إلى ذلك .

فانحنى الغلامان بين يديه وانصرف ، فالتفت سيرانو إلى روكسان وقال لها : قد جئت أسأل سيدتي كما أسأل لها كل ليلة ما رأيها في حبيبها كرستيان ؟ ألا تزال تراه إنساناً كاملاً خالياً من العيوب والهبات حتى الآن ! قالت : نعم ما في ذلك ريب ، فلقد جمع الله له بين فضيلتي الجمال الباهر ، والذكاء النادر ، وقلما اجتمع لإنسان سواه ، قال : أترى أنه ذكي إلى هذا الحد ؟ قالت : نعم ، بل أذكي من كل من عرفت في حياتي حتى أنت يا سيرانو ؛ فاغببط سيرانو في نفسه اغبطة عظيماء ، ولكنه تظاهر بالبرم والاستياء وهز رأسه كالمرتاب وقال : ربما . قالت : ولقد بلغ من الذكاء والقطنة تلك المزلة التي يتكلم فيها المرء بأشياء غريبة مدهشة يظنها السامع لأول وهلة أنها لا شيء والحقيقة أنها كل شيء ، ولقد يضعف نور ذكائه أحياناً ويشرد ذهنه حتى يخيل إلى أنه عبي أو غبي ، ولكنه

متى عاد إلى نفسه صاغ بلباقة ومهارة تلك الجواهر البدعة التي لم أر مثلها في حياتي ، قال : وهل يحسن الكلام عن القلب ؟ قالت : إنه لا يقنع بالكلام عنه حتى يخلله تحليلاً دقيقاً ، قال : وما رأيك في كتابته ؟ قالت : إنه يكتب أحسن مما يتكلّم ، وكان أسلوبه الماء التمير المترافق على بياض الحصباء وما أجمل كلمته التي يقول : فيها « خذني من قلبي ما شئت فسيبني لي منه ما يكفيني » ألا ترى أنه معنى بديع ؟ قال : لا بأس به ، قالت : وأسمع هذه الجملة أيضاً وقل لي ما رأيك فيها ؟ : « إن كان لا بد لك من أن تخفظي بقلبي لديك فأغيرني قلبك بدلًا منه فإنني في حاجة إليه لاحتمال ما ألاقيه في سيلك من الآلام والأوجاع » فقال وهو يكاد يطير في نفسه فرحاً : إنه ينافس نفسه ، أحياناً يغالي وأحياناً يكون غير وفي ولا أدرى ماذا يريد بقلبه ! فتسللت روكسان وقالت : إنك تصايغني كثيراً يا سيرانو وما أحسبك إلا غيوراً ، فانتقض سيرانو وخيل إليه أنها قد ألت بسريرة نفسه فظل ناظراً إليها ذاهلاً لا يدرى ماذا يقول حتى قالت له : وكذلك أنت عشر الشعراء لا يطيق أحدكم أذ يسمع كلمة ثناء على رفيقه ، فهذا روعه وعلم أين ذهبت في حديثها : ثم قالت له : وأسمع هذه الجملة أيضاً فهي غاية الغايات في قوتها ومتانتها : « لو كان في استطاعتي أن أرسم قبلاي على صفحات قرطاسي لقرأت كتابي بشفتيك بدلًا من عينيك » ما رأيك في هذه أيضاً ؟ هل تستطيع أن تجد فيها مأخذًا ؟ قال : لا أنكر أنها جملة بدعة لولا ركرة في بعض أجزائها ، فاربد وجهها غيظاً وقالت له : إنك عنيد يا سيرانو ، فاسمع هذه القطعة أيضاً فهي خير من جميع ما مضى ، فقطّعها وقال لها : هل بلغ بك الاهتمام بأمره أن تستظهرني كلماته وتعيها في صدري ؟

قالت : نعم ، قال ما يطبع كاتب من الكتاب في منزلة أعظم من هذه يا سيدني ، قالت : إنه نابعة عظيم ما في ذلك ريب . فاحمر وجهه خجلاً كأنما خيل إليه أنها قد ألمت بسريرة قلبه وإنها إنما تعنيه بكلامها ، وقال : إنك تغاليين يا روكسان .

ولنهمما لكتلك إذ أقبلت الوصيفة مسرعة وقالت : قد جاء الكونت دي جيش ، فاضطربت روكسان وقالت لسيرانو : لا أجب أن يراك هذا الرجل عندي فأنت صديق كريستيان وأنحاف إن راك هنا أن يدرك سر غرامي فيفجعني فيه ، فادخل المنزل ولا تظهر له حتى ينصرف لشأنه ، قال : سأفعل كل ما يرضيك يا روكسان ؛ ودخل المنزل ودخلت الوصيفة وبقية الخدم ورائعه .

دهاء المرأة

أقبل الكونت دي جيش فرأى روكسان واقفة وحدها في مكانها فانحنى بين يديها وحياتها وقال لها : قد جئتكم اليوم يا سيدتي مودعاً وربما كان الوداع الأخير ؟ قالت : أمسافر أنت ؟ قال : نعم قد صدر الأمر إلى الجيش بالسفر إلى « أراس » بعد بضع ساعات لتخلصها من يد العدو ويظهر لي أن نبا سفري لم يؤثر عليك أقل تأثير ؟ قالت لا تظن ذلك يا سيدتي الكونت ، قال أما أنا فإني حزين لفراقك حزناً شديداً ولا أدرى ما الله صانع بي بعد اليوم ؟ هل كتب لي في لوح مقاديره أن أراك مرة أخرى ، أم هو الفراق الدائم الذي لا لقاء من بعده ؟ وأطرق برأسه حزيناً مكتشاً ثم قال لها : وهل علمت أن الملك قد عهد إليّ أمس ببرиاسة أركان حرب الجيش ؟ قالت : ما كنت أعلم بذلك من قبل ، وإنه لنجاح باهر يا سيدتي الكونت ؛ الله درك ،

قال : أي أني أصبحت صاحب السلطان المطلق على الجيش بأجمعه بعد القائد العام ، وفي استطاعتي أن أنتقم لنفسي في ميدان المعركة من جميع أعدائي وخصوصي خصوصاً ذلك الرجل الواقع الجريء ابن عمك سيرانو وأن أحاسبه حساباً غير يسير على جرائمه وآثامه . فذعرت روكسان وخفق قلبها خفقاً شديداً لا خوفاً على سيرانو بل على كريستيان ؟ لأنها فهمت من كلامه أن فرقة شبان الحرس ستتسافر مع بقية فرق الجيش . فقالت له : أتدهب فرقة شبان الحرس إلى الحرب ؟ قال : نعم كما تتسافر جميع الفرق ، فاصفر وجهها وتحاذلت أعضاؤها ومدّت يدها إلى المقعد فاعتمدت عليه وهي تقول بصوت خافت متهدّف : آه يا كريستيان ! فعجب الكونت لأمرها وسألها ما بالها ؟ قالت إن هذا السفر يحزنني جداً خصوصاً عندما أتصور أن الشخص الذي يهuni أمره أكثر من كل إنسان في العالم يخوض تلك المعاشرة الممتهلة التي يرفف عليها طائر الموت ، ولا أعلم هل أراه بعد اليوم أم هذا آخر العهد به فافتر شعره وتهلل وجهه بشراً وبحوراً وخجل إليه أنها إنما بكلامها وأنه هو الشخص الذي يشغلها ويعينها والذي تخشى عليه أن تلم به تلك الكارثة العظمى فقال لها : ما كنت أعلم يا روكسان قبل اليوم أنك تصرين لي في نفسك هذا الحب كله ، فصمتت لحظة ثم التفت إليه وقالت : وهل أنت مصمم على الانتقام من سيرانو ؟ قال : نعم إلا إذا كنت تكرهين ذلك ، قالت : لا بل لا أريد غير ذلك . قال : هذا ما أعتقده ، ثم قال : ألا يزال هذا الرجل مختلفاً إلى منزلك حتى اليوم ؟ قالت : لا ، إنه لا يزورني إلا نادراً جداً ، وليته لا يفعل ، ولو لا صلة القرابة التي بيني وبينه ما أذنته بزيارتي ؟ قال : قد حدثوني عنه أنه منصرف في هذه الأيام إلى مرافقه

جندي نبيل من، جنود الحرس الطارئين ويقولون إنه لا يكاد يفارقه ليله ولا نهاره ؛ قالت : ومن هو هذا الجندي النبيل ؟ قال : قد نسيت اسمه الآن ، وهو كما وصفوه لي في طوبل القامة مشرق الوجه أصفر الشعر تلوح على محياه مخاليل الفز والتعمة وتلمع في صفة وجهه بارقة خفيفة من الجمال ، ولكنه غبي بليد ، ولا أفهم حتى الآن ما هي الصلة التي بينهما !

فصمت روكسان صمتاً طويلاً ذهبت نفسها فيه كل مذهب ، ثم التفتت إليه بغتة ، وقالت له ، وهي تبسم ابتسامة غريبة لا يفهم معناها إلا من فهم سريرة المرأة واضططلع بغرائزها وسجاياها : أتظن يا سيدى الكونت أنك تكون قد انتقمت لنفسك منه إذا عرضته لنار الحرب التي يحبها ويعبدها ، ولا يقترب شيئاً سوى أن يصطلي بها ويخوض غمارها ؟ هذه هي المرأة الأولى التي رأيتك فيها تنظر في أمر من الأمور نظر الغرارة والسداجة ! قال : آه لقد فاتني أن أتنبه إلى ذلك فما العمل ؟ قالت : عاقبه بحرمانه من أمنيته التي يتمناها ، فذلك أقتل له من القتل وأنكى له من الموت ، فليسافر الجيش بأجمعه وليختلف هو وحده بل تتخلف معه فرقته جميعها ، فإنها كما علمت مؤلفة من أشرار متربدين يذهبون مذهبها في أخلاقه وطباعه ويساعدونه في كل جرائمه وأثامه ، ولتكن حجتك في ذلك إن شئت : إن باريس في حاجة إلى فرقة من الجيش تختلف فيها للدفاع عنها وقت الحاجة ، وأنك قد اخترت لها هذه الفرقة للدفاع عنها ، وهكذا يموت الرجل هماً وكماً وتتفرق أحشاؤه غيظاً وحنقاً ويغرب نجم شهرته غروباً لا طلوع له بعده ، فيصبح بطل الطرق والشوارع ، لا بطل الحروب والمعاصي .

فابهجم الكونت ولعنت أسارير وجهه ووضع يده على كتفها
وقال لها : لله درك يا سيدى ، لقد صدق من قال : « لا يحسن
الانتقام من الرجل مثل المرأة » .

ثم حنا عليها وقال لها : إذن أنت تحييني يا روكسان ؟ .
فنظرت إليه نظرة باسمة متألقة وأطرقت برأسها ، ولم تقل شيئاً ،
ففسر ابتسامتها التفسير الذي أراده ، وابتسامة المرأة لفظ مشترك
يمتحمل جميع المعاني وضروبها من الحب القاتل إلى البعض العميق ،
ثم قال لها : ذلك ما كنت أقدرها يا روكسان مذ عرفتك حتى اليوم
فلم يخطئ ظني ، ثم أخرج من جيبه كتاباً مغلفة معنونة بعنوان
فرق الجيش فأمر نظره عليها إمراراً حتى عثر بكتاب فرقة شبان
الحرس ففصله عن بقية الكتب ووضعه في صدره ، وهو يقول :
ما أشد دهاءك يا روكسان ، وما أوسع حيلتك ! نعم إن مزاج
الرجل حربي متوجّد فلا يقتله ولا يفت في عصده ، ولا يلصق
أنفه بالر GAM غير حرمانه ميدان الحرب وتركه في شوارع باريس
يتسکع فيها تسکع العاطلين المتبلدين ، ثم نظر إليها باسماً ، وقال
لها : لهذا شأنك دائمًا يا روكسان أن تكيلني للناس أمثال هذه
المكائد ؟ فابتسمت وقالت : لا ، بل لا أفعل ذلك إلا عند الضرورة .

فأطرق برأسه وصمت صمتاً طويلاً ، وقد أخذت شفتها
تحتجاج وترتجفان كأنما تحدها نفسه بشيء يحاول أن يقوله لها فلا
يستطيعه ، ثم شجع ، وقال : بقيت لي كلمة أحب أن أقولها
لك يا سيدى فهل تسمحين لي بها ؟ قالت : قل ما تشاء فأنا
مصنوعة إليك ، قال : إنني أحبيتك يا روكسان من عهد بعيد
كما تعلمين ، وكان كل أمني في حياتي أن أعيش بجانبك عيش
القانع بك عن جميع متع الحياة ولذا ذهبت فحالت بيني وبينك

الحوائل التي تعلمينها ، وقد كنت أظن أنني سلوتك وغمنت عنك بغيرك ونفدت يدي أبداً الدهر منك ، ثم ما لبشت أن علمت أنني واهم فيما ظنت ، وأن ذلك الداء القديم لا يزال كامناً بين أحشاء ضلوعي فسمح في نظري وجه الحياة ومر في فمي مذاقها وأصبحت حائراً فلما لا يهدأ لي روع ولا يستقر بي مضجع . ولا أدرى حين أراك وأرى ابتساماتك اللامعة المضيئة ونظراتك العذبة الجميلة هل تصيرين لي في قلبك من الحب مثل ما أضمر ؟ أو أنها المصانعة والمحاجلة ومجازاة الود بالود والرجاء بالتأمين ؟ وما زال هذا الشك يساورني ليلي ونهارياً حتى رأيت الآن بعيوني تلك الرجفة الشديدة التي سرت في أعضائك عندما ابأتك نبأ سفري ، فلعلمت أنك تحبيني وما كشف أسرار الحب ، ولا هتك السر عن مخابئه ومكامنه مواقف الوداع .

وها أنذا الآن على وشك السفر ولا أعلم هل هو فراق وشيك أم هو السفر الدائم الذي لا رجعة من بعده ؟ فأسألك أن تزودني بقليل من الزاد أستعين به على مشقة السفر ووحشة الطريق ، حتى إذا دنت الساعة الأخيرة تمثل صورته في ذهني فهانت علي آلام الموت ؛ فإن سمعت به فائذني لي أن أختلف الليلة عن السفر مع الجيش على أن لا تطلع شمس الغد حتى أكون قد امتنعت جوادي ولحقت به في المكان الذي وصل إليه .

فارتخت روكسان ، وقالت : ولكن ماذا يقول الناس إذا رأوا رئيس أركان حرب الجيش قد تختلف عن جيشه وبقي في باريس لغرض من أغراضه الغرامية ؟

قال : ذلك ما لم يفتني النظر فيه والحقيقة له ، يوجد بالقرب من هذا المكان دير في شارع أورليان أسسه رئيس الكابوشان

«الأب أثanas» وله قانون غريب يقضي بأن لا يطأ أرضه أحد من الناس سوى رهبانه وقساوسته ، وأنا وإن لم أكن راهباً ولا فسيساً ، ولكنني صهر الكرديناز ريشيليه رئيس الكهنوت الأعظم ، ولا شك أن الذين يخافونه ويخشون صولته لا يستطيعون أن يرفضوا نزولي بديرهم ببعض ساعات بل ليس في استطاعتهم إن أردت أن يمتنعوا عن أن يخبطوني تحت قلائsemهم أو في ثياب السهم أو فروج أكمامهم لأنها واسعة جداً لا تضيق بمثلي ! وهذا أبداً ذاuber الآن إلى ذلك الدير المقدس لأكمان فيه ببعض ساعات حتى إذا انتصف الليل لبست قناعي وجئت متذكرًا في جنح الظلام فلا يشعر أحد بعمدتي ، ولا منصرفي .

فاستطير عقل روكسان وجن جنونها ودهمها من الأمر ما لا تعرف وجه الحيلة فيه ، ولا طريق المخرج منه ، ثم ما لبست أن رجعت إلى نفسها وملكت زمام عواطفها ، وقالت له بهدوء وسكون : إن مجده وعظمتك يا مولاي يأبيان عليك ذلك الإباء كله ، ولئن استطعت أن تكائم الناس أمرك فإنك لا تستطيع أن تكاهن نفسك أو تخادع فيه ضميرك .

إن فرنسا تطالبك بطرد العدو عن أرضها واستنفاذها من يده القاهرة المسيطرة ، فليكن هذا هو كل ما تفك فيه ، ولا يشغلك عنه شاغل من شهوات نفسك ولذائذها ، ولا تسمح لأحد من الناس أن يتحدث عنك ، لا بل لا تسمح لنفسك أن تخاسبك على ليلة قضيتها لا هي ناعماً في بيت امرأة تحبها و «آراس» باكية حزينة تضطرب بين يدي قاهرها اضطراب الحمامات الوديعه في مخالب الصقر البارح وتصرخ صرخات مؤلمات أنت أول يا مولاي من يسمعها ويضطرب شعوره لها .

سر يا سيدى على رأس جيشك ، وكن نجمه الذي يهتدى
به في ظلماته وملجأه الذي يأوى إليه في شدته ، واعلم أنك لن
 تستطيع أن تنزل منزلة الحب والكرامة في نفوس الذين يحبونك
 إلا إذا كانت فرنسا أحب إليك منهم ، بل من نفسك التي بين
 جنبيك .

فاستخرى لكلماتها وتضعضع وقال لها : إذن أنت تحبيني
 يا روكسان ؟ قالت : كيف لا أحب من صميم فوادي من خلق
 قابي خفة الحزن والألم جزعاً لفراقه وإشفاقاً على حياته ؟
 فصاح : واطرباه وأفرحتاه سأنزل على حكمك في كل ما تريدين
 وسأسفر الساعة طوعاً لأمرك فاذكريني دائماً ولا تنسيني ،
 قالت : لا أستطيع أن أنساك قط ، فتناول يدها وقبلها وانحنى
 بين يديها وانصرف .

وكانت روجينا وصيفة روكسان مختبئة وراء سارية الشرفة
 تسمع حديثهما وتفهم معناه ، فما أبعد الكونت إلا قليلاً حتى
 برزت من خبيثها وهي تغرب في الضحل وتقول : ما أشد
 حزني لحزنك يا سيدتي ! فضحكـت روـكسـان وـقـالتـ لهاـ : اكتـميـ
 كل شيء عن سيرـانـو فإـنهـ لاـ يـغـترـ بـ ليـ أـبـ الدـهـرـ حـرمـانـيـ إـلـيـاهـ
 منـ الـحـرـبـ فـوارـحـمـتـاهـ لهـ ؟ـ ثـمـ هـتـفتـ بـهـ فـخـرـجـ منـ المـنـزلـ وـهـوـ
 يـقـولـ :ـ ماـ أـكـثـرـ الـدـيـنـ يـحـبـونـكـ ياـ روـكـسانـ !ـ قـالـتـ :ـ نـعـمـ وـلـكـنـيـ
 لاـ أـحـبـ إـلـاـ وـاحـدـاـ مـنـهـمـ ،ـ ثـمـ قـالـتـ لـهـ :ـ قـدـ دـعـيـتـ الـلـيـلـةـ إـلـىـ هـذـاـ
 المـنـزلـ (ـوـأـشـارـتـ إـلـىـ مـنـزـلـ «ـكـلـومـيرـ»ـ الـمـقـابـلـ لـمـزـهـاـ)ـ لـسـمـاعـ
 المحـاضـرـةـ الـيـاـقـيـهـاـ «ـالـكـانـدـرـ»ـ عـنـ الـحـبـ (ـ)ـ فـأـذـنـ لـيـ بـالـذـهـابـ

(١) كان من شأن الكثير من النساء المتعلمات الشريفات في فرنسا في أوائل القرن
 السابع عشر أن يعتدن في منازلهن مجالس عامة أدبية تجري فيها المذاكرات العلمية -

وابق أنت هنا ؛ فإذا جاء كريستيان فقل له يتضرني حتى أعود ،
 قال : سأفعل إن شاء الله ، ولكنك لم تخبرني كعاتك في أي
 موضوع من مواضيع الحب تحيين أن يتحدث كريستيان الليلة
 إليك ؟ قالت : لقد كان حديثنا بالأمس عن « موقف الوداع »
 فليكن حديثنا الليلة عن « النزرة الأولى » لا بل عن « الغيرة »
 لا بل عن « الأمل الصياغ » لا ، بل اتركه على سجيته لا تحدد
 له موضوعاً خاصاً حتى لا يستعد . فإني أريد أن أختبر بديهته
 كما اختبرت روبيه من قبل ، فقل له يحدني عن « الحب »
 وكفى ، ثم حيته وانصرفت وتبعتها وصيفتها .

وكان كريستيان مقبلاً في تلك اللحظة فسمع آخر كلماتها
 فقال : ما الرأي يا سيرانو ؟ قال : عد بنا إلى المنزل لما ذكره

= والفنية ونلقى فيها المحاضرات . وكانت تلك المجالس أو « الصالونات » كما
 كانوا يسمونها تضم بين حواشيها رجال الفضل والأدب ومشاهير الشراء والكتاب
 من علماء فرنسا . وكانت المحادثات التي تدور فيها تغلب عليها صفة التحذلق والتأنق
 والتظريف وهو أمر طبيعي في كل مجتمع يجمع بين الرجال والنساء فتشأت مع الأيام
 بين هؤلاء النساء لغة خاصة في الأحاديث والمكابيات منشؤها رغبة المتكلمات أو
 المكابيات في إيجاد عبارات لبقة طريفة تلفت النظر إلى المماليق التي يردد التعبير عنها
 أو بعبارة أخرى تلفت الرجل إلى حاطن ورقطن ، ثم مازلن يفرق في ذلك حتى
 أصبحت تلك اللغة موضع سخرية الأباء والناقدينخصوصاً عندما جاء دور الاحتطاط
 الأخلاقى وانتشار الفوضى في المهنات الاجتماعية وتقليل نساء الطبقات الدنيا نساء
 الطبقات العليا في شائعتها وأساليبهن وزعمهن أنهن الحق في الإشراف على الأديبات
 في فرنسا وتقدها وتحميصها . تلك الطائفة من النساء هي التي يصورها وينتقدوها
 « إدمون روتستان » في هذه الرواية كما انتقدوها من قبله كثيرون من الكتاب والروائيين
 كمولير وبوالو . ومع أن تلك اللادة قد زالت وانقرضت ومررت عليها القرون فلا
 يزال باقياً منها حتى اليوم بعض آثارها مثل « سميك الذكاء » و « طلمسة النفس »
 و « قسوة الكلمات » و « الدستور المترافق » وأمثال ذلك من الكلمات الطارئة في
 جو الميدان والسباحة في بحر الانهائية .

الدرس الجديد وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تكون قد فرغنا وعدنا قبل عودتها ، فصمت كرستيان هنيهة ثم رفع رأسه وقال : لا ، لا أريد الليلة دروساً ولا مذاكرة فإني أذوب شوقاً لرؤيتها ، قال : ولكنك لا تعرف كيف تخاذلها ! قال : دعني وشأني فقد شببت عن الطوق وتجاوزت تلك السن التي يعجز فيها المرء عن أن ينطق إلا بما يلقنه إياه أبواه وأظاره ^{١١} فقال : إنك تخاطر بنفسك مخاطرة عظمى ، قال : فليكن ما أراد الله فقد استحييت من نفسي لكتيرة ما مثاث من هذا الدور الشأن المعيب دور الآلة الموسيقية التي يوقع عليها ضاربها فتبعت منها نغماتها المطربة دون أن تشعر بنفسها وبما ينبعث منها ؛ على أنني قد استفدت من دروسك الماضية ما يسمح لي بمحادتها ومذاكرتها والإفاضة معها في كل شأن من الشؤون التي أريدها ؛ وما أنا بغي إلى الدرجة التي تتصورها فسأكلمها بنفسها وسأشرح لها جميع عواطفي التي تختلج في صدري ، وما أحسبها تطالبني بأكثر من ذلك ؟ قال : هل أنت على ثقة من نفسك ؟ قال : كييفما كان الأمر فقد تجاوزت الصلة التي بيني وبينها حد النراiture والوسائل إلى الحب الخالص المتبين الذي تغترف معه المفروات ، وتستحيل فيه السينات إلى حسنات ، ولئن عجزت عن أن أحدهما بلساني فسأحدلها بلسان القبلات والثممات .

وهنا سمع صوت روكسان ، وهي خارجة من منزل « كلومير » في جمع عظيم من النساء ، فقال سيرانو لكرستيان : قد فات الأوان فأذن لي بالذهب ؟ فذعر كرستيان واستطير عقله ، وقال : بل أبقى معك يا صديقي ؟ قال : لا ، فقد أصبحت

(١) جمع ، ظئر وهي المرض .

غنياً بنفسك عنِي . وتركه وانصرف .

ولكنه لم يبعِد إلا قليلاً حتى عاد متسللاً من حيث لا يشعر به أحد واختباً وراء حائط الحديقة يتسمع حديثهما .

الشرف

قالت روكسان لكريستيان ، وقد جلسا معاً على المقعد الرخامي في وسط الساحة : لم أدرك من المعاشرة الغرامية التي أقيمت في متزل « كلومير » إلا اختامها ، فلم أستفد منها شيئاً فحدثني أنت عن الحب وأطلق لنفسك العنوان فيه ما شئت ؛وها هو الليل قد أظلتنا بسكونه وهدوئه ،وها هي باريس قد أوت جميعاً إلى مضجعها فتحدث فاني مصغية إليك ؛ فارتاح كريستيان ارتاح فطالب الضعيف في موقف الامتحان ، ولكنه لم ير له بدأً من أن يتكلّم ، فاثنى إليها ، وقال لها : أحبك يا روكسان ، وصمت فقالت له : وأنا أحبك أيضاً يا كريستيان ثم ماذا ؟ فلم يفتح الله عليه بكلمة أخرى فعاد إلى نعمته الأولى ، وقال لها : أحبك يا روكسان جماً جماً . وسكت ، فقالت له : هذا هو النسيج فوشة وطرزه . فازداد ارتباكه واضطرباته ، وقال : آه ما أشد حبي لك يا روكسان ، قالت : ما شككت في ذلك قط ! ولكنني أريد أن تقول لي كيف تجني ؟ قال : أحبك جماً ما أحبه أحد من قبلِ أحداً ، قالت : صور لي عواطفك وشعورك ، قال : ليتك تفصحين لي في قلبك من الحب مثل ما أضمر لك ، قالت : إنك تقدم لي من البن مخيضه ، وأنا لا أريد إلا زبدته ، قل كيف تجني ؟ قال : أحبك جماً يعجز لساني عن التعبير عنه لأنه فوق طاقتى ؟ قالت : ولكنني أريد أن تعبر لي عنه وأن تلمس

بيدك أوتار قلبي وتملك عليّ عواطفي وشعوري ، قال : آه
 لو استطعت أن أثشم حيدك الفضي الجميل . فجزعت والخرفت
 عنه قليلاً وقالت : كريستيان ، إنك قد جئتني ، قال : ما أنسوني
 إلى لثمة من فيك أبترد بها غليلي ، فنهضت قائمة وقالت : إنك
 تصايرني الليلة كثيراً يا سيدتي ! وأرادت الذهاب فأمسك يثوبيها ،
 وقال عفواً يا روكسان ، فان ذنبي عظيم ، وما زال يضرع إليها
 بنظراته المنكسرة حتى هدأت وجلست ، فقال لها : آه لو تعلمين
 كم أحبك ، قالت : لهذا كل ما عندك ؟ وأرادت التهوض مرة
 أخرى ، فأمسك بيدها ، وقد طار صوابه والتاث عليه أمره وظل
 يقول لها : لا ، لا تغضبي يا روكسان فاني لا أحبك ، فضحكـت
 وقالت له : ذلك خير لي ، فانتبه إلى هفوته وقال : لا تصديـقـي
 ما قلت لك فاني أردت أن أقول لك : إني لا أحبك فقط بل
 أعبدك وأدين بك ؛ فتململـتـ وقالـتـ : لقد ضاق صدرـيـ ،
 قالـ : أـعـتـرـفـ لكـ بـأـنـ قدـ أـصـبـحـتـ بـلـيـداـ لـأـفـهـمـ شـيـئـاـ .ـ قـالـتـ :ـ
 ذلكـ ماـ يـحـزـنـيـ كـثـيرـاـ فالـبـلـادـةـ عـنـديـ وـالـدـمـامـةـ سـوـاءـ ،ـ فـاذـهـبـ
 الآـنـ وـاجـمـعـ شـتـاتـ ذـهـنـكـ ثـمـ عـدـ إـلـىـ الـلـيـلـةـ الـآـتـيـةـ ،ـ وـنـهـضـتـ
 قـائـمـةـ فـتـشـبـثـ بـهـاـ وـقـالـ :ـ اـنـتـظـرـيـ قـلـيـلاـ فـانـيـ سـأـقـولـ لـكـ شـيـئـاـ
 جـمـيلـاـ ،ـ اـنـتـظـرـيـ ياـ روـكـسـانـ فـانـيـ أـرـيدـ أـقـولـ لـكـ ...ـ فـقاـطـعـتـهـ
 وـقـالـتـ :ـ تـرـىـدـ أـنـ تـقـولـ لـيـ :ـ إـنـكـ تـجـبـيـ وـتـعـدـنـيـ وـتـوـتـ وـجـداـ
 بـيـ ،ـ فـلـقـدـ عـرـفـتـ ذـكـ كـلـهـ وـلـاـ أـرـيدـ أـنـ أـسـمـعـ مـنـهـ شـيـئـاـ ،ـ فـاذـهـبـ
 لـشـائـكـ فـقـدـ خـصـقـتـ بـكـ ذـرـعاـ .ـ

ثم تركته ودخلت المنزل فجن جنونه وظل واقفاً مكانه يحرق
 ويتبينـظـ ،ـ وـيـقـولـ :ـ آهـ ذـكـ مـاـ كـنـتـ أـخـافـهـ ،ـ أـينـ أـنـتـ يـاـ سـيـرـانـوـ ؟ـ
 فـماـ أـتـمـ كـلـمـتـهـ حـتـىـ رـأـيـ سـيـرـانـوـ مـقـبـلاـ عـلـيـهـ يـبـسـمـ اـبـتسـامـةـ الـمـتـهـكـمـ
 وـيـقـولـ لـهـ :ـ أـهـنـتـكـ بـالـنـجـاحـ الـعـظـيمـ الـذـيـ أـحـرـزـتـهـ يـاـ كـرـيـستـيانـ ،ـ

فانتفض وقال : أنت هنا ؟ ثم برأسى بين ذراعيه ، وقال الرحمة يا صديهي فاني أكاد أموت غماً ، قال : وما الحيلة بعد الذي كان ؟ لقد انقضى كل شيء فلا سبيل إلى الرجوع ، قال إن لم تر لي الساعة رأياً قتلت نفسي ، إني لا أستطيع أن أنصرف من هنا وهي واجدة عليّ ، فارحمني واتخذها عندي يدًا لا أنساها لك مدى الدهر ، فصمت سيرانو وهو يعالج في نفسه ألمًا مضًا لا تستشف مكانه من أعماق قلبه غير عين واحدة هي عين الله تعالى ، ثم قال له : ها هو الظلام حالك لا يلمع فيه نجم ، وما هي الطريق مقدرة لا يطرقها طارق ، فاستمع لما ألقى عليك ، فاستطير كريستيان فرحاً وتناول يده فقبلها وقال : آه يا سيدي يخيل إليّ أنك قد رأيت لي رأياً ، قال نعم : إن ثبتت بما أمرك به ، قال : ما عصيت لك أمراً قبل اليوم ، قف هنا أمام الشرفة وسأقف أنا من تحتها على قيد خطوة منك من حيث تراك روكسان ولا تراني ، ثم نادها ، فإذا أشرفت عليك فسألتنك همساً ما يجب أن تقوله لها .

وإنهما كذلك إذ أقبل الغلامان الموسيقيان اللذان كان أرسلهما سيرانو لازعاج مونفلوري في مرقه فقال لهما : أفعلتما ما أمرتكما به ؟ قالا : نعم مازلنا نضرب اللحن المضطرب المشوش زمان طويلا حتى طاش عقله وجن جنونه فأظل من النافذة وظل يشتمنا ويسبنا ويستعدى رجال الشرطة علينا حتى انصرفنا ، قال : أحسستما فارجعا الآن وقفوا على رأس هذا الشارع ، ول يكن كل منكمما وراء سارية من سواريه وراقبا الطريق فإذا رأيتما سواداً مقبلا فاضربا لحناً قصيراً ، فقالا له : أي نوع من الأخان تريد أن تضرب ؟ قال : اضربوا لحناً عزناً إن كان القادم رجلاً ، ومفرحاً إن كان امرأة ، فعاد الغلامان أدراجهما ووقفا حيث

أمرها ، ودفع سيرانو كريستيان وأقامه أمام الشرفة ووقف هو من تحتها على مقربة منه وقال له : نادها وأخفض صوتك ، ما استطعت ، فاتجه كريستيان إلى النافذة ونادي : روكسان ! روكسان ! فما لبثت أن فتحت الباب الموصل إلى الشرفة وخرجت إليها وقالت : من يناديني ؟ قال : أنا ، قالت : ومن « أنا » قال كريستيان ، قالت : ماذا ت يريد ؟ قال : أريد أن أكلمك . قالت : ذلك مستحيل لأنك لا تحسن الكلام ، قال : أصرع إليك ، قالت : إنك لا تحييني ، ولو كان في قلبك ذرة واحدة من الحب لأحسنت الكلام فيه . قال — وسيرانو يلقنه — يا الله ! إنها تتهمني بأنني قد سلوكتها في الساعة التي أتجزع فيها كأس الموت وجداً بها ، وكانت قد همت بالدخول فاستوقفتها هذه الكلمة وقالت : كيف تحييني ؟ قال : قد اتخذ طفل الحب من نفسي الجائحة المضطربة أرجوحة لينة يلهو فيها ويلعب وينمو ويتزرع حتى إذا شب وأيقع ويبلغ أشد عقها وغدر بها وجازها شر الجزاء على صنيعها وقسما عليها القسوة التي يقصوها الطفل على عصفوره الضعيف المسكين ، فأصاغت إليه وشعرت أن في حديثه روحًا جديدة لم تكن فيه من قبل ، فقالت له : ولم لم تخنته في مهده قبل أن يشب ويتزرع ؟ قال : ما كنت أستطيع ذلك لأنه ولد جباراً قوياً متنمراً حتى أنه استطاع وهو لا يزال يلعب في أرجوحته أن يصارع شيطان الكبرياء في حتى صرעה وألقاه جثة حامدة بين يديه ، فاتكأت روكسان على حافة شرفتها ، وقد أطربتها هذه النسمة الجديدة وقالت : ما أشد سواد هذا الظلام إبني لا أتبين موقفك جيداً يا كريستيان ولكنني أشعر أن كلامك ينير لي مكانك فتكلم فائق تطربني كثيراً ، ولكن مالي أرى نغمة حديثك تصدر عنك متقطعة كأنما قد أصبت بالنقرس في

مخيلتك ، وكان عهدي بك قبل الآن طلق اللسان متدققاً كالسيل المنهمر ، فذعر سيرانو وخف أن ينكشف الأمر فجذب كريستيان إلى ما تحت الشرفة ووقف هو في مكانه وانشق إلية وأسر في أذنه قد أصبح الموقف حرجاً جداً فأصرمت أنت وسأكلم أنا عنك بصوت يشبه صوتك ، ثم أنشأ يجيب روكسان على سؤالها مقلداً صوت كريستيان ويقول : ذلك لأن كلماتي تخبط في هذا الظلام الحالك أبناء صعودها باحثة عن أذنك الصغيرة جداً فلا يستقيم مسيرها ، قالت : ولم لا تضطرب كلماتي في هبوطها اضطراب كلماتك في عروجها ؟ قال : لأنها تصدر إلى قلبي مباشرة وقلبي رحب واسع فلا تضل طريقها ، على أن كلماتي صاعدة وكلماتك منحدرة والتزول أسهل من الصعود ، قالت : ما أبدع هذا المعنى ! وينبئ إليّ الآن أن كلماتك قد انتظم مسيرها فانها تصل إلى أذني بأسرع من ذي قبل ، قال : ذلك لأنها أفت هذه الحركة وحذفتها^(١) ؛ فأصرمت لحظة ثم دارت بعينيها في الفضاء وقالت :حقيقة لأنني أتكلم من علو شاهق . قال : إذن فاحتسرى فان كلمة واحدة قاسية تلقيتها عليّ من موقفك هذا كافية لقتلي ؛ فاستضحكـت وقالت : لا تخـف يا كريستيان فاني آتـية إليـك لأـحدثـك وجـهاً لـوجهـ ، لا تـفعـلي ؛ بل اـبـقـيـ فيـ مـكـانـكـ ، قـالـتـ : لـماـذـاـ ؟ قـالـ : لأنـ هـذـاـ المـوـقـفـ جـمـيـلـ جـدـاـ يـعـجـبـنـيـ وـيـطـرـبـنـيـ ، فـلـتـحـدـثـ كـمـاـ نـخـنـ كـأـنـاـ رـوـحـانـ هـامـتـانـ فـيـ أـجـواـزـ الـفـضـاءـ تـفـتـشـ كـلـ مـنـهـمـاـ عـنـ صـاحـبـتهاـ فـلـاـ تـكـادـ تـعـشـرـ بـهـاـ ، دـعـيـتـاـ نـتـحـدـثـ كـمـاـ نـخـنـ وـيـبـتـنـاـ هـذـاـ الـمـوـجـ الـتـلاـطـمـ منـ الدـجـنـةـ الـحـالـكـةـ ، لـاـ تـرـيـنـ مـنـ الـأـسـوـادـ مـعـطـفـيـ الـمـسـبـلـ عـلـيـ

(١) يصور المؤلف في هذه المحاورة قشقاوة ذلك المسر وتحالقهن في أحاديثهن ومحوارهن وتمسكنهن بهذا النوع من الكلام المتكلف المتعامل الذي نفست عليه الأساليب الحديثة فيها بمهـ.

ولا أرى منك إلا بياض ثوبك الصيفي فأنت تمثيلن الكوكب الساطع في سمائه ، وأنا أمثل الظلام المخيم على سطح الغراء .

إن هذا الموقف الشعري الجميل في هذه الساعة الساكنة من الليل أعظم الفضل في صفاء ذهني واتعاش نفسي ويقظة قلبي وانطلاق لساني من حبسه وجموده ، فكوني كما أنت ، ولأكـنـ كما أنا ، لا تشعرين مني بغير خفقان قلبي ، ولا أشعر منكـ بـغـيرـ أـشـعـةـ جـمـالـكـ ، أـنـاجـيـكـ كـأـنـيـ أـنـاجـيـ اللهـ فيـ عـلـيـاءـ سـمـائـهـ وـتـصـبـغـينـ إـلـىـ مـنـاجـاتـيـ إـصـغـاءـ الـمـلـائـكـةـ الـأـبـرـارـ إـلـىـ أـنـاتـ الـبـائـسـ وزـفـراـتـهمـ عـلـىـ ظـهـرـ الـأـرـضـ .

وكان قد غلبه الموقف على أمره واستلهاه حسنها وجمالها واستغرق في شعوره ووجданه فتبين أنه يتكلم بلسان غيره فأطلق لنفسه عنانها ؛ وأصبح يحدّثها بنغمة غريبة لا هي نغمته ولا هي نغمة كريستيان بل نغمة النفس الوالمة المعدبة المتألمة ، فنالت من نفسها منلاً عظيمًا وقالت : إنك تحدثني الآن يا كريستيان بلهجة غير هجتك الأولى ؛ حتى ليخيل إليّ أنك قد تبدل من نفسك نفساً آخر غيرها ، قال : نعم لأنّ كلامي قبل الآن لم يكن صادراً من أعماق قلبي لأنني أنا كنت أحدثك بلسان ... وكان ي يريد أن يقول : «كريستيان» فاستدرك هفوته وقال : بلسان الدهشة والخيرة والاضطراب الذي يلم بكل من يحروه على أن يقف موقفه هذا بين يديك ، أما الآن فنفسي هادئة وجاشي ساكن وروحي مطمئنة حتى ليخيل إليّ أنني أنا أجلك للمرة الأولى في حياتي ، قالت : صدقت ويخيل إليّ أنا أيضاً أنك تتكلم بصوت غير صوتك الأول . قال : نعم ، لأنني استطعت في هذا السكون السائد والظلم الحالك ، الذي يمحبني عن العيون أن أكون أنا

نفسه وأن أناجيك من طريقي لا من طريق ... وأراد أن يقول «غيري» فشعر بهفوته وحاول أن يصلحها فلم يستطع فلعله وتجلجح فقالت له : طريق من؟ قال : عفواً يا روكسان إن شرد لي وأضطررت جناني بين يديك ، فقد سحرني وملك على عقلي هذا الموقف الجديد ، الذي لم أفقه مرة في حياتي ، فعجبت لأمره وقالت : : جديد؟ قال : نعم جديد ، لانه أول موقف استطعت فيه أن أكون صريحاً في كلامي ، حراً في أفكاري ، جريئاً في حديثي ، أطلق العنان لنفسي فتهم وتبثث حيث شاء ، لا يحول بينها وبين الغاية التي تريدها حائل ، قالت : وهل لم يكن ذلك شأنك من قبل؟ قال : لا ، لأن خوفي من هزلك بي وسخريتك مني كان يزعجي جداً ويملاً قلبي رعباً وخوفاً ، فدهشت وقالت : سخريتي ! ولماذا؟ قال : تسخرين من تطرفي واندفاعي وتبسطي في الإفضاء بمحنة نفسي فقد كان قلبي دائماً متسرلاً بسر بال عقلي والعقل سر بال ضاغط لا يطيقه القلب ، وكانت كلما همت أن أترك السبيل لعواطفي أن تقيسن وتناسب حيث شاء أدركتني الحياة والتجهل فتلومت واحتشرمت ووقفت دون الغاية التي أريدها ، ولا ألبث أن أتطلع إلى الكوكب الثاني في سمائه وأخطر الخطوات الأولى إلية لتناوله واستنزاله من فلكه حتى أشرع بالتجهل من نفسي فأعود أدراجي قائعاً من حظي بزهرة صغيرة أجدها في طريقي من زهارات حديقة السماء فأقتطفها ، قالت : إن الزهرة جميلة أحياناً ، قال : ولكنني لا أريدها الليلة ولا أقنع بها ، قالت : إنك ما كلامتني قط يا كريستيان بمثل هذه اللهجة البسيطة التي تكلمني بها الآن ، قال : نعم ، وليتنا نستطيع دائماً أن نختصر في مواقف الحب توافق الأشياء وحثاثتها وأن نترك التأني والتجمل في صلاتنا وعلاقتنا ونطلق العنان لأنفسنا لتعبر عن مشاعرها وعواطفها ،

بالصورة التي تريدها بدلًا من أن تقييدها بتلك القيود الثقيلة التي تحبسها في محبس ضيق لا سبيل لها إلى التفلت منه.

فلنطرح بعيداً عنّا هذه الكأس الذهبية الصغيرة ، التي نتعاطى بها شرابنا قطرة قطرة فلا نكاد نشعر بذلك ما نتعاطاه ولنتدفع معًا إلى ذلك الغدير المترع المتذبذب فنجثو على صفتة ونكرع من مائه العذب حتى نرتوي .

البلاغة

قالت : ولكنني أحب البلاغة يا كريستيان ؛ قال : إنني أجل هذا الليل الساكن المادي وهذا الموقف الجليل المهيّب وهذه النفحات العطرية المترقرقة ، وهذه القبة الجوفاء المرصعة بمصابيحها اللامعة ، أن أهينها بهذه الشيء الذي يسمونه البلاغة أو أن يكون حديثي معك بتلك اللغة التي يتكلّم بها العشاق الكاذبون في رسائلهم الغرامية ، فلتنجح في توجيه إلينا ضمائرك ، لا بما توجه إلينا دواوين الشعراء ورسائل الكتاب ، ولننهلم تلك الحواجز المادية القائمة بين نفسينا ، حتى تتلامسا وتماسا وتستحيلنا إلى نفس واحدة ، فإني أخشى إن نحن ظللنا نشتغل زمنا طويلاً بهذه التجارب الكيميائية أن تتبخر عواطفنا وتتلاشى في أجواز القضاء ، وأن يكون فيما نظنه كل شيء القضاء على كل شيء .

قالت : ولكن البلاغة جميلة جدًا ، قال : وأنا أكرهها في الحب ، وأرى أن من أكبر الجرائم وأفظعها أن نشتغل عن أنفسنا ومطارح آمالنا ، ومسارح عواطفنا ، بإدارة هذه المعركة اللغوية التي لا طائل تحتها ، وأن تكون تلك المحاولات التي لا فائدة

منها هي غاية مقصودنا من الحب ومتى أملنا منه والثمرة الأخيرة التي نجنيها من حياتنا.

إنما ما اجتمعنا هنا لنرى كيف نتحدث ، بل لنتحدث وننتاج ، وما وقفنا هذا الموقف الجليل المهيء ، بين أحضان هذه الطبيعة الخلوة العذبة ، لنشتغل بتهذيب اللغة وابتكار الأساليب واحتراع المعاني ، ولا ليقول كل منا لصاحبه ما أبلغك ، وما أسمى خيالك ، وما أبدع تصوراتك وأفكارك ، ولا لنتدارس البلاغة وأصولها وقوانينها ، ولا لنتحدى الشعراء والكتاب في أساليبهم ومناهجهم ، بل ليسكب كل منا نفسه في نفس صاحبه فإذا هما في نفس واحدة تشعران بشعور واحد وتحسان إحساساً واحداً ، حتى لو استطعنا أن نصل إلى هذه الغاية ونحن ساكتون لا نتكلم ولا نتبين بمعرف واحد ، فعلنا .

هذه هي البلاغة وهذه هي حقيقتها ، أما الإغراء في التخيل والبالغة في الوصف وخلق الصور والأساليب التي لا وجود لها في الخارج ، ولا أساس لها في الذهن ، وابتكار المعاني الغريبة التي تبعث شرارتها من شعلة الذكاء ولا تنفجر من ينبع القلب فهي وإن كانت جميلة محبوبة تستلهي الخاطر وتستوقف الناظر ، ولكنها ليست من البلاغة في شيء .

نريد أن نترك السبيل لنفسينا أن تتحادثا وتنتجيا كما شاعتا وأن لا تنخفض عليهما نجواهما وسرهما بهذه الضوضاء اللغوية التي نثيرها من حولهما .

نريد أن نفارق هذا العالم المملوء بالأكاذيب والأباطيل ، والصور والتهاويل إلى أفق طاهر نقى ، صاف متفرق ، تتساشف

فيه وتتراءى ويتحدث كل منا إلى صاحبه بلغة تشبه في جمالها وحسنها ، ربساطتها وطهارتها ، ورقها وعذوبتها ذلك الأفق الجميل الذي نسبح فيه ونطير في أجواه ، فيكون مثلنا مثل الكوكبين المائين في أجواز الفضاء يتحادثان بلسان الضوء ويتناجيان بلغة الأثير .

قالت : وماذا تقولا ، لي لو أردت أن تحدثني بتلك اللغة ؟
قال : ألقى إليك بكل ما يخطر ببالك من الكلمات مبعثراً غير منتظم ولا مرتب ، كما تتناثر أوراق الزهر عن أغصانها فأقول لك مثلاً :

أحبك يا روكسان حب العابد معبوده ، لا أستطيع أن أصبر عنك لحظة واحدة ، أصبحت على وشك الجنون بك وربما أكون قد جئت من حيث لا أدري ، كأن قلبي معبد وكأن اسمك ناقوسه ، فإذا وقع نظري عليك ارتعدت وارتجفت ، فرن اسمك في قلبي رنين الناقوس في المعبد ، قد احتلت فيك فوق ما يستطيع أن يتحمله البشر ، فما شكوت ولا تالمت ، أحبيت فيك كل شيء ، أحبيت فيك حتى كبرياءك ، وأحبيت من أجلك حتى شقائي ، يخيل إليّ أن الشمس على جدار قصرك أجمل منها على جدران القصور الأخرى ؛ وأن الروض الذي تخطرين فيه أبدع رياض الدنيا والآخرة ، لا أستطيع أن أنساك أو أنسى حالة من حالاتك أو حركة من حركاتك مهما طال عليهما الزمن ، رأيتك صباح الأحد الماضي ، وأنت خارجة من بيتك وقد غيرت نظام شعرك الذي أعرفه لك ، فأصبح لاماً متألقاً يدور بوجهك دورة الحالة بالقمر ، فبهرني هذا المنظر وارتسم في شبكة عيني ، فأصبحت أراه في كل ما يقع عليه نظري من المنظورات كما يرى الناظر

إلى ضوء الشمس هالة يضاء في كل ما يتناوله بصره من الأشياء ،
وسمعتك منذ أيام تضحكين ، فما غرد طائر على فن ، ولا
رنت قطرات الغيث على صفحات الماء ، ولا مرت النسائم بين
خمائل الأشجار إلا خيل إلى "أني أسمع رنين تلك الضحكة
في كل ما أسمع من هذه الألحان .

وهنا اضطربت روكسان ، واشتد خفوق قلبها ، وقالت
بصوت خافت متهدج : «نعم هذا هو الحب» .

قال : نعم هو الحب الذي غالب قلبي حتى غلبه واتخذه اسيراً
عنه وهو حب شرس غير قادر على ذلك حرارة ، وأنه على ذلك
متواضع بسيط خال من الأثرة وحب النفس . لأنني لا أستطيع
أن أخلص لنفسي يا روكسان كما أخلص لك ، لأنني في سبيل
هذا أجد بهنائي كله ، وإن لم تشعري بذلك ، حسي من
الدنيا أن أسمع من بعيد رنين ضحكتك ، فأعلم أنك سعيدة
مغبطة ، وأن ما ضحيت به لك من سعادتي وهنائي كان هو السبب
في هناء عيشك وراحة نفسك ، كل نظرة من نظراتك تثير في
فصيلة جديدة ، كانت كامنة بين أطواء قلبي لا أهتمي إلى مكانها ،
وتثبت في نفسي خلق الشجاعة والإقدام ، مما أخاف إن كنت
راضية عنِّي ؟ وبم أغرب إن كنت ساخطة عليَّ ؟ وهل الدنيا
شيء سواك في إقبالها وإدبارها ؟ .

قالت : ما أعدب كلامك يا كرستيان ! إن قلبي يتحقق له
خفقاً شديداً .

قال : أرأيت الآن كيف أن الكلمات الصادرة من القلب
بلا تكلف ولا تصنع لا يستطيع حائل أن يحول بينها وبين قلب

سامعها ! ألا تلمسين بيديك نفسى الحزينة وهي صاعدة إليك في هذا الظلام الحالك ؟ ألا تسمعين خفقان قلبي وهو يرن في جوف هذا الليل البهيم ؟ آه ما أحل هذه الساعة وما أجملها ، إنها الساعة الوحيدة التي ذقت فيها حلاوة السمر والمناجاة ، ما كنت أصدق أن أقف يوماً من الأيام هنا الموقف العظيم بين يديك : أتكلم وتسمعين ، وأبلغك ما في نفسى وتنصتى ، ولم يبق لي من أرب في الحياة بعد اليوم ، فليأت الموت إليّ فقد بلغت جميع أمانى وأمالى ، ها هي يدك ترتجف الآن من تأثير كلماتي كما ترجمف الورقة الخضراء بين النسماط المتناوحة ؛ ولقد نَمَ غصن الياسمين الذى تمسكين فقد مشت فيه تلك الرجفة حتى وصلت إلى يدي ؛ ثم انحنى على طرف الغصن الذى في يده فلشه فى صمت وسكون .

فقالت روكسان : نعم إننى أرتجف وأبكي ، وما بلغ امرؤ مني في حياته ما بلغت مني ، ولقد سحرني حديثك وملك علىّ لبى حتى أصبحت أشعر أننى قد أصبحت ملك يدك وأن لا شأن لي في أمر نفسى .

قال : فليأت الموت إليّ إذن فقد بلغت من حياتي ما كنت أرجو وأتمنى ولينهي ، إننى أنا الذى قدمت إليك يدي تلك الكأس التى أسكرك وأخذت بليلك فلم يبق لي ما أتمناه غير شيء واحد ، قالت : ما هو ؟ .

وهنا نطق كريستيان ، وهو في مكانه تحت الشرفة بعد هذا الصمت الطويل وقال : « قبلة » ؛ فذعر سيرانو وقال له بصوت خافت : لقد تسرعت في الطلب ؛ قال : لا ، إنها الآن ذاهلة مسحورة ، فلا تهتز هذه الفرصة التي لا تؤتىني في كل حين ، فقالت روكسان : ماذا قلت ! فقال كريستيان : « أريد قبلة » ،

فوكزه سيرانو برجله وقال : اسكت يا كرستيان . فسمعت روکسان كلمته فقالت له : مع من تتحدث ! وهل كرستيان شخص سواك ؟ قال : أتحدث مع نفسى : اسكت يا كرستيان ، فحسبك منها أنها أصحت إليك . وسمعت صوت قلبك وأذرفت من أجلك دموعها الغالية ، فلا تطمع فيما وراء ذلك .

وهنا رن صوت قيثاري الغلامين من بعيد فقال سيرانو : ادخلني الآن يا روکسان فإني أسمع صوت قادم ، ثم عودي إليّ بعد قليل ، فدخلت روکسان غرفتها وأغلقت باب نافذتها وأصغى سيرانو إلى الصوت فسمع في آن واحد لحنين مختلفين لحناً مفرحاً وآخر عززاً ، فقال : يا للعجب ! إن القادر ليس برجل ولا امرأة ، فلا بد أن يكون قسيساً ، وما أتم كلمته حتى أقبل قسيس شيخ وبيهه مصابح ضئيل يجعل يمر بأبواب المنازل بباباً باباً ويدني مصابحه ليتبينها ، كأنه يفتح عن منزل يقصده ، فتقدم نحوه سيرانو وقال له : إنك تعبد لنا أيها الشيخ عهد ديوجين^(١) فهل تفتح عن الرجل ؟ قال : لا بل عن المرأة ، إني أفتح عن منزل السيدة مادلين روبان الشهيرة بروکسان ، فأنبرى له كرستيان وهو يقول في نفسه : إن الرجل يضايقنا في مثل هذه الساعة ، ولما ننته من أمر «القبلة» ، وأمسك بيده وأشار له إلى جهة بعيدة ، وقال له : هناك أيها الشيخ هناك ، فسر أمامك ، لا تعطف يمنة ولا يسرا حتى تجد المنزل الذي تريده ، فشكر له الشيخ فضله وعاد أدراجه ، فقال كرستيان لسيرانو : لا أستطيع أن أشرح هذا المكان ، حتى أثال القبلة التي أريدها ، قال : لا تعجل يا

(١) هو الفيلسوف اليوناني المشهور وكان يحمل في يده مصابحاً ليه ونهاره فسأله بعض الناس مرة عن يفتح عن ! فقال : أفتح عن الرجل .

صديقي فستوافيكم سريعاً تلك اللحظة السحرية العجيبة لحظة الذهول والاستغراق التي شملان فيها بخمرة الحب وتذهبان فيها عن نفسكم ، فإذا شفتا كما ذاهبتان وحدهما كل منها إلى صاحبها حتى تتلامسا ، وصمتت لحظة ثم قال في نفسه : ما دامت تلك اللحظة آتية لا ريب فيها ، فخير لي أن أكون صاحب الفضل فيها ، ثم قال له : نادها يا كرستيان فستان منها القبلة التي تريدها ، فنادها ففتحت النافذة وخرجت إلى الشرفة وهي تقول : أباً أنت يا كرستيان حتى الآن ! فقال سيرانو : لقد جاء هنا الساعة كاهن شيخ يسأل عن منزلك فلم تعجبني زيارته في مثل هذا الوقت ، فأضليلته عن الطريق وأظن أن في يده كتاباً ، فذعرت روكسان واضطربت خافة أن يكون الكونت دي جيش قد أخلف وعده وتختلف عن السفر واحتيا في الدبر وأن يكون هذا الكائن رسوله ، ولكنها ما لبثت أن سرت في نفسها وأنساها موقف الغرام كل شيء عداه وقالت : أظن أنها كانت تتكلم عن ... وتلعم لسانها فقال سيرانو : عن « القبلة » ، ومالك لا تجسرن على النطق بها كأنها تحرق شفتيك ، فإذا كان هذا شأنك مع لفظها فكيف يكون شأنك مع معناها ، تجلدي يا روكسان ، ولا تخزعني فلقد تحولت منذ هنئية من الدعابة إلى الإضطراب ، ومنه إلى التلقان ، ومنه إلى التنهد ، ومنه إلى البكاء ، وليس بين الدمع والقبلة إلا رجمة .

القبلة

فارتعدت روكسان وقالت : لا أمنحك إياها حتى تصفها لي ، قال : هي الميثاق الذي يعطي عن قرب ، والوعد الصادق الذي لا ريبة فيه ، والاعتراف بالحقيقة الواقعة ، والنقطة المرقومة

تحت باء الحب ، والسر العميق الذي يصل إلى القلب من طريق الفم ، واللحظة الأبدية التي يقصر زمنها وتذوم حلاوتها ، واتفاق الخاطرين على معنى واحد ، والطريق المختصر لاستنشاق رائحة القلب وتذوق طعم النفس على الشفاه ؟ لها دوي التحل في صوتها ، ومذاق العسل في حلاوتها ، وعبر الأزهار في رائحتها .

فاضطررت روكسان وقالت : حسبي يا كرستيان ؛ فقال : إن القبلة شريقة يا سيدتي ، حتى إن ملكة فرنسا لم تدخل بها على نبيل من نبلاء الإنكليز وكلاهما شريف عظيم ، قالت : اسكت ولا ترد : قال : أنت الملكة التي أعبدها ، وأدين لها أكثر مما دانت فرنسا ملكتها ، وأنا اللورد بوكانجهام في صدقه وإخلاصه وألمه وحزنه ، قالت : وفي جماله أيضاً ، فانقض سيرانو وشعر بوخزة الألم في قلبه وقال : نعم في جماله ، ولقد كنت لذلك ناسياً ، فقالت له : أصعد إليها السعيد المجدود لاقتاف تلك الزهرة التي لا نظير لها ، فأخذ سيرانو بيده كرستيان وقال له بصوت خافت : أصعد وتناول القبلة التي تريدها ، فجبن وتلماً وقال : ما أشد خجلني وحيائي ، قال : أصعد إليها الحيران وتناول القبلة التي لا يستحقها منها غير شفتيل الورديتين ، ثم دفعه بيده فتسلى أغصان الياسمين ، حتى بلغ مكان روكسان على الشرفة فألفت رأسها الجميل على عاتقه ، فاحتضنها إليه ورسم على شفتيها تلك القبلة التي لها دوي التحل في صوتها ومذاق العسل في حلاوتها وعبر الأزهار في رائحتها ، وسيرانو واضح بيده على قلبه يتلوى في مكانه تلوّي الملسم ويتأنّه آهات خفيات مضمرات ، ولكنه ما لبث أن ارعنى وتجمل وبدأ إلى سلوته التي اعتاد أن يلجمها إليها كلما عظمت آلامه وهمومه ، وأخذ يعزى نفسه ويقول :

يا مأدبة الحب العظيمة التي أنا صاحبها ومحبها ؛ هنيئاً للذين
يلوون طعامك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون كتوسك ؛ أما
أنا فحسبي منك هذا الفتات الذي يناثر عليّ من مائدتك فإن
روكسان لا تقبل شفي شفي كريستيان ، بل تقبل عليها كلماتي
التي ألقيتها في أذنها وسحرتها بها .

وهنا رن صوت قيثاري الغلامين بلحنين مختلفين : لحن مفرح
وآخر محزن ؛ فسألت روكسان : ما هذا ؟ فقال لها كريستيان :
لعله سيرانو يتمشى في الطريق مع غلاميه الموسيقيين ، فانقلب
سيرانو من تحت الشرفة إلى موقف الغلامين فحدثهما قليلاً ثم
أشار إليهما بالانصراف ومشى يترنح في مشيته كأنه شرب ثمل
ويتغنى ببعض الألحان كأنه قادم الساعة ، فما وقع نظره على كريستيان
حتى تظاهر بالدهشة وقال له : أباً أنت هنا يا كريستيان حتى
الآن ؟ فقال له بصوت عال تسمعه روكسان : نعم أحدث روكسان
وتحدى وإلى أين أنت ذاهب ؟ قال : لقد مللت هذين الغلامين
وسئمت ألحانهما وتعبت من طول المسير فزمنت على الرواح
إلى المنزل ، فأشرفت عليه روكسان عندما سمعت صوته وقالت
له : انتظري يا سيرانو فإني قادمة إليك ، وأقفلت باب الشرفة ،
وفي هذه اللحظة أقبل الكاهن بمصاحبه وهو يحدث نفسه ويقول :
ما زلت على رأبي الأول فإن المنزل هنا في هذا الميدان .

وهنا ظهرت روكسان على عتبة بابها يتبعها كريستيان وراجنو ،
فلما رأت الكاهن ذعرت وااضطررت فتقدم نحوها وحياتها ومد
يده إليها بكتاب . فقالت له : ما هذا ؟ قال : كتاب يعني به
إليك السيد الصالح التقى الكونت دي جيشن صهر سيدنا ومولانا
صاحب القداسة الكردينا دير القديس « أتاناس »

ولا بد أن يكون مشتملاً على غرض من الأغراض الشريفة المقدمة
أو مكرمة من المكارم العليا فاقرئيه ؛ فتناولته وقرأت فيه على
مصالح راجنو وهي صامة هذه الكلمات :

سيدي :

الطلبول تدق وقد أعد الجيش عدته لارجيل ، والجميع يظلون
أني في مقدمته ولكنني تحلفت وعصيت أمرك لأنني لم أستطيع السفر
دون أن أتزود منك بذلك الزاد القليل الذي سألك إياه . فاغتراري
لي ذنبي فإنني ما أذنبت إلا في سبيلك وهذا أنا ذا قادم إليك
بعد قليل ، فمهدي لي سبيل زيارتك ، إن شغرك قد ابتسם لي
اليوم ابتساماً جميلاً ، ولا أحب أن أفارقك قبل أن أراه مرة
أخرى يبتسم لي تلك الابتسامة البديعة المؤثرة .

وقد بعثت إليك بكتابي هذا مع قسيس أبله لا يفهم من شؤون
الحياة شيئاً سوى إقامة الصلوات ، وتعزية المحاضرين ومبركة
المتزوجين ؛ فلا يعنيك من أمره شيء .

دي جيش

وهنا برقت عيناه ببارك غريب والتفت إلى الكاهن وقالت
له : اسمع يا أبا نص الكتاب فهو بثابة أمر صادر إليك ،
وأخذت تقرأ بصوت عال ما لا وجود له إلا في مخيلتها وتقول :

سيدي :

يجب عليك إطاعة أمر قداسة الكردينال ، وهو يأمرك أن
تزوجي الليلة سراً من البارون كريستيان دي نوفييت ، وأنا وإن
كنت أعلم أنك غير راضية عن هذا الزواج ، وأنك لا تخفين

هذا الفتى ، ولا تجدين في نفسك ارتياحاً لمعاشرته ، فإنني أرى لك أن تخضعي لأمر الكاهن الأعظم وتدعني لرغبته ، فالخير كل الخير فيما يراه ويشير به ؛ فاصبرني على قضاء الله وقدره ، وانتظري حسن المثوبة منه والجزاء الأولي .

وقد بعثت إليك بكاهن من أفضل الكهان وأتقاهم وأحفظهم للأسرار ليقوم بعقد هذا الزواج السري بينكما في منزلك ، فاقرئي عليه كتابي هذا وبلغيه أمري وكوني على ثقة من إخلاصي لك واحترامي الدائم لمقامك الكريم .

دي جيش

ثم طوت الكتاب ، وهي تتظاهر بالأسف والحزن وتقول : آه ما أسوأ حظي وأعظم شقائي ، ثم همست في أذن كريستيان قائلة له : ألا ترى أنني أحسن فراءة الرسائل ؟ قال : اسكنني فاني أكاد أموت فرحاً ، أما الكاهن فقد تهلل وجهه وانبسطت أساريره وظل يقول له : الله من سيد نبيل كريم ما خاب ظني فيه ، وفي حسن مقاصده وشرف أغراضه ، ثم رفع المصباح إلى وجه سيرانو وقال له : لعلك الزوج يا سيدي ؟ فامتنع لون سيرانو وأشاع بوجهه عنه فتقدم نحوه كريستيان وقال : لا .. بل أنا يا سيدي ، فأذنسى المصباح من وجهه فرأى وجهها جميلاً مشرقاً فضل يهز رأسه كالمرباب ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : يخيل إليّ يا سيدي أن مصيبيتك في هذا الزواج ليست عظيمة كما تتوهمن ؛ فارتعدت وخفق قلبها خفقاً شديداً مخافة أن يكون قد فهم شيئاً ، ثم ما لبثت أن عرفت وجه الحيلة في ذلك ففتحت الكتاب بلهفة وقالت : لقد فاتني يا أبنت أن أقرأ عليك الحاشية التي كتبها الكونت في كتابه ، وهي تتعلق بديركم المقدس فاستمعها ، وقرأت ما يأتني

« ويأمرك صاحب القداسة أيضاً أن تبرعي للدير من مالك الخاص عشرة آلاف فرنك ، فاتمرى بأمره وادخرها يدا عند الله صالحة » فتلاً وجه الكاهن واستطير فرحاً وسروراً ، ولم يبق لتلك الريبة التي خالجته أثر في نفسه ، وقال لها لا مناص لك يا بنيتي من الإذعان لأمر صاحب القداسة والله يتولاك برعايته ، فقالت : سأذهب لأمرك يا أبى ، ثم هتفت براجنو وأمرتة أن يمشي أمامهم بمصاحبه . ففعل فدخلوا المنزل جمياً وتراجعت روكسان قليلاً قبل دخولها ، فجذبت سيرانو من يده وأسرت في أذنه قائلة : أما أنت فابق هنا حتى يأتي الكونت فامنه من الدخول ودافعه بكل حيلة وترفق في الأمر ما استطعت حتى يتم عقد الزواج ، فقال : سأفعل ما يرضيك يا روكسان فكوني مطمئنة ، فتركته ولحقت بالقوم وبقي هو وحده يفكر في الطريقة التي يمنع بها الكونت من الدخول إذا جاء .

سياحة في التمر

وما هي إلا هنئة حتى رأى شبح الكونت مقبلاً من بعيد فخلع سيفه والتلف بمعطفه وأنزل قبته على عينيه وتساق شجرة الياسمين وكمن بين أغصانها ، وأقبل الكونت واضعاً على وجهه نقاباً أسود ، وهو يتلمس الطريق في هذا الظلام الحالك ويقول : ليت شعري أين ذهب ذلك الكاهن المنحوس وماذا صنع بالرسالة التي بعثته بها ؟ لا بد أن يكون قد بلغها إلى روكسان وانصرف لشأنه ، ولا بد أنها تنتظرني الساعة داخل المنزل .

واتجه جهة الباب ، فما دنا منه حتى سقط جسم عظيم بين يديه سقطة هائلة دوت بها جوانب الميدان كأنما هو هابط من علية

السماء فتأمله ، فإذا هو رجل متلعم ملثم فذعر وترابع وقال من هذا ؟ فتقدم نحوه سيرانو بخطوات بطيئة متناثلة ، وقال له بنغمة أشبه بنغمة الحال المستغرق : كم الساعة الآن ، أيها الإنسان ؟ فقال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل من سكان كوكب القمر سقطت منه من زمن لا أعلم مقداره ، هل هو يوم أو ساعة أو دقيقة أو عام أو أعوام ، لأن صدمة السقوط أذهلتني عن نفسي فلم أفق إلا هذه اللحظة ، ولا أعلم هل سقطت في كوكب الأرض أم في كوكب آخر غيره ، فقل لي أين أنا ، وفي أي عام ، وفي أي يوم ، وفي أي ساعة ؟ فعلم الكونت أنه مجنون أو ثمل ، فأراد ملائكته ومداورته ، فقال له : اسمح لي بالمرور أو لا وأخبرك فيما بعد عما تريده ، قال : يخيل إليّ أنك تظنين معتوها أو مخبولا ، فاعلم أنني لا أحدهنك عن خيال بل عن حقيقة لا ريب فيها ، وأنني قد سقطت من كوكب القمر سقوطاً اضطرارياً لم أملك فيه الخيار النفسي ، فظللت أخبط بين الكواكب والنجوم والمذنبات والشهب حتى وقعت في هذا المكان الذي أجده ، ولا أعلم أين موقعه من العالم ، ثم رفع نظره إلى وجه الكونت وصرخ صرخة هائلة فزع لها الرجل وترابع بعض خطوات وظل يسأله : ما بالك ، ما بالك ! فقال دلني سواد وجهك وظلمته على أنني قد سقطت في خط الاستواء بين قبائل الزوج ، فوأسفاه وواسوه حظاه ، فلمس الكونت وجهه بيده ، وكان قد ذهل عن نقابه فحسره عنه ، وقال له : لا تخف إنما هو نقاب أسود كنت أسلكه على وجهي البعض الأسباب الخاصة . فهذا سيرانو قليلا ، وقال له : عفواً يا سيدي ، إذا أنا في فينيسيا أو فيينا ^(١) فقتل لي في أي المدينتين أنا ؟ فضجع الكونت ، وقال له : سواء

(١) يشير إلى أن عادة النقاب كانت معروفة في هذين البلدين أكثر من غيرها .

أكنت في هذه ألم في تلك فدعني أمر فان إحدى السيدات تنتظرني ،
فقال : آه ! لقد فهمت الآن ، لا بد أن أكون في باريس بلد الوعود
والمقابلات والأسياد والسيدات فالحمد لله على ذلك ، ومد يده
إلى ردائه وظل يمسحه كأنما ينفض الغبار عنه ، ثم وقف متأدباً
وأخنى رأسه بين يديه ، وقال له : « اغفر لي يا سيدتي مقابلتي
لإياك بهذه الملابس الرثة المغبرة فقد كان سقوطي مع الزوجة
الأخيرة فانتشر غبار الأثير على ملابسي وامتلأت عيني بدرات
الضوء ، وعلقت بنعلي بعض ريشات من ريش التسر الطائر »
ثم مد يده إلى نعله كأنما يتناول ريشة عالقة بها وظل ينفعها في
الماء ، فازداد غيط الكونت وعظم ضجره ، وقال له : تتع
عن طريقي يا سيدتي ، فاني أريد الدخول ، وظل يدفعه أمامه
حتى بلغا الباب فترامي سيرانو على الأرض ومد ساقه في مدخل
الباب وكشف عنها وقال له : انظر يا سيدتي إلى ساقي لقد عضني
فيها « الدب الأكبر » عضة مؤلمة لا يزال أثراها باقية حتى الآن
ولقد وقع لي ذلك في الساعة التي كان يطاردني فيها « السمك
الرياحن » برعشه المثلث الأستة ، وما أفلت من مخالب الدب حتى
سقطت فوق حمة العقرب فلدغتني في ساق الثانية ، وانظر ما هو
أثراها ، ومد ساقه الثانية أيضاً فاستحال على الكونت المرور ،
ثم قال له : وأوكد لك يا سيدتي أنني لو عصرت أثني الآن لجري
منه سيل دافق يغير هذا الميدان جميعه ، أتدري لماذا ؟ قال :
لا ، قال : لأنني سقطت بعد ذلك في نهر « المجرة » فظلت أسبوع
فيه حتى أعياني الجهد ، ولو لا أن « الدب الأصغر » مد يده
إليه فأنقذني لما نجوت ، واعلم أنه لم يفعل ذلك تكرمة منه
وتفضلاً بل كان يريد أن يعذبني أيضاً كما عذبني أخوه من قبله
فعجز عن ذلك لأن أنسانه صغيرة جداً كأنها حب الكأس فاستطاعت

الإفلات منه وانحدرت إلى «القيثارة» فاخترمتها وعلقت يدي بوتر من أوتارها فانقطع وظل معي حتى الآن وسأريكه إذا أردت ، ومد يده إلى جيبيه كأنما يريد أن يخرج له ، ثم قال : لا لزوم لذلك الآن ، فقد عزمت على أن أُلْفِك كتاباً أسميه «سياحة في القمر»^(١) أدوان فيه هذه الرحلة جميعها وسأرصع دفتير بالشعب الصغيرة التي جمعتها في معطفى من غابات السماء .

فأشتد جزع الكونت وفقد صبره وقال له : ثم ماذا ؟ قال : أظن ألا تريد أن تعرف الآن شيئاً من أخبار سكان ذلك الكوكب الذي عشت فيه حقبة من الزمان ... فقاطعه الكونت وقال : لا ، لا أريد أن أعرف شيئاً قدعني أمر ، فإن بيبي وبين أصحاب هذا المنزل ميعاداً لا بد لي من الوفاء به ؛ قال : ولكنك وقد عرفت كيف نزلت من السماء لا بد لك أن تعرف كيف صعدت إليها ، لأنني صعدت إليها بطريقة عجيبة جداً أنا الذي اخترعتها وابتكرتها فلم أجيء إلى النسر البليدي كما فعل «رجيموننانوس» ولا إلى الحمامات الباهاء كما فعل «أركيتاس» وكان دي جيش مولعاً بعض الولع بعلم الفلك ، ولوغ الكثير من الأشراف والتبلاع الذين يزاولون بعض الفنون تحملها وتلهي دون أن يدركوا من أسرارها شيئاً . فقال في نفسه : إن الرجل وإن كان مجمنزاً فهو واسع الاطلاع غزير المادة . واستهواه حديثه فبدأ ينصب له واستمر سيرانو يقول :

ولم أقلد أحداً من الطيارين الذين سبقوني بل خطرت على يالي ست طرق لاختراق أطباق السموات ، لم تخطر على بال أحد من فحول علم الفلك ونوابغه ، فدهش الكونت وقال : ست طرق ؟

(١) اسم كتاب لسيرانو دي بريراك كما ورد في ترجمة حياته .

قال نعم ، هل تعدني أن تصفي إلّي حتى أسردها عليك جميعها ؟
قال : نعم أعدك بذلك فتكلّم وأوجز ، قال : تعال إذن معي
إلى هذا المقهى لنجلس عليه قليلا فقد انقض على جرجي الذي
في ساقى ؛ ثم جذبه من ردائه فأجلسه بجانبه وظل يقول له : ١

أوّلها : أن أتجبرد من ثيابي وأدير حول جسمي بضع قارورات
بلوريّة ملأى بقطر الندى ، ثم أقف تحت الشمس فتمد إلّي خيوط
أشعتها فتجذبني إلّيها ، كما هو شأنها في امتصاص الأبخرة والأندام
حين تشرق عليها .

وثانيها : أن أعمد إلى صندوق كبير ، فأفرغه من الهواء
بواسطة حرارة المرايا المضلع ، ثم أملأه بالأهوية المتصاعدة وأجلس
فيه فيصعد إلى العلا .

وثالثها : أن أصنع جرادة من الصلب ذات أذرع كبيرة
وأضع في جوفها باروداً ملتهباً ثم أمتطيها ؛ فكلما فرق البارود
اندفعت صاعدة في جو السماء .

ورابعها : أن أملأ « بالونا » بالدخان ، والدخان كما تعلم
يطلب العلا دائمًا فأركبه فيصعد في حيث أشاء .

وخامسها : أن أدهن نفسي بنخاع الثور ، فإذا دنا كوكب
« فيبيه » أي القمر من الأرض ، وهو كما تعلم مولع بامتصاص
هذا الدهن امتصني معه .

وسادسها : أن أركب لوحًا من الحديد ، وأمسك بيدي قطعة
من المغناطيس وأقذفها في الهواء ، والمغناطيس كما تعلم يجذب
الحديد ، فإذا سقطت تلقفتها ، وقذفتها مرة أخرى وهكذا حتى

أصل إلى غائيٍ .

فأعجب الكونت بذكائه وفطنته وقال له : حسبي ذلك
موايدن لي بالذهب ؟ وتأهب للقيام ، فانزعج سيرانو وتشبث
بردائه وقال له : ولكن فاتك يا سيدي أن تسألني عن الطريقة
التي اخترتها من بين تلك الطرق واعتمدت عليها في هذه الرحلة
القمرية ؟ قال : قل لي وأسرع . قال : لم أختر واحدة منها ،
بل اخترت طريقة سابعة هي أغرب الجميع وأعجبها ، قال :
قل ما هي وعجل ، قال : أراهن أنك لا تعرفها ولو فكرت
فيها ثلاثة أيام ؟ فضاق صدر الكونت وقال : أتعرف لك أني
عجز عن معرفتها ، فقل لي ما هي فقد ضفت بك ذرعاً ؟
وثار من مكانه غاضباً ، فوثب سيرانو واعتراض سبيله وقال له :
ها هي فاستمعها ، ثم مد ذراعيه إلى الأمام وظل يلوح بهما في
الماء كما يفعل السابح على سطح الماء ويقول : هو ، هو ، هو ،
فدهش الكونت وقال : ما هذا ؟ قال : الموج المتلاطم ، قال :
لا أنهم ما ت يريد ، قال : المد والجزر ، قال : لا أفهم شيئاً فقل
ماذا ت يريد ؟ قال : بما أني أعلم أن القمر هو السبب في حركة المد
والجزر فقد نمت على ضفة النهر ساعة المد حتى غمرني الماء ،
منتظراً ساعة الجزء ، وما هي إلا لحظة حتى دنا القمر من اللجة
فجذبها وجذبني معها ولم أزل صاعداً أخترق حجب السماء حجاباً
حتى .. ومد صوته بها طويلاً فقال له الكونت، بضمير شديد :
حتى ماذا ؟ وكان سيرانو قد سمع جلة القوم وهم مقبلون من
داخل المنزل فعلم أن الأمر قد انتهى ، فقال له : حتى تمت حفلة
القرآن ، وألقى عنه رداءه ورفع قبعته عن رأسه فظهر وجهه وفي
مقدمته ذلك الأنف الضخم العظيم ، فانتفض الكونت وقال :
سيرانو ! ثم التفت وراءه فرأى العروسين مقبلين في ملابس

عرسهما ، وأمامهما الشموع ووراءهما القسيس والخدم ، ففهم كل شيء وصالح : ماذا أرى ؟ يخلي إلى آني قد جئت ، وأخذ يدور بعينيه هبنا وهبنا كالذاهل المخبوط ثم مشى نحو روكسان فانحنى بين يديها وقال : الله درك يا سيدتي إنك من أمهر الماكرات ، ثم التفت إلى سيرانو وقال له :

أقدم إليك تهنيء أيها المخترع العظيم على تفوقك ونبوغك ، وسيكون مؤلفك الجليل أعظم مؤلف نافع للمجتمع ، ولا تنس أن ترصن دفتيره بتلك الشهب الذهبية التي صدتها في معطفك من غابات السماء ، قال : سأفعل إن شاء الله يا سيدتي وسأقدم الكتاب إليك تذكاراً لهذه المهزلة البدعة ؛ فأعرض عنه والتفت إلى القسيس وقال متوكلاً : لقد أدبت الرسالة أيها الشيخ أحسن تأدبة ذلك الشكر على ذلك ، فلم يفهم القسيس غرضه وقال له : لعلك راض عنني يا مولاي ؟ قال : نعم كل الرضا ، ثم أخذ يخطو في تلك الساعة خطوات واسعة سريعة ثم وقف ورفع رأسه بعزم وخياله ، وقد لبس وجهه تلك السحنة العسكرية القاسية ، ونظر إلى روكسان نظرة جامدة مخيفة وقال لها بصوت قاس شديد : ودعني زوجك يا سيدتي ، فذعرت واصفر لونها وقالت : لماذا ؟ قال : لأن فرقة الحرس ستتسافر الآن مع بقية فرق الجيش ، وأخرج من ثنایا قميصه ذلك الكتاب الذي كان قد فصله عن بقية الكتب منذ ساعة ونادي كرستيان بصوت هائل رنان ، فلما ووقف بين يديه فقال له : خذ هذا الكتاب وسلمه بنفسك إلى قائده فرقتك ، فقالت روكسان : ولكنك كنت وعدتني أن تتخلف هذه الفرقة ... فقاطعها وقال لها : قد غيرت رأيي عندما علمت أنك إنما كنت تكيدين لي لا لابن عمك سيرانو ؛ فصممت وقد نال من نفسها مثلاً شديداً ولاؤ قلبها حزناً وشجنًا ، إنها لم تك

تلمس بفمها شفة الكأس حتى انزعت من يدها ، ثم ترامت بين ذراعي زوجها ، وظلت تقبله وتبكي بكاء مرآ ، فضمها إلى صدره وظل يبكي ليكأنها فصاح الكونت : حسبكما ليلة الزفاف ولعلها قريبة جداً ، ثم تركهما وانصرف ليصدر بعض أوامره إلى الجيش وهو يرمي سيرانو بنظرات هائلة لو رمى بها أحداً غيره لصعق لها ، على أن سيرانو كان في شاغل عنه بما كان يعالجه في أعماق نفسه من الألم الممض عند روية تلك القبلات الجميلات المتبادلة بين هذين العاشقين الجميلين ، وظل يقول بينه وبين نفسه : يا له من سعيد ! ويا لي من شقي ! كلانا يحبها ، وكلانا يموت ويجداً بها ، ولكنه استطاع لأنه جميل أن يلشمها ويقبلها ، ولم أستطع لأنني دميم أن أنال منها شيئاً في حياتي ، أكثر من أن أقبل طرف الغصن الذي كانت واضعة يدها على طرفه الآخر من حيث لا تدري ، وهذا هو ذا الآن يضمهما إلى صدره ضمة الوداع ويتزود منها الزاد الذي يعينه على سفره الطويل وشقته البعيدة ، أما أنا فكل زادي منها هذه الذمة التي تترافق في عيني ولا أستطيع لإرسالها مخافة أن تراها .

وهنا دقت طبول الجيش مؤذنة بالرحيل فدنا منها سيرانو ، وقال لكريستيان : حسبك ذلك الآن فهيا بنا ، فلم يتبه كريستيان إليه واستمر في شأنه فظل يجذبه من يده ويقول : هيا بنا فقد دقت طبول الرحيل ، فقال : أمهلي قليلاً يا سيرانو فإنك لا تعلم ما يصنع الفراق بقلوب العاشقين ، قال : أعلم ذلك حق العلم فهيا بنا ، فالتفتت إليه روكسان وقالت له : إني أكل إليك أمره يا سيرانو فعدني ألا يهدد حياته شيء ، قال : سأجتهد إن شاء الله تعالى ، قالت : وعدي أن يكون حنراً متيقظاً ، قال : سأحاول ذلك ، قالت : وأن لا يتالم من البرد والصقيع في تلك الأجراء

الثلجية الباردة ، قال : سأفعل ما في وسعي ، قالت : وأن يكون
لي وفياً ملخصاً ، قال : أظنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك ،
قالت : وأن يكتب لي دائماً ، قال : أما هذه فأعدك بها .



الفصل الرابع

الميدان

بدأ الفجر يرسل أشعته الأولى إلى جوانب الميدان ، وكانت فرقة الحرس نائمة في سفح تل مرتفع يحميها ويحمي موقعها ، وكانت قد مرت على الجنود ثلاثة أيام لم يذوقوا طعاماً ، ولم يتبلغوا بشيء حتى ساءت حالتهم وشجبت أنواعهم ، وخارت قواهم ، فاستيقظ أحدهم وهو يتضور جوعاً ويقول : آه ما أشد ألمي ؟ فاستيقظ بعض رفاقه على صوت أنيبه وظلوا يتضورون مثله ، فشعر قائهم بحركتهم ، وكان واقفاً على قمة التل ليه كله يتولى حراسة الموقع بنفسه ؛ فانحدر إليهم وقلب نظره في وجههم ، ثم قال لهم : ناموا يا أولادي فالنهار لا يزال بعيداً ، فقال له أحدهم : وكيف لنا بالنوم وقد أطلق الجوع مضاجعنا وحال بيننا وبين الغمض ، فنكبس رأسه وصمت ، وقد أضمر بين جنبيه لوعة لا يعلم إلا الله مكانها من أحماق نفسه .

ولأنهم ل كذلك اذ سمعوا من ناحية العدو بعض طلقات نارية فشاروا جميعاً وابتدرروا سيفهم فجردواها من غمامتها فصاح فيهم « لبريه » : هدثوا روعكم يا إخواني والبشا في أماكنكم فإن سيرانو قد عاد من رحلته التي اعتاد أن يرحلها سحر كل ليلة وأظن أن الأعداء قد لمحوا شبحه من بعيد فأطلقوا عليه بعض المقدوفات وأرجو أن لا يكون قد أصابه منها شيء ، فسكن جأشهم وعادوا إلى مضاجعهم ، وما هي إلا هنئية حتى ظهر سيرانو

على قمة التل فهرع إليه صديقه لبريه متلهفاً ، وقال له ؛ هل جرحت ، قال : لا ، لأنهم يخظئونني دائماً ، قال : ولكنني أخاف عليك إن أخطأوك اليوم أن يصييوك غداً ، قال : وماذا أصنع ، وقد وعدتها عنه أن يكتب إليها كثيراً ، ولا بد لي من الوفاء بعهدي . قال : إنك لم تخبرني حتى الآن عن الطريقة التي اتخذتها للتنكر والتواري عن عيون الأعداء وأرصادهم ؛ قال : لقد اهتديت من زمن إلى مسلك خفي وراء هذا الجبل لا تناهه أنظارهم ولا تنتد إليه خواطيرهم ، فأنا أسلكه برفق وحذر حتى أصل إلى الموضع الذي أجد فيه من يتولى توصيل الكتاب إلى روكسان ، قال : إذن يمكنك أن تأتينا كل ليلة بشيء من القوت نسد به جوعتنا ؟ قال : ليتني أستطيع ذلك ، بل ليتني أستطيع أن أقوت نفسي ، إننا بحثنا هنا لنحاصر الأعداء في أراس فأصبحنا محصورين خارجها ، وقد أحاط بنا جيش العدو من كل جانب وأخذ علينا شعب الأرض فلا سبيل لنا إلى أي شيء حتى إلى القوت ، وأطرق برأسه هنีهة ، ثم قال : ولقد وقفت الليلة أثناء عودتي على حركة في جيش العدو هائلة جداً ، وينهض إلى أن الغد يحمل في طياته أعظم حادثة مرت بنا في هذا الميدان فإذا نجا الجيش الفرنسي من خالب الجوع أو هلك من أوله إلى آخره .

فاصفر وجه لبريه وقال له : قل لي ماذا رأيت ؟ قال : لا أستطيع لأنني لست على يقين ، فدعني وشأني وأستواعك الله ، قال : إلى أين ؟ قال : إلى خيمتي لأكتب إلى روكسان رسالة الغد ، وربما كانت الرسالة الأخيرة ، ثم مشى إلى خيمته ولبريه يتبعه بنظراته الحزينة الدامعة ، ويقول : وارحمتاه لك أنها الصديق المسكون .

الوطن

نشرت الشمس رايتها البيضاء في آفاق السماء ، فاستيقظ الجنود من نومهم يتلملون من الجوع ويربحون ضعفاً وإعياء فتقديم نحوهم قائدتهم وحاول أن يعزفهم ويهون عليهم آلامهم ، وهو إلى التعزية والتهور أحوج منهم ، فلم يأبهوا له وأخذوا يرمونه بنظرات السخط والغضب ، فأمرهم أن يتقدلوه أسلحتهم ويأخذوا أهبيتهم فأعرضوا عنه . ولم يخفلوا به ومشى بعضهم إلى بعض يتهامسون ويتغامزون ومرت بخاطرهم وجرت على أفواههم الكلمة « الثورة » ، وهي الكلمة المائلة التي تأتي دائمًا في ترتيب قاموس الحياة بعد الكلمة الجوع ، فانقض القائد واستطير رعباً وفزعًا ، وهرع إلى خيمة سيرانو فهتف به ، فلباه ، فقال له : أدرك الجنود يا سيرانو ، فقد نال منهم اليأس أو كاد ، حتى نطقوا بكلمة الثورة المخيفة ، فخرج إليهم سيرانو وأخذ ينطر بينهم خطوات هادئة مطمئنة ويسارقهم من حين إلى حين نظرات العتب والتأنيب ، حتى سكنوا وهدوا وغضوا أبصارهم حياء منه وخجلًا ، ثم أخذ يمازحهم ويداعبهم وينتفن في مذاكرتهم ومطابيقهم حتى سرى عنهم بعض ما بهم . فقال له أحدهم : أما في هموم الحياة وآلامها ما يشغلك عن الفكاهة يا سيرانو ؟ قال : لا ؛ ولو أن لامرئ أن يختار لنفسه الميزة التي يريد لها لاخترت لنفسي أن أموت في ليلة صافية الأديم متلاذة النجوم تحت قبة السماء بأجمل سلاح ، وهو السيف ، وفي أجمل بقعة . وهي الميدان . وأن يكون آخر ما أنطق به ملحمة لطيفة يتحرك بها فمي في الساعة التي يلمس فيها ذباب السيف قلبي .

ثم هتف « يابر اندو » فلباه جندي شيخ قد أوفى على الستين

من عمره فقال له : أخرج نايك من كيسك وغن هؤلاء الأطفال
 الشهرين تلك الأغنية الجاسكونية التي تذكرهم ببلادهم ومعاهدهم
 طفولتهم ومعانبي صباهم فأخذ الرجل يغنيها ويجيد في توقعها
 وسيرانو يغنى معه ، فأطرق الجنود بروُسهم ، وقد تمثلت لهم
 بلادهم كأنها حاضرة بين أيديهم يرون جبالها ووديانها وغاباتها
 وأحراشها ويرون الرعاع السمر بقلانسهم الحمراء يسوقون أمامهم
 قطعان البقر والأغنام والفتيات في أنواohen القصيرة حاملات جرارهن
 على رؤوسهن وهن ذاهبات إلى الغدران أو صادرات عنها فأخذت
 مدامعهم تنحدر على خلودهم فيمسحونها بأطراف أرديتهم في
 صمت وسكون .

فقال القائد لسيرانو : إنك تهيج أشجارهم وتستثير آلامهم
 بهذه الذكرى ، قال : فليكنوا وليتلّوا عليهم يتلهون قليلاً عن
 آلام الجوع التي يكابدونها ، وليت جميع آلامهم تنتقل من أمتعتهم
 إلى قلوبهم فيستريحوا ، قال : إني أخاف على حميتهم أن تفتر
 وتتضعضع ، قال : لا يخفى ذلك يا سيدى فإن بكائهم على
 وطنهم الصغير لا ينسفهم واجبهم لوطنه الكبير ؛ وإن أردت
 أن تكون على بيته من ذلك فاظر ماذا أصنع ، ثم أشار إشارة
 خفية إلى حامل الطبل أن يدق طبله دقة المجموع ففعل ، فانتقض
 الجنود من أماكنهم وثاروا إلى أسلحتهم يتقدّلونها فقال للقائد :
 انظر يا سيدى إلى هؤلاء الأطفال الباكيين كيف استحالوا في لحظة
 واحدة إلى ليوث كرواسر عندما سمعوا نداء وطنهم ، ثم التفت
 إليهم فهدا روّعهم وقال : لا عدّتكم فرنسا يا أبناء جاسكونيا .

ولهم كذلك إذ هتف الحارس القائم على رأس التل باسم
 الكونت دي جيش رئيس أركان الحرب ، فما سمع الجنود اسمه

حتى وجموا وامتعضوا وإنصر على وجوههم الألم والانقباض وأخذ بعضهم يقول لبعض : ما أنتقل ظليه ! ما أسمح وجهه ! إنه فاسد الذوق ، يلبس الشفوف الرقيقة فوق الدرع ويلبس الخناء اللامع في ميدان الحرب ، ما أكثر تغافله ! إنه لم ينفع في حياته إلا من طريق المداهنة ، حسبه أنه صهر ذلك الرجل الذي يأكل في اليوم أربع أكلات في الوقت الذي لا نكاد نظفر فيه بأكلة واحدة ، في الأربعة الأيام ، فانتهارهم قائلهم « كاربون دิ كاستل » وقد سمع حديثهم وقال لهم :

ولكن لا تنسوا أنه جاسكوني مثلكم ، فقال له أحدهم .
نعم ، ولكنك جاسكوني عاقل ، وما خلق الجاسكوني إلا ليكون مجانوناً ، فقال سيرانو : نصيحي إليكم يا إخوانني أن تتجلىوا أمامه وتكتمو في أعماق قتوسكم همومنكم وألامكم ولا تسحروا له بالشماتة بكم ، أما أنا فسأجلس هناك قليلاً على هذه الصخرة لاقرأ في كتاب « دي كارت » حتى ينصرف ذلك الرجل لشأنه .
فأسرعوا بمسح آثار الدموع من خلودهم واستداروا حلقات صغيرة وأخذوا يلعبون الورق ويتضاحكون كأنهم لا يشكرون همَا ولا أللَا ، فدخل الكونت دي جيش متوجه الوجه مكفر الجبين ، وكان قد سمع آخر حديثهم وقرأ على وجوههم ما بضرورون له من البغضان بين جوانبهم فصاح فيهم : لقد سمعت بأذني بعض ما تقولون أيها الأشقياء ، فعلمت أنكم لا تتركون فرصة تمر بكم دون أن تتناولونني بالستكم وتتناولون مني ، فتسووني تارة متسلقاً وأخرى منافقاً ، وتعيرون على حسن هندامي ونظافة ملبي ؛ كأنتم ترون أن الجاسكوني لا يكون صحيح النسب إلا إذا تصعلك وتشعر وأصبح من البائسين المفلوكيين .

وكان يتكلّم والجنود مقبلون على العابهم يتشاغلون بها كأنهم لا يسمعون ما يقول ، فقال لهم وهو يشير إلى قائدتهم : ولقد كنت أريد أن أمر قائدكم بمعاقبتكم ولكنني ... فقاطعه القائد وقال له : لو أذلك فعلت ذلك يا سيدى لما أذعنتم لأمرك ؟ فاصفر وجه الكونت وقال : لماذا ؟ قال : لأنني دفعت للقيادة العامة ضريبة الرياسة وهي تجعلنى صاحب السلطان المطلق على فرقى لا ينزعنى فيها منازع ولا أخضع فى أمرها لإرادة غير إرادتى ، وبعد فليس من الرأى أن يحاسب القائد جنوده على الحب والبغض والرضا والسخط ؛ أو أن يطلب إليهم شيئاً سوى الطاعة والإذعان لأوامره ونواهيه ، فوجم الكونت ولم يستطع أن يقول شيئاً ، ولكنه التفت إلى الجنود وقال لهم : إني أحترمكم جميعاً وأيها السفهاء الثرثرون وأحترم مطاعنكم ومخامزكم لأننى أعرف مكانة نفسي ، كما أن الناس جميعاً يعرفونها وأعلم أنى جندي شريف مقدم لا أبالي بالمخاطر التي تعرضنى في طريقي ، وقد رأيت جميعاً موقعي العظيم في «بابوم» الليلة الماضية وهجومي بنفسى ثلث مرات على رجال الكونت «دى بکوا» حتى أبلغتهم إلى المزيفة التي تعرفونها .

وكان سيرانو لا يزال مكتباً على كتابه يقرأ فيه فقال له وهو مطرق برأسه لا يرفعه : وما رأيك في وشاحك الأبيض يا سيدى ؟ قد هش الكونت واصفر وجهه وقال له : ومن أين لك علم بذلك ؟ نعم وقع لي ليلة أمس أنني بينما كنت أجول في أنحاء الإidan لأجمع رجالى استعداداً للهجوم الثالث إذ لاحت فصيلة صغيرة من فسائل جيش العدو تتقهقر على مقربة مني فطممت فيها واندفعت وراءها اندفاع اليائس المستقتل لا ألوى على شيء مما ورأى ، فما هو إلا أن أدركتها وأعملت سيفي في ساقتها حتى رأيتها بعد قليل

وسط خطوط جيش العدو الأكبر وإذا الخطر محقق بي من كل جانب ، فخففت الأسر لا من أجل نفسي بل من أجل الجيش الذي أقوده وأدير حركاته وكان الظلام حالكاً جداً فلا ينم على شيء سوى ردائي الأبيض فأسرعت بإلقائه إلى الأرض لاستطيع أن أتوارى عن عيون الأعداء فيخفى عليهم مكاني ، ثم انسلت من بينهم وغادرت صفوهم آمناً مطمئناً ، وما هو إلا أن بلغت مأميني حتى جمعت رجالى وكررت عليهم كرة هائلة فكانت الواقعة الثالثة التي أحرزنا فيها ذلك النصر العظيم ، فماذا تقولون في هذه الحيلة الفريدة؟ وكان الجنود لا يزالون مكبلين على ألعابهم لا يرفعون إليه أنظارهم ، يستمعون القصة وكأنهم لا يسمعونها حتى انتهى منها ، فامسكتوا عن اللعب وشخصوا بأبصارهم إلى سيرانو وليروا ماذا يقول ، فقال له : إن هنري الرابع يا سيدي ، ما كان يرضي لنفسه ، مهما كان الخطر المحقق به عظيماً ، أن يتنازل عن ريشته البيضاء لأعدائه .. ! فنهل الجنود فرحاً وانبسطت أساريرهم ، وعادوا إلى جلبيتهم وضوضائهم ، فقال له الكونت : ذلك لا يعنيني ، وإنما الذي يعنيني أنني قد حققت دمي ، واستبقيت حياتي لوطنى ، وسلبت من العدو يوماً كان يريد أن يدهه من أيام مجده وفخاره ، قال : أما الفكرة فبدعة جداً لا أرتتاب فيها ، ولكن الذي أعلمك أنه خندي ما خلق إلا ليموت ، فمن العار أن ينشر هذا الشرف بأي ثمن كان ، وأقسم لك يا سيدي أنني لو كنت باهراً معلك في تلك الساعة ما هان عليّ أن أرى وشأي الشام في يد أعدائك دون أذن أقاتل عنه ، حتى أفتديه ولو بحياتي . قال : قسم ضائع لا قيمة له لأنك لم تكن معنـى ، قال : بل كنت معلك يا سيدي ، وقاتلـتـ عن وشـاحـكـ حتى استنقـذـتهـ منـ يـدـ أـعـدـائـكـ وـهـاـ هـوـ ذـاـ ، ومـدـ يـدـهـ إـلـىـ جـيـهـ فـاسـتـجـرـجـ

منه الوشاح وألقى به بين يديه ، فاربد وجه الكونت وانتفض عيظاً وألقى على سيرانو وعلى الجنود نظرة شزراء ملتهبة وذل لهم : أتدرون ماذا أصنع الآن بهذا الوشاح ؟ قالوا : لا ، قال : سألوح به في الجو تلوينا لا يسركم ولا يهنوكم ، وصعد إلى التل ولوح به ثلاث مرات في الهواء والجنود يعجبون لأمره ولا يدرؤن ماذا يريد ثم نزل وهو يقول : أما وقد انقضى كل شيء فسأفضي إليكم بسر من أسرار الحرب ما زلت أكتمه في صدري حتى حان وقته فاستمعوه :

قد اتفقت منذ أيام مع جاسوس من جواسيس العدو على أن يكون عوناً لي على قومه فيما أريد ، وأن يكون مخلصاً لي مؤتمراً بأمري ... فقاطعه سيرانو وقال له : ولكنك تصطعن رجالاً خائناً يا مولاي ، قال : ومن تصطعن إن لم تصطعن الخائنين ؟ فهو يدلني على مقاتل قومه وعوراتهم وكامن أسرارهم من حيث لا يدفهم على شيء إلا على ما أريد أن يلهم عليه ، أي أنه يخدعهم ويضلهم من حيث يظنون أنه يتصحهم ويصدقهم وقد جمع قائدنا العام مجلسه الحربي صباح أمس ونظر في كارثة الجوع التي نزلت بنا ، فاستقر الرأي على أن يسفر هو بنفسه خلسة على رأس فرقتين من فرق الجيش إلى « أورلنس » ليجلب منها المؤونة والذخيرة فسافر من حيث لا يشعر العدو بمكانه وترك بقية الجيش هدفاً للهجوم العام ، فقال له كاربون : أخاف أن يعلم العدو بذلك ، فيكون النطب عظيماً ، قال : قد علم فعلاً وهو يتأنب منذ الأمس لما جتنا فهم سيرانو في أذن لبريه : ذلك ما حدثتك عنه صباح اليوم ، واستمر الكونت يقول : وقد بعثوا جاسوسهم هذا ليتفقد لهم خطوط جيشنا ويدفهم على أضعف نقطة فيه ليهاجموها ، فاتفقت معه على أن يدفهم على

النقطة التي أريدها وأعطيه الإشارة منها ، مضرراً في نفسي أن أغريهم بالمجووم على أقوى فرقة في الجيش ل تستطيع مشاغلتهم ومطاؤلتهم زمناً طويلاً حتى يتمكن قائدنا من العودة بجيشه إلى مركزه آمناً سالماً ، ولما كانت فرقتكم هي أقوى فرق الجيش وأمضها عزماً ، وأصلبها عوداً ، فقد رأيت أن أجعلها هدف ذلك المجووم ، وإن كنت أعلم أنها ستموت عن آخرها ، وقد كنت أمرت ذلك المحسوس أن يقف وراء هذا التل ليتظر إشارتي فيذهب بها ، وما أنت أولاء ترون أنني قد أعطيته إياها بمحفظة ذلك الوشاح فاستعدوا الموت فقد انقضى كل شيء .

قال له سيرانو : أهذا كل انتقامك يا سيدي ؟ إنك قد أحسنت إلينا من حيث أردت إساعتنا ، فالجاسكوني لا يخاف الموت بل يخاف الحياة مع الذل والعار ؛ قال ؛ ما شكت في شجاعتك فقط يا سيرانو فإن من يقاتل مائة رجل وحده فيغلبهم لا يبالي بخطر من الأخطار مهما عظم شأنه ! ثم التفت إلى الجنود وقال لهم : لا أكتمكم أنني كنت أستطيع أن أختار لاستقبال هذه النازلة فرقة أقل شجاعة من فرقتكم لو أنني أحبيتكم ورضيت عنكم وحمدت عشرتكم وسيرتكم ، أما الآن فقد استطعت بعمل واحد أن أؤدي واجبي وأشفق غليلي ، فقال له سيرانو : وشيء آخر يا سيدي ، قال : وما هو ؟ فمشى نحوه خطوة وأسر في أذنه : أن ترمل روكسان ، فارتعد الكونت . ونكسر رأسه وتسلل من مكانه دون أن يقول شيئاً .

فالتفت سيرانو إلى الجنود وقال لهم : لقد آن أية الأصدقاء أن نضع على شعار جاسكونيا ذي الألوان الستة لوناً دموياً أحمر كان ينقصه ليكون أجمل شعار في العالم ، ف تكونوا عند ظني وطن

فرنسا بكم ، واعلموا أنه ما من ميّة في العالم أفتر ولا أبجد من هذه الميّة التي ستموتونها اليوم ؛ فهتفوا جميعاً بحياة جاسكونيا وحياة فرنسا وابتدرروا أسلحتهم يشحذونها ويصقلونها .

الدمعة

والتفت سيرانو فرأى كريستيان واقفاً وراءه مطرقاً جامداً ، وقد انتشرت على وجهه غبرة سوداء من الحزن فتقدم نحوه وقال له : أخائف أنت يا كريستيان ؟ قال : بل حزين لأنني سأفارقها . فانتقض سيرانو عند سماع كلمة الفراق ووضع يده على قلبه ورفع عينيه إلى السماء ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ، وصمت هنيئة ثم قال له : هون عليك الأمر يا صديقي فرحمه الله أوسع من أن تضيق بنا ، فقال : كنت أريد على الأقل أن أكتب لها كتاب وداع أبتها فيه خواطر نفسي ولو أужجها في ساعي الأخيرة ، قال : لقد حدثني نفسي ليلة الأمس — ولا أعلم كيف كان ذلك — بهذا المصير الذي سنصير إليه الآن وأن هذا اليوم هو آخر أيامنا على وجه الأرض فكتبت إليها عن لسانك الكتاب الذي تريده وسأبعث به إليها الآن ، قال : أرنـيه ، قال : هاهـو ذـا ، وأخرج الكتاب من جيـه فأعطاـه إـيـاه ، فأـخـذـ يـقـرـؤـهـ حـتـى وصلـ إـلـىـ سـطـرـ منـ سـطـورـهـ الـأـخـيـرـةـ فـتـوقـفـ ذـاهـلاًـ مدـهـوشـاًـ وقالـ :ـ غـرـيبـ جـدـاًـ !ـ مـاـ هـذـاـ النـيـ أـرـىـ !ـ قالـ :ـ مـاـذـاـ ؟ـ قالـ :ـ نقطـةـ بيـضـاءـ عـلـىـ الـوـرـقـ كـائـنـاـ دـمـعـةـ .ـ فـاخـتـطفـ سـيرـانـوـ الـكـتـابـ منـ يـدـهـ وـقـالـ :ـ أـرـنيـ ،ـ وـظـلـ يـتأـملـ فـيـهـ مـصـعـداًـ منـحدـراًـ ،ـ كـائـنـهـ يـفـتـشـ عـنـ النـقـطةـ فـلـاـ يـزـاـهـاـ ،ـ فـقـالـ لـهـ كـريـسـتـيانـ :ـ إـنـهـ دـمـعـةـ يـاـ سـيرـانـوـ مـاـ فـيـ ذـلـكـ رـيـبـ وـلـاشـكـ .ـ فـهـلـ كـنـتـ تـبـكـيـ ؟ـ فـانـتـقضـ

إلا أنه تجلد وتماسك وقال : نعم ؟ قال : وما الذي أبكاك ؟
 قال : ذلك شأن الشعراء دائمًا ، لا يتناولون موضوعاً من الموضوعات
 المحرجة للكتابة فيه عن لسان غيرهم . حتى يتأثروا به كأنهم أبطاله
 واصحاب الشأن فيه ، ولقد بدأت في كتابة هذا الكتاب وأنت
 مائل في ذهني لا تفارقني ، فما زال يمتد بي الخيال ويطير بي في
 أجواءه حتى تمثل لي أنني أنا الحزين المتألم والمفارق المفجوع ،
 وأن الذي أصفه إنما هي هموم نفسي وآلامها ، فانحدرت من
 عيني بالرغم مي هذه الدمعة التي تراها ، فنظر إليه كريستيان
 نظرة غريبة واحتطف الكتاب من يده وقال له : دعه معى الآن ؛
 ثم طواه ووضعه في ثنايا قميصه وانصرف .

جواز المرور

وقامت في هذه اللحظة ضبطة في المعسكر ، وسمعت أجراس
 مركبة قادمة من بعيد وصائح يصبح من رجال الحرس بصوت
 غليظ أجنش من القادر ؟ فصعد سيرانو وكريستيان إلى التل لينظروا
 ماذا جرى فرأوا مركبة مقلولة جميلة تحمل شارة من شارات
 الشرف ويجلس بجانب حوزيها غلامان حسنا الزي والهندام فما
 شك الجميع في أنها قادمة من باريس وأن راكبيها رسول من
 قبل الملك يحمل أمرًا من أوامره ، فاصطفوا صفين مقابلين وسكنوا
 سكونا عميقاً لا حس فيه ولا حركة ، حتى وقفت المركبة على
 مقربة منهم فأتلعوا إليها أعناقهم وشخصوا بأوصافهم لينظروا
 من القادر ، ثم فتح بابها فإذا سيدة باهرة الجمال مشرقة الطلعة
 قد وثبت منها وثبة الجودر من خميلته فصاح سيرانو وكريستيان
 معًا بصوت واحد : روكسان ! وكانت كما يقولون ، فصعدت

إلى التل بخفة ورشاقة حتى بلغت قمته وقالت : صباح الخير أيها الأصدقاء ، لعلكم جميعاً بخير ؛ فرفع الجنود قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم وعقدوا حولها نطاقاً منهم ومن أنظارهم وظلوا باهتين لرآهما ذاهلين ، وكأنما أدركهم الخجل منها لرثاثة ملابسهم وتشعر هنائهما فظلو يمسحون لثاهم ويفتلون شواربهم ويقلبون النظر في أعطافهم ليروا هل لصق بها أو خالطها ما تقدى به عيون السيدات الجميلات ، ومررت بهم روكسان في مواقفهم واحداً فواحداً بابتسمتها اللامعة المتأللة وكلماتها العذبة الجميلة ، حتى بلغت موقف كريستيان فألفت نفسها بين ذراعيه ، فقال لها وهو ذاهل مدهوش : ما الذي جاء بك يا روكسان ؟ قالت : أنت الذي جئت بي يا زوجي العزيز .

وكان سيرانو واقفاً منذ رآها وراء إحدى الربwoats موقف الذاهل المشدوه ، يرعد ويضطرب ويغالب في نفسه ثورة هائلة تتوجب نارها بين أصالعه ، ثم ما لبث أن سمع صوتها يناديه فانتبه من غشيتها وتقدم نحوها وانحنى بين يديها فابتسمت له وصافحته مصافحة طويلة وقالت له : لعلك بخير يا ابن عمي ؟ قال : نعم وأشكرا لك تفضلك بزيارة وإن كنت أرجو أن تكون زيارة قصيرة . قالت : لماذا ؟ قال : لأننا في ميدان حرب وأخشى أن يصيبك من شرها شيء ، قالت : بل، سأبقى معكم أطول مما تظنون فأعدوا لي مقعداً أجلس عليه ، فابتذر الجنود تلبية أمرها ولم يبق بينهم حامل طبل أو صاحب صندوق إلا قدمه إليها ، فجلست وهي تقول : ما أطول المسافة بين بازيس وأراس ، لقد كنت أظنها أقصر من ذلك ، ولقد مررت في طريقي ببلاد شملها الحراب والدمار ، ورأيت بعيي منظر الباحعين والعارين والمتألين والصارخين وما كنت أحسب أن الحرب تثال من الإنسانية

هذا المثال العظيم ، والحق أقول يا أصدقائي إن العاطفة التي جاءت
بـي إلى هنا أجمل وأرق من العاطفة التي جاءت بـكم ، فكم بين
من يأتي ليقتل حبيبته ، ومن يأتي ليقتل عدوه ، والفتت إلى
كريستيان وقالت له : أليس كذلك يا زوجي العزيز ؟ قال : له .
فقال لها سيرانو : ولكن كيف استطعت اختراق خطوط العدو ،
وتجسم هذه المخاطر كلها ؟

قالت : لقد كان ذلك سهلاً جداً يا ابن عمي ، واسمحوا
لي أيتها الأصدقاء أن أقول لكم ، إن أعداءكم الأسبانيين قوم
ظرفاء أرقاء لم تسمح لهم شهامتهم وشرف نفوسهم ، أن يطلقوا
النار على امرأة عزلاء ، فلقد كنت كلما مررت بحارس من حراسهم
فتحت نافذة مركبة وأشارت عليه وابتسمت في وجهه ابتسامة
لطيفة فلا يلبث أن يستقبلني بمثلها ويتحدى لي عن طريقي فأمضي
في سبيلي ، فكانت الابتسامة هي « جواز المرور » الذي فتح لي جميع
الأبواب الموصلة أمامي حتى وصلت إلى هنا ، قال : ألم يسألك
أحد عن وجهتك التي تقصدينها ؟ قالت : كان إذا سألني أحدهم
قلت له : إنني ذاهبة لروية عشيقتي ، فتفع هذه الكلمة العذبة
البحمilla من نفسه موقع الماء من مهجة الظامي الهيمان فييش في
وجهي ويحيي بيحانه رأسه ويتركني وشأني ، فقاطعها كريستيان
وقال لها : ولكنني لست بعشيقك يا سيدتي بل زوجك ، قالت :
ما ارتبت في ذلك قط يا زوجي العزيز ، ولكن كلمة العشيق
تناول من نفس العاشق المفارق - وكلكم ذلك الرجل - ما لا
تناول منها كلمة الزوج فسامعني واغفر لي ذنبي .

وهنا دخل الكونت دي جيش رئيس أركان حرب الجيش
فرأى روكسان واقفة موقفها هذا بين الجنود فدهش دهشة عظمى

إذ رآها ، ودنا منها فحياتها وقال لها : ما الذي جاء بك إلى هنا يا سيدتي ؟ قالت : جئت لأرى زوجي ، لأنني لم أتمتع بروئيته بعد زواجي منه إلا تلك اللحظة القصيرة التي تعلمها ؛ فاربد وجهه غيظاً وقال لها : لقد أخطأتك بعملك هذا خطأ عظيماً وليس من الرأي أن تلبي هنا بعد الآن لحظة واحدة ، فاعدي عدتك للرجوع من حيث أتيت ، قالت : لماذا ؟ قال : لأن المعركة ستدور بعد ساعة أو ساعتين ، ولا مكان للنساء في ميادين الحروب ؛ فقال تكريستيان : وسنموت في تلك المعركة يا سيدتي عن آخرنا لأن الكونت أراد ذلك . فذعرت روكسان وأصفر وجهها ، والتفتت إلى الكونت وقالت له : أصحيح ما يقول يا سيدتي ؟ إنك إذن تريد أن أصبح أرملة ؟ قال : لا ، وأقسم لك ، قالت : ألا تعلم أنه إذا قدر لي هذا المصير كان ذلك آخر عهدي بالدنيا ونعمتها واستحال علي عين الشمس أن تراني بعد اليوم إلا إذا استطاعت أن تخترق بأشعتها صفائح القبور ؟ قال : أمة لك يا سيدتي أني . . فقطعته وقالت : كيفما كان الأمر ؛ أن أغادر هذا المكان لأنني أريد أن أموت مع أبناء وطني ، فهتف سيرانو بصوت عال : لقد نطق بكلمة الأنطاب يا سيدتي فأهنتك ، فابتسمت وقالت : ذلك لأنني ابنة عملك يا سيرانو ، فصاح الجنود جميعاً بصوت واحد : سندافع عنك يا سيدتي إلى الموت ، قالت : شكرآ لكم يا أصدقائي ذلك أمني فيكـ، في الدم الباشكوني الذي يجري في عروقكم ؛ فتقدم نحوها «كاربون» قائد الفرقة والختي بين يديها وقال لها : أما وقد أصبحت شريكنا في حظنا ومصيرنا فائذني لي أن أبلغ إلينك في طيبة واحدة ؛ قالت : وما هي ؟ .. ؟ : أن تفتحي يدك القابضة على هذا المنديل الحريري الجميل ، فلم تفهم ما يريد ولكنها فتحت يدها فسقط المنديل

على الأرض ، فالتحققه وقال لها : إن فرقني يا سيدتي ليست لها رأية وسيكون منديلك هذا رايتها التي تقاتل في ظلها ، واعلمي أن جنودي سيموتون جميعاً دفاعاً عن الرأية التي قدمتها لهم أجمل فتاة في فرنسا ، ثم عقد المنديل بستان رمحه الطويل وركره على قمة التل فطللت الريح تعبث به وظل الجنود ينظرون إليه نظر السائر إلى نجمة القطب الخاقنة في كبد السماء .

الوليمة

فالتفت روكسان إلى الجنود باسمة وقالت : ألا تقدمون لي شيئاً من طعامكم وشرابكم إليها الأخوان ، فإني أكاد أموت جوعاً ، فنظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقد مشت في وجوههم صفرة الموت ودهمهم من الأمر ما لم يكن يخطر لهم ببال ، فشعرت روكسان بخوبتهم واضطراهم ؛ فابتسمت وقالت أو قوموا بنا جميعاً إلى مطعم « راجنو » لتناول عنده من الطعام ما نريد ، فقال لها أحدهم : إنك تهزين بنا يا سيدتي ، فأين نحن من راجنو ومطعمه ، قالت : إذن لا أستطيع أن اتصور كيف يكون سروركم واغتباطكم ، إذا علمتم أنني قد نقلت لكم هذا المطعم وصاحبه من باريس إلى هنا .

وتركتهم ذاهلين مدهوشين لكلامها وصعدت إلى التل وصاحت : راجنو ! راجنو ! هات لنا غذاءنا ، فما أنتت كلمنتها حتى أقبل راجنو والغلامان الخادمان يحملون على أيديهم سلال الخبز وصناديق الخمر وأفخاذ اللحم الناضجة ، وأنواع الفطائر والحلوى ، فهتف الجنود : راجنو ! راجنو ! وداروا به بخوبته ويعتنقونه ويحاذبونه أثوابه ، فصاحت بهم ؛ دعوني إليها الكسالي واذهبوا إلى المركبة

واحملوا الطعام الذي جئناكم به بأنفسكم فحسبنا ما حملنا لكم ،
فهربوا إلى المركبة وعادوا بما يبقى من لحم وخمر وحلوى وفاكهه
فرجين مغبظين ، وهم يقولون : كيف غفلت عيون الأعداء
يا راجنو عن هذا الطعام الشهي ؟ قال : لأن عيون روکسان الجميلة
كانت أشهى إليهم منه .

وما هي إلا هنيئة حتى استداروا حاتمات واسعة وأنشأوا يأكلون
ويصفقون وروکسان قائمة في خدمتهم تقدم لهذا كأساً ولها رغيفاً
ولهذا سكيناً ، ومداعمها تتلألأ في عينيها رحمة بهم وإشفاقاً عليهم
وسيرانو واقف ناحية ينظر إليهم نظرة السرور والغبطة ويردد
بيته وبين نفسه : يا ملاك الرحمة والإحسان ، يا أجمل نسمة
ظاهرة على وجه الأرض ، يا نفساً نقية صافية لم يخلق الله لها مثلاً
بين نقوس البشر ، حسيي منك أن أراك ، وأن ينفذ شعاع من
أشعة جمالك إلى قلبي المظلم الحالك ، فيضي ظلمته ويسرق
في جوانبه .

ولهم كذلك إذ سمعوا صوت الكونت دي جيش مقبلاً
من بعيد فقال بعضهم لبعض : محال أن ينال هذا الرجل البغيض
لقصة واحدة من طعامنا ، فانطلق عنه كل شيء حتى ينصرف لشأنه ،
وما هي إلا كرة الطرف أن اختفى كل شيء في ثنيا معاطفهم
وفروج أكبامهم ووراء صناديقهم ، ثم دخل الكونت وهو
يقول : ما هذه الرائحة الجديدة ؟ فصمت الحنود ولم يقولوا شيئاً ،
فضل يقلب النظر في وجوههم فيرى الحمرة التي سرت فيها من
حرارة الطعام ونشوة الشراب فيعجب لها عجباً شديداً ، ثم قال :
مالي أراكم متتعشين متلهلين وعهدي بكم قبل هذه اللحظة
تنهاقون جوعاً وتتساقطون ضعفاً وإعياء ! قال له سيرانو :

لأنها صحوة الموت يا سيدى ، فأشاح بوجهه عنه والتفت إلى روکسان وقال لها : أباقية أنت هنا حتى الآن يا سيدتي ؟ قالت نعم ، وما أنا ببارحة هذا المكان حتى أعود بكم أو أموت معكم ، فأطرق هنีهة ، ثم رفع رأسه وهتف بكاربون فلباه ووقف بين يديه فقال له : إنك ستدير المعركة المقبلة بالنيابة عني يا حضرة القائد ، قال وأنت يا سيدى ؟ قال أما أنا فباق هنا لأدافع عن روکسان بنفسى لأنى لا أستطيع أن أترك امرأة في خطر ، ، فأكبر القوم جميعاً هذه الشهامة الكبرى والعظمة النفسية وهمس بعضهم في أذن بعض : إن الرجل لا يزال يجري في عروقه الدم الباكسكوني ، فقال لهم سيرانو : إذن يمكننا أن نقدم إليه شيئاً من طعامنا وشرابنا ، فاندفعوا جميعاً نحوه ومدوا إليه أيديهم بما معهم من الطعام والشراب ، فألقى عليهم نظرة عالية مترفة وقال لهم : نعم لأنى أموت جوعاً وسغاً ولكن الباكسكوني الشريف لا يأكل فضلات طعام غيره ، فصاح سيرانو : شهامة أخرى إليها الأصدقاء لا تنسوها له ، وهتف ليحيى الكونت دي جيش ، فهتف الجنود بهتافه ، فشكرهم الكونت بإيماءة من رأسه ، ثم أنشأ يخطب فيهم خطبة الحرب ويلاقى عليهم الأوامر العسكرية حتى قال لهم ، وهو يشير إلى مدفع جاثم بين يديه : إنكم ما تعودتم إطلاق المدفع قبل اليوم ، فاعلموا أن المدفع يتراجع بشدة عند خروج القذيفة منه فلوكونوا على بيته من ذلك واحدزروه ، فصاح أحدهم بصوت عالٍ : إن مدفع الباكسكونيين مثلهم يا سيدى لا يتراجع قط ، فابتسم له وشكره وقال : لا يخينن أملـي فيـكم يا أـبنـاء وـطـني ؟ ثم انتـ إلى روکسان وقال لها : تعالى معي يا سيدتي لتشاهـدي منـظر استـعراضـ الجيش فأعـطـته يـدهـا فصـعدـا مـعاً إـلى قـمةـ التـلـ .

وما أبعدا إلا قليلاً حتى مشى سيرانو إلى كرستيان وقال له

همساً : كلمة واحدة أريد أن أقولها لك ، فامش معى قليلاً ،
 فمشي معه فقال له : ربما فاتحتك روكسان في شأن الرسائل التي
 كانت ترد عليها منك وستقول لك إنها كانت تتلقى منك كل
 يوم رسالة ، فلا يدهشك ذلك ولا تربك لثلا يفتصح الأم ،
 قال : وهل كنت تكتب إليها كل يوم ؟ قال : نعم ، لأنني تعهدت
 لها عنك قبل سفرنا - كما تعلم - أن تكتب إليها كثيراً فلم أر
 بدأ من الوفاء ، وما كان يكلفك ذلك أكثر من التعبير عن شعورك
 وخواج نفسلك ، وذلك مالا ينقصني العلم به ، فإذا فاتحتك
 في هذا الشأن فلا يكن لك فيه قول غير الذي قلت لك ، قال :
 وكيف كنت تستطيع توصيل هذه الرسائل إليها ، وقد حصرنا
 العدو من كل جانب وذادنا عن كل شيء حتى عن طعامنا وشرابنا ؟
 قال : الأمر بسيط جداً ، كنت أخرج في سحر كل ليلة متنكر
 تحت جنح الظلام ، فأكمم تارة وأظهر أخرى .. ففاطمه كروستيان
 وقال له : وهل هذا بسيط جداً ؟ الحق أقول لك يا صديقي ،
 لأنني أصبحت أعجب لأمرك كثيراً ، ولن استطع أن أفهم
 كل شيء فإني لا أستطيع أن أفهم اهتمامك بهذا الأمر هذا
 الاهتمام كله إلى درجة المخاطرة بحياتك في سبيله ، قال : ما في
 الأمر مخاطرة ولا مجازفة ، فقد كان يلد لي كثيراً أن أقوم لك
 بهذه الخدمة ، وأن ألاقي ما ألاقي من الأخطار في سبيله ، قال :
 رما الذي كان يعجبك من ذلك ؟ قال : التمثيل قال : أي تمثيل ؟
 قال : تمثيل عواطفك وشعورك ؛ ثانياً منذ أخذت نفسى بتمثيل
 دورك في هذه المأساة المجزرة لم يزا يستهوي التمثيل ويهمن
 على نفسى ، حتى أصبحت أتخيل أننى صاحب الدور الذى أمثله ،
 وأننى أنا المعنى دونك بكتابة هذه الرسائل والعنابة بها والتذرع
 بكل وسيلة إلى توصيلها إليها ؟ قال : وهل تبلغ للدورة التمثيل بأمرى ؟

هذه المبالغ كلها؟ قال: نعم؛ وكثيراً ما ذرف الممثلون دموعاً لم يذرفها العاشقون أنفسهم، ثم التفت فرأى روكسان مقبلة فقال له: لقد فهمت الآن كل شيء، فكن حكيناً حازماً، ثم تسلل إلى خيمته وتركه واقفاً مكانه.

حقيقة الجمال

قال كريستيان لروكسان، وقد جلسا معاً على بعض المقاعد: هل لك أن تحدثيني يا روكسان: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فلاني لا أزال أتعجب لأمرك كل العجب ولا أكاد أصدق أن الحب يحشم صاحبه هذه الأخطار التي جسمتها نفسك في سبيله، قالت: لقد سحرتني وملكت على قلبي رسائلك العذبة الجميلة التي كنت ترسلها إليّ صبيحة كل يوم وتودعها شعور قلبك وهواجس نفسك وتكلبتها بتلك اللغة الغربية المؤثرة التي لو لامست الصخر الأصم لانفجر وتناثرت شظاياه في أجواز الفضاء؛ وقد حاولت كثيراً أن أثبت لها وأقاوم تأثيرها على نفسي بكل سبيل فغلبني على أمري وقدرتني إليك كما تراني، قال: فمن أجل بضع رسائل بسيطة..؟ فناظرتها، وقالت: لا تقل بسيطة، بل هي الوحي الإلهي الذي ينزل على نفوس الملهمين من البشر، بل هي القوة الغيبية التي تهيمن على العالم وتحيط به من جميع أقطاره دون أن يدرك أحد مكانها أر يعرف مأتاها، وقد كان يخجل إلى وأنا أقرؤها، أني أرى صورتك فيها كما يرى الناظر صورة البدر من وراء السحب الرقيقة فأهوى إليها بضمي لأقبلاها فإذا أنا أقبل السطور والكلمات، فأطرق كريستيان برأسه، وقد ألم بنفسه من الهمم والكمد ما الله عالم به، واستمرت روكسان في حديثها

تقول : إني ما أحبيتك يا كريستيان . حباً صادقاً متغللاً في أعماق نفسي إلا منذ تلك الليلة التي زأيتك فيها واقفاً تحت شرفتي تناجيبي نجاء عذباً رقيقاً بتلك النغمة الرقيقة المؤثرة ، وتفضي إليّ بذات نفسك كأنك قد ألمستني فوادك ووضعت يدي على قلبك ، ثم توالى على رسائلك بعد ذلك ، فكنت أسمع فيها دائماً تلك النغمة الموسيقية الخلابة ، وكأنك لا تزال واقفاً أمام شرفتي تناجيبي فلا أستطيع أن أملك نفسي دون البكاء والحنين ، وأقسم لك لو أن « بينيلوب » ووردت عليها من زوجها « عولس » تلك الرسائل التي وردت عليّ منك لما أطاقت صبراً على فراقه ولألفت بنسيجها الذي عرفت به في التاريخ وذهبت تفتش عنه بين سمع الأرض وبصرها حتى تلقاءه ؛ فقال ونفسه تذوب حسرة وكيداً : ما كنت أقدر يا روكسان أن تلك الرسائل الصغيرة تبلغ من نفسك هذه المبالغ كلها ، قالت : لقد كان سلطانها على نفسي عظيماً جداً ، وكانت أعيد قراعتها مرات كثيرة حتى تشربها نفسي وتمثلها روحياً ، وحتى كان يخجل إلى أن كل كلمة من كلماتها ورقة تطير إلى من أوراق روحك ؟ فما لبثت أن شعرت أنني قد أصبحت ملكاً لك وأسيرة في يدك ، وأن أمر نفسي قد خرج من يدي فلا حول لي فيه ولا حيلة .

فاكتأب كريستيان وتقبض وجهه وقال لها : لهذا كل ما جاء بك إلى هنا ؟ قالت : نعم ، لاستغفرك من ذلك الذنب الذي أذنبته إليك ، فقد أحبيتك لأول عهدي به بحملالك ورونقك وقصامه وجهك كان الجمال هو كل فضائلك ومزاياك فأهنتك بذلك إهانة عظمى ، أما الآن فإني أجنو بين يديك - لا يحسني - فإنك لا تلبث أن ترفعني بيديك - بل بروحك التي لا يمكنك أن تغير مكانها منك أبداً . طالبة صفحتك وعفوك عن تلك الجريمة

التي اقترفها ، وما أحسست تضن على بذلك في هذه الساعة التي تقف فيها جسماً على أبواب الأبدية ونودع فيها الحياة الوداع الأخير .

فانتفض كريستيان وشخص في وجهها ساعة ، ثم قال لها :
هذا شأنك في الماضي ، ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ قالت : كنت بعد ذلك أكثر تعقلًا وروية وأبعد فكرًا ونظرًا فامتزج في نظري جمال صورتك بجمال جسمك فاستحالنا إلى صورة واحدة فأحببتهما ؛
قال : والآن ؟ قالت : أما الآن فقد انتصرت نفسك عليك انتصاراً عظيمًا فأصبحت لا أحب منك سواها ، ولا أشعر بسلطان لغيرها على قلبي ، فاصفر وجهه اصفراراً شديداً وأطرق برأسه وظل يقول بينه وبين نفسه : إنها ما أحببتني في حياتها لحظة واحدة ، واستمرت هي في حديثها تقول : فليهنك ذلك الحب الشين يا زوجي العزيز فإن أسعد الناس حالاً في هذه الحياة وأحظاهن بنعمة العيش فيها أولئك الذين منحهم الله نفساً جميلة شعرية تتغشها القلوب وتتشربها النفوس وتهفو لها الأحلام ، وتقوم لهم في كل موقف ومقام مقام الجمال البشري إن فاتهم أو نزلت به كارثة من كوارث الدهر ، وما الجمال البشري إلا سحابة رقيقة نظير بها برودة الماء أو هضبة ثلجية تذيبها حرارة الشمس ، وما أحب المحبون قط في الصورة الجميلة جمالها ورونقها بل جمال النفوس الكامنة في طياتها ، ولا أبغض المغضون في الصور الدمعية قبحها ودمامتها بل قبح النفس المستكنته فيها ، فإذا اختلف العنوان عن الكتاب في إحدى الحالتين كان الفوز العظيم للجمال النفسي على صاحبه ، وإنني أعرف لك يا كريستيان بأنني ما أحببتك عند النظرة الأولى إلا بحملك لأنني ما كنت أرى في سماء حياتك كوكباً مشرقاً سواه ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أخذ ذلك الكوكب

يتضاغل أمام عيني شيئاً فشيئاً بجانب تلك الأشعة الباهرة التي كانت تتدفق من ينبع نفسك البخاشية الفياضة حتى أصبحت لا أراه ولا أشعر به ، فازداد اضطرابه واصفراره وظل ينظر إليها نظراً غريباً حائراً.

فقالت له : مالي أراك حزيناً مكتبراً كأنك في شك من هذا الانتصار العظيم الذي تم لنفسك عليك ؟ فنظر إليها نظرة ساكتة جامدة ، ثم قال : اسمعي يا روكسان ، إني لا أحفل بهذا الحب ولا أغبط به ولا أريد إلا أن تنتظري لي دائماً بتلك العين التي نظرت بها إليّ لأول عهده بي ، قالت : إني أعجب لأمرك كثيراً يا كريستيان ، فإن الحب الذي توثره وتغبط به حب تافه لا قيمة له ولا ثبات لظله ، أما الآن فإني أحبك لصفاتك الكريمة النادرة التي قلما اجتمع لها مخلوق سواك ، أحبك لذكائك الخارق وفطنك النادر وشرف عواطفك ، ورقة شعورك ، ولطف حبك وسعة خيالك ، وذلك البيان الرائق الصافي الذي يشف عن جوهر نفسك شفوف الغدير الساكن عن لأنشه وجوهه ، أحبك من أجل ذلك كله حباً ثابتاً راسخاً لا تعبث به صروف الدهر ، ولا تثال منه عاديات الأيام ، حتى لو استحال صورتك إلى صورة أخرى غيرها لما نقص حبي إليك ذرة واحدة ، فارتعد كريستيان وشعر أن نفسه قد بدأت تتسرّب من بين جنبيه فمد يده إليها ضارعاً وقال : الرحمة يا روكسان ؟ قالت : بل لو ذهب جمالك بحادثة من حوادث القضاء فأصبحت بشع الصورة دميم الخلقة .. فقاطعها وصالح : دميم الخلقة ؟ قالت : نعم وأقسم لك على ذلك يا زوجي العزيز ويأحب الناس إليّ ، فظل يرتعد ويضطرب اضطراباً ، خيل إليها أنه نشوة الحب وسكرة السرور فقالت له : أسعيد أنت الآن يا كريستيان ؟ فنظر إليها نظرة غريبة

لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءها وقال : نعم سعيد جداً ومن هو أولى بالسعادة مني ، ونهض قائماً يزيد الانصراف فقالت له : إلى أين ؟ قال : لم يبق بيتنا وبين المعركة إلا لحظات قليلة ولا بد أن يكون هذا آخر اجتماع لنا ، فالوداع ، قالت : ألم يغلب يأسك على رجالك ورحمة الله أوسع من أن تضيق بك ؟ قال : إن السعادة أحسن بنفسها من أن تثبت زمناً طويلاً في مكان واحد ، فالوداع يا روكسان وداعاً لا لقاء من بعده ، وأخذ يبتعد عنها شيئاً فشيئاً دون أن يضع يده في يدها أو يقبلها قبلة الوداع ، فمشت وراءه وهي تعجب لأمره وتقول : ما بك يا كرستيان ؟ قف قليلاً لأقول لك كلمة واحدة ثم أصنع ما شئت ، إنك لم تفهم غرضي ، وأقسم لك أنك لو فهمته لعلمت أنني أحبيتك حباً ما أحبه أحد من قبلني أحداً ، قال : حسبي يا روكسان وعددي إلى هؤلاء والجنود المساكين فإنهما يفكرون في مثل ما أفكر فيه ويودعون الحياة كما أودعها ، فاذهي إليهم واجلس في بينهم قليلاً وعززهم بابتسامتك العذبة الجميلة عن همومهم وآلامها ، أما أنا فذاهب لقضاء بعض الشوون وربما عدت إليك بعد قليل ، ثم اختفي عن نظرها .

المكاشفة

دخل كرستيان على سيرانو في خيمته شاحب اللون مكفهر الجبين . فقال له سيرانو : ما بك يا صديقي ؟ قال : إنها حدثني الآن حدثياً طويلاً علمت منها أنها لا تحبني بل ما أحبتني قط في يوم من أيام حياتها ، قال : ماذا تقول ؟ قال : وأقول أيضاً إنها تحبك أنت ولا تحب في الدنيا أحد سواك ، فانتقض سيرانو انتفاضة

شديدة كادت تتطاير لها أجزاء نفسه وقال : أنا ؟ قال : نعم لأنها اعترفت لي بأنها لا تحب مني إلا نفسى وأنت الذي تكمن بين أضاليع ، فهي تحبك حب العابد معبوده ، وما جاءت هنا إلا من أجلك ، وما أشك في أنك تضرر لها في قلبك من الحب مثل ما تضرر لك ، فصرخ سيرانو ، وقال : لا . أقسم .. فقاطعه كريستيان وقال : لا تفعل فلقد ثمت عليك الدمعة التي رأيتها بعيوني في كتاب الوداع الذي كتبته إليها ، وما هي بدمعة الشعر . كما تقول بل دمعة الحب وما كنت تكتب إليها عن لساني كما تزعم ، بل عن لسانك أنت ، فاعترف بأنك تحبها .

فصمت سيرانو هنيهة ذهبت نفسه فيها كل مذهب ثم رفع رأسه وقال : نعم يا كريستيان أعترف لك بأني أحبها ، وأقسم لك أني ما طمعت فيها قط ، قال : نعم أعلم بذلك فوارحمته لك ولذلك الآلام الطوال التي قاسيتها في مضي حياتك ، أما الآن فني استطاعتني أن تطمع فيها كما شاء ، ولا يوجد في العالم شيء يحول بينك وبينها ، قال : لا أستطيع ، فإن من يحمل وجهاً مثل وجهي لا يطمع في حياة الحب والغرام ، قال : إنها أقسمت لي أني لو كنت بشعر الخلقة دميم الوجه لما نقص حبها إياي ذرة واحدة ، فانتعش سيرانو وقال : أوقالت لك ذلك ؟ قال : نعم ما زالت تقوله حتى أملتني وأضجرتني ، قال : لا تحفل بقولها فهي فتاة شعرية الأفكار والتصورات ، تقول بلسانها غير الذي تضرر في أعماق نفسها ، فابن محبوبها الجميل كما كنت ولأبنك أنا لسانك الناطق بين يديها حتى يقضى الله فيما جميعاً بقضائه ، قال : ذلك مستحيل بعد . الآن ، فلاني أشعر في أعماق نفسى بخجل ما أحسب إلا أنه سيقضي على حياتي قبل أن تقضى عليها القذيفة التي تنتظرني في ساحة القتال ، فاذهب إليها واعترف

لها بكل شيء ، وقل لها إن الرجل الذي أحببته من أجل ذكائه وفطنته وذلة لسانه وقوه بيانه كاذب غاش ، يتحل مواهب الناس وفضائلهم لنفسه ، وليس له فيها من الحظ شيء ، قال : ذلك فوق الاحتمال يا كريستيان ، قال : لا بد من ذلك فليس من العدل أن أقتل هناءك من أجل الطبيعة أن الطبيعة جملتي بهذه الخلية البسيطة من الجمال ، قال : وليس من العدل أن أتجعلك في سعادتك ، لأن الطبيعة منحتني شيئاً من القدرة على التعبير عن عواطفني ، قال : لا بد أن تفتخرا في موضوع حبك ، فأنت محبوبها الحقيقي أما أنا فخلعتك الجميلة التي تلبسها وتتجمل بها ، فائزها عنك وتقدم إليها بأي ثوب تريده فهي لا تبالي بجمال الآثواب وزخرفها ، إني ضفت ذرعاً بهذه النفس الغربية التي أحملها بين جوانحي ، حتى أعيت بأمرها إعياء شديداً ولا راحة لي إلا في الخلاص منها ، قال : إنك تريدين شيئاً يا صديقي ، قال : لا بل سعادتك ، فاذهب إليها وقص عليها القصة من مبدئها إلى متها واترك لها الخيار في أمرها ، فإن اختارتك ، فقد أنصفتك ، ولقد كان عقد الزواج الذي جرى بيننا عقداً سرياً لا تحفل به الكنيسة ولا يعيا به الناس فما أسهل التخلص منه ، وإن اختارتني لا أكون غاشاً لها ولا خادعاً ، قال : ستختارك أنت بلا شك ، قال : أرجو أن يكون ذلك ، وما هي ذي مقبلة فasher لها كل شيء ، أما أنا فذاهب إلى نهاية الخلط لشأن من الشؤون لا بد لي من قصائده وربما عدت إليك بعد قليل ، فارتبا سيرانو في أمره وأمسك بيده وقال له : إني أقرأ على جبينك آية اليأس يا كريستيان فهل تقسم لي أنك لا تقتل نفسك ، قال : نعم ، أقسم لك ألا أقتل نفسي ، ثم التفت فرأى روكان على مقربة منه فقال لها : سيرانو حدثنا خطيراً فاذهي إليه ،

ثم وضع يده على مقبض سيفه فجرده من غمده وهرع إلى ساحة القتال وهو يقول : الوداع يا نور السماء .

الفاجعة

فدنست روکسان من سیرانو وقالت : ما باله ؟ إني أعجب لأمره كثيراً ولا أدرى ما الذي دهاه ، فما هو الحديث الخطير الذي ت يريد أن تحدثنيه ؟ قال : لا شيء إنه بينهم بأصغر الأمور وأبسطها ، فلقد كان يروي لي تلك المحادثة التي دارت بينك وبينه منذ هنีهة ، قالت : نعم نعم ويخيل إليّ أنه لم يفهم غرضي أو أنه في شنك مما أفضي به إليه ، وأؤكد لك يا صديقي أنني ما قلت له إلا الحقيقة التي أعتقدها فإذاً أصبحت بعد اطلاعي على تلك الرسائل البليغة التي كان يرسلها إلى كل يوم من ميدان الحرب مفتتنة بعقله وذكائه أكثر من افتتاني بحسنه وجماله حتى لو استحالـت صورته إلى صورة أخرى غيرها أو ذهب بجماله حادث من حوادث الدهر فأصبح ... ثم سكتت حباء وخجلاء ، فقال دمياً ؟ قالت : نعم ولو أصبح كذلك ، قال : وبشع الصورة ؟ قالت : نعم ، قال : فمشوه الوجه ؟ قالت : نعم ، قال : وضحكة الناس وسخريتهم ؟ قالت : إن من كان له مثل عقله ولسانه لا يكون ضحكة الناس وسخريتهم ، وهذا سمعاً أول طلاقة من طلاقات المعركة فلم يخفل بها واستمر سیرانو في حديثه يقول : أتخبيه رغم كل شيء ؟ قالت : نعم رغم كل شيء ، فقد غمر جمال نفسه جمال صورته حتى أصبحت لا أراها ولاأشعر بها . فاغتبط سیرانو في نفسه اغباطاً عظيمأً وعلم أنه قد أشرف على السعادة التي ظل ينتظرها أعواماً طوالاً ولم يبق بينه وبينها إلا كلمة أخرى ينطق بها فإذا هي بين يديه .

في هذه اللحظة أقبل «لبريه» من ناحية الميدان مسرعاً وأسر في أذن سيرانو هذه الكلمة «قد قتل كرستيان»؛ فانتفض وقال: وكيف قتل؟ قال: بأول قذيفة من قذائف المعركة، فاصغر وجهه وارتعدت فرائصه وغشت على عينيه غمامه سوداء، فعجبت روكسان لأمره وقالت له: ما بك يا سيرانو؟ قال: لا شيء؛ قالت: أتم حديثك، ماذا كنت ت يريد أن تقول لي؟ فضمت وأطرق هنيهة وظل يقول بينه وبين نفسه: قد انقضى كل شيء، فلا أستطيع أن أقول شيئاً، ولقد كان كرستيان صديقي وعشيري فليس في استطاعتي أن أبني سعادتي على أنقاض شقائه، فظلت روكسان تنظر إليه ذاهلة حائرة وتقول: ليت شعري ماذا جرى؟ وسيرانو مطرق لا يرفع رأسه حتى أقبل جماعة من الجنود يحملون على أيديهم شيئاً مسجى يشبه الجثة فوضعوه ناحية فارتعدت روكسان وكأن نفسها حدثها بما كان فظلت تنظر إلى ذلك الشيء باهتة مدهوشة وتقول: انظر يا سيرانو ما هذا الذي أرى! أتدرك ماذا يحمل هؤلاء الرجال؟ فانتبه إليها وقال: دعيهم وشأنهم يا سيدي واسمعي بقية حديثي، وحاول أن يجمع شتات ذهنه المبعثر فلم يستطع، فأخذ يتكلم كلاماً مضطرباً متقطعاً ويقول: كنت أريد أن أقول لك... آه ماذا كنت أريد أن أقول لك! لا أستطيع أن أقول شيئاً فقد انقضى كل شيء، كنت أريد أن أقول... آه قد تذكرت. أقسم لك يا روكسان أنك صادقة فيما قلت؛ نعم كان كرستيان كما قلت فـ... فقاطعته وصرخت صرخة عظمى وقالت: «كان» ينحيل لي أنك ترثيه، ودفعته دفعة شديدة وهرعت إلى الجثة وكشفت الغطاء عنها فإذا كرستيان في سكرة الموت.

فالقت بنفسها عليه وقد أصابها مثل الجنون وظلت تبكي وتنتصب انتباها مجزناً وتصرخ صرخات مؤلمة، ثم لاحت في صدوره

الجروح الذي ينبعث منه الدم فمزقت قميصها واقتطعت منه قطعة وهرعـت إلى موضع الماء لتبللها ففتح كريستيان عينيه في تلك اللحظة وتاؤه آهـة طـويلـة فـدـنـاـ منـهـ سـيرـانـوـ وأـكـبـ عـلـيـهـ وـهـمـسـ فيـ أـذـنـهـ : أـبـشـرـ ياـ كـرـيـسـتـيـاـنـ فـقـدـ بـحـثـ هـاـ بـكـلـ شـيـءـ وـخـيـرـهـ يـبـيـ وـبـيـنـكـ ، فـاخـتـارـتـكـ مـنـ دـوـنـيـ وـهـيـ لـاـ تـحـبـ أـحـدـاـ سـواـكـ ؛ وـعـادـتـ روـكـسانـ وـفـيـ يـدـهـاـ الـقطـعـةـ الـمـبـلـلـةـ فـظـلـتـ تـمـسـحـ بـهـاـ الجـروحـ وـتـقـولـ : إـنـهـ لـاـ يـزـالـ حـيـاـ ، وـسـيـلـثـمـ جـرـحـهـ بـعـدـ قـلـيلـ ، وـسـيـعـيـشـ بـجـانـيـ دـهـرـاـ ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ يـاـ سـيرـانـوـ ؟ ثـمـ وـضـعـتـ خـدـهـاـ عـلـىـ خـدـهـ فـشـعـرـتـ بـبـرـودـةـ الـمـوـتـ تـسـرـيـ فـيـ جـسـمـهـ فـاصـفـرـتـ وـتـخـاـذـلـتـ أـعـضـاـوـهـاـ وـظـلـتـ تـنـاجـيـهـ نـجـاءـ مـعـزـنـاـ مـوـئـرـاـ وـتـضـرـعـ إـلـيـهـ أـنـ يـعـيـشـ مـنـ أـجـلـهـ لـأـنـهـ فـيـ حـاجـةـ إـلـيـهـ وـلـاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـهـنـأـ بـالـحـيـاةـ مـنـ بـعـدـهـ ثـمـ وـضـعـتـ يـدـهـاـ عـلـىـ صـدـرـهـ فـعـرـتـ بـذـلـكـ الـكـتـابـ الـذـيـ كـانـ قـدـ أـخـذـهـ مـنـ سـيرـانـوـ فـأـمـرـتـ نـظـرـهـاـ عـلـيـهـ فـوـجـدـتـهـ مـعـنـوـنـاـ باـسـمـهـاـ وـرـأـتـ عـلـيـهـ نـقـطـةـ مـنـ الـدـمـ وـتـلـكـ الـقـطـرـةـ مـنـ الدـمـ فـقـالتـ : وـارـحـمـتـاهـ لـهـ إـنـهـ كـانـ يـحـدـثـ نـفـسـهـ بـهـذـاـ الـمـصـيـرـ الـذـيـ صـارـ إـلـيـهـ ، وـاحـتـضـنـتـهـ إـلـىـ صـدـرـهـ وـظـلـتـ تـقـبـلـهـ وـتـلـشـمـهـ فـتـفـتـحـ عـيـنـيـهـ لـلـمـرـةـ الـأـخـيـرـةـ فـرـآـهـ ، فـحاـوـلـ أـنـ يـتـحـرـكـ فـلـمـ يـسـطـعـ ، فـشـهـقـ شـهـقـةـ كـانـتـ فـيـهـاـ نـفـسـهـ .

المعركة

وـكـانـتـ المـعـرـكـةـ قـدـ اـشـتـدتـ وـدـوـيـ المـيدـانـ بـصـرـخـاتـ الـجنـودـ وـصـيـحـاتـهـمـ وـقـعـقـعـةـ السـلاحـ وـأـزـيـزـ الرـصـاصـ وـهـتـافـ الـقوـادـ بـالـجـنـدـ أـنـ تـقـدـمـواـ وـلـاـ تـقـهـقـرـواـ أـيـهـاـ الـأـبـطـالـ الـبـوـاسـلـ وـانـتـزـعـواـ النـصـرـ مـنـ بـيـنـ خـالـبـ أـعـدـائـكـمـ اـنـزـاعـاـ . فـهـاجـ المـوقـفـ نـفـسـ سـيرـانـوـ فـجـذـبـ يـدـهـ مـنـ روـكـسانـ وـكـانـتـ آخـذـةـ بـهـاـ لـيـهـجـمـ مـعـ الـهـاجـمـينـ

فاستوقفته وقالت له : ابق معي قليلاً يا سيرانو ، فلقد مات
 كريستيان وليس لي في العالم من يعني على نكبي فيه سواك .
 لقد كنت الرجل الوحيد الذي عرفه حق المعرفة وأدرك ما اشتملت
 عليه نفسه من الفضائل والمزايا فقل لي ألم يكن في حياته عظيماً
 قال : بلى ، قالت : وذا همة عالية لا تسمى إليها هم الرجال ؟
 قال : بلى . قالت : وذا نفس عذبة صافية كأنها قطرة الندى
 الصافية المتزرقة في الزهرة الناضرة ؟ قال بلى قالت : وشاعراً
 عبرياً لم تطلع الشمس على مثله في عهد من عهودها الخالية ؟
 قال بلى ؟ قالت : لقد هو ذلك الكوكب المثير من سمائه والمحدرت
 تلك الشمس المشرقة إلى مغربها من حيث لا رجعة لها ، فوا أسفاه
 عليه ! ثم صرخت صرخة تتقطع لها نيات القلوب وألقت بنفسها
 عليه وظللت ترثيه وتندبه وتلتف فوق جثته جميع ما أودع الله
 عيونها من دموع . فوقف سيرانو وجرد سيفه من غمده وقال :
 إنها الآن تبكيني في بكاؤها على كريستيان فيجب أن أموت . وكان
 رصاص الأعداء يقصد الحاسكونيين حصداً فتساقطون تساقط
 أوراق الشجر البخافة أمام الزوابعة الهائلة وهم لا يشنون ولا يتحلخلون
 والكونت دي جيش في مقدمتهم يصبح بصوت عال : ها هو
 ذا جيش قائدنا قد اقترب فاصبروا ساعة أخرى يم النصر لفرنسا ؛
 فصرخ سيرانو : الوداع يا روكسان ، واندفع إلى قمة التل فاستقبله
 الكونت واعتراض طريقه وقال له : قف مكانك لا تلق بيدهك
 إلى التهلكة فقد آن أوان المزحة أو هلك بالخنود جميعاً ، قال :
 إن الحاسكونيين لا يتراجعون ولو أمرتهم بذلك ، فكل أمرهم
 إلى ودعني وشأني فإني نائم موتوراً أريد أن أنتقم لصديقي
 الذي ثكلته ، وهنائي الذي فقدته ، فاذهب أنت إلى روكسان
 ودافع عنها كما وعدتها حتى تبلغ مأمنها .

ثم صاح في الجنود : تشجعوا أيها الأصدقاء ولا تتقهقر وافلحياة أمامكم وليس وراءكم فتقدموها أيها الأبطال وموتوأ جميعاً، فما في الموت شيء سوى أن تقلوا مكان اجتماعكم من الأرض إلى السماء ، موتوأ فالموت أهون عليكم من أن تروا وطنكم ذليلاً في يد أعدائكم ، وقد مات أصدقاؤكم ورفقاوكم بما بقاوكم في الحياة من بعدهم ؟ رفرف علينا إليها العلم الصغير المطرز باسمها وابعث في قلوبنا جميعاً روح القرة والشجاعة لموت عن آخرنا تحت ظلك الخافق .

فظل الجنود ثابتين في أماكنهم ومنجل القضاء يحصدون حصدآ حتى وصل جيش العدو إلى قمة التل وصاح قائهم : أقوا — بأسلحتكم أيها القوم فستمتوتون جميعاً إن لم تسلمو ولا يهدى عليكم الموت شيئاً ، فأجابه سيرانو : لا يسلم إلا الأذلاء الجناء ، وما فينا جبان ولا ذليل ! الهجمة الأخيرة أيها الأبطال فيها هي طبول القائد الأعظم تدنو منا وتقترب ، وليس بينكم وبين النصر إلا كرفة واحدة .

وكان الأمر كما يقول ، فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أشرف جيش القائد العام وهاجم الأعداء من خلفهم فالتحم الجيшен ، وما هي إلا بجولة أو جولتان حتى تم النصر للراية الفرنسية على الراية الإسبانية ، ولكن بعد أن نلاشى الجنود الحاسكونيين في المعمعة جميعاً .

الفَصْلُ الْخَامِسُ

بعد خمسة عشر يوماً

لديه الراهبات بباريس فناء واسع قد غرست في أنحائه بعض أشجار ضيغمة بأسقة قد تناشرت من تحتها أوراقها الساقطة الصفراء ووضع في وسطه مقعد حجري هلامي الشكل فخرجت الراهبات بعد أداء صلواتهن في مخاريبهن ، يتمشين في ذلك الفناء ويتحلثن بأحاديث مختلفة لا يخلو بعضها من ذكر العالم الدنيوي وشؤونه والحياة ووقائعها ، كان ذلك الحجاب الحجري الذي أسدل دونهم الأسوار والحدران لم يستطع أن يقطع الصلة بينهن وبين الحياة التي هجرنها واطرحنها وأقمن بين يدي الله أن ينسنها أبداً الدهر فلم يزل بين جوانحهن بصيص ضعيف من تلك الذكرى يلمع من حين إلى حين ، لأنهن لا يستطيعن - مهما بلغن من قوة اليقين ورسوخ الإيمان وثبات العزيمة - أن ينزعن الطبيعة من بين جنوبهن كما يرفعن قبعاتهن عن رؤوسهن ، وأردنهن عن أكتافهن ، ويرمبن بها وراء تلك الأسوار والحدران ، كما أرادت منهن ذلك الشرائع النظرية التي لا صلة بينها وبين حقائق الحياة وطبائعها .

فقالت الأخت « مارت » للأخت « كلير » : لقد رأيتك اليوم واقفة أمام المرأة مرتين ، ورأيت في يدك مشطاً تحاولين أن تمشطي به شعرك ، وسأرفع أمرك إلى الرئيسة ! قالت : إنك لا تستطيعين أن تفعلي إلا إذا استطعت أن تحدثني عن تلك الأغنية الغرامية

التي كنت تتغنين بها ليلة أمس في غرفتك بصوت خافت شجي كأنك تذكرين بها عهداً قدِيماً ، فابتسمت الأخت « مارت » وقالت : إنني إن أُعفِيت من الشكوى إلى الرئيسة فلن أُعفِيك من الشكوى إلى المَسيو برجراش عند حضوره ، قالت : كأنك تأمين إلا أن نصبح ضحكة الناس وسخريةِهم ، فسيرانو رجل شديد قاس يكره الحركات النسائية المتطرفة ، وينعي عليها نعياً شديداً ؛ قالت : ولكنه يذهب في نقهـه مذهب التهكم البديع المستطـرـف فهو إلى الفكاهة أقرب منه إلى الجد ، فقالـتـ الأخت مارجريت : الحق أقول يا أخواتي إنـي لم أـرـ في حياتـيـ أـظـرفـ ظـرفـ منـ هـذـاـ الرـجـلـ ، ولا أـعـذـبـ منهـ لـسانـ ولاـ أـحـلـ مـجـونـاـ ولاـ أـطـيـبـ قـلـباـ ، ولاـ أـنـقـىـ سـرـيرـةـ . فـقاـلتـ لهاـ «ـ كـلـيرـ»ـ :ـ أـصـحـيـحـ ياـ أـخـتـاهـ آـنـهـ يـخـتـلـفـ إـلـىـ هـذـاـ الـدـيرـ مـنـذـ اـثـيـ عشرـ عـامـاـ؟ـ قـالـتـ :ـ بـلـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ مـذـ هـجـرـتـ اـبـنـةـ عـمـ الـأـخـتـ روـكـسانـ الـعـالـمـ الـدـنـيـويـ ،ـ وـنـزـلـتـ بـنـاـ كـمـاـ يـنـزـلـ الطـيـرـ الـحـزـينـ وـسـطـ الطـيـورـ الـبـيـضاـءـ ،ـ وـمـزـجـتـ سـوـادـ رـهـبـانـيـتهاـ بـسـوـادـ حـدـادـهاـ ،ـ وـسـيرـانـوـ هوـ الشـخـصـ الـوـحـيدـ الـذـيـ يـسـطـيعـ أـنـ يـعـزـيـ نـفـسـهـاـ وـيـسـحـ دـمـوعـهـاـ وـيـخـفـ أـحـزـانـهـ الـكـامـنةـ فـيـ أـعـماـقـ قـلـبـهاـ ،ـ فـقاـلتـ «ـ مـارـتـ»ـ :ـ وـلـكـنـهـ وـيـاـ أـحـزـانـهـ الـكـامـنةـ فـيـ أـعـماـقـ قـلـبـهاـ ،ـ فـقاـلتـ «ـ مـارـتـ»ـ :ـ وـلـكـنـهـ وـيـاـ لـلـأـسـفـ غـيـرـ مـتـمـسـكـ بـوـاجـبـاتـ الـدـينـيـةـ ،ـ وـهـوـ إـلـىـ الـإـلـاحـادـ أـقـرـبـ مـنـ إـلـىـ الـإـيمـانـ ،ـ فـقاـلتـ «ـ كـلـيرـ»ـ :ـ أـظـنـ أـنـاـ نـسـطـيـعـ أـنـ نـهـيـهـ إـذـاـ نـخـنـ حـاـولـنـاـ مـنـهـ ذـلـكـ .

وهـاـ أـقـبـلـتـ الـرـئـيسـ ،ـ وـقـدـ سـمعـتـ هـذـهـ الـكـلـمةـ الـأـخـيـرـةـ فـعلـمتـ أـهـنـ يـتـكـلـمـنـ عـنـ سـيرـانـوـ ،ـ فـقاـلتـ :ـ إـنـيـ أـمـنـعـكـنـ جـمـيـعاـ عـنـ مـفـاتـحـهـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ فـدـعـهـ وـشـائـهـ وـالـهـ يـتـولـيـ أـمـرـهـ ،ـ فـقاـلتـ «ـ مـارـتـ»ـ :ـ وـلـكـنـهـ مـكـابـرـ عـنـدـ لـاـ يـزالـ يـولـعـ بـمـحـادـيـ وـمـغـايـظـيـ كـلـمـاـ رـأـيـ ،ـ فـقـدـ قـالـ لـيـ يـوـمـ السـبـتـ الـمـاضـيـ عـنـدـ حـضـورـهـ :ـ إـنـهـ أـكـلـ بـالـأـمـسـ

لهاً ودساً فلم أطق استماع ذلك منه وكدت أنخضصمه . قالت : لا تصدقه يا بنبي فإنه حينما جاءنا في المرة الماضية كان قد مر به يومان لم يدق فيهما طعم الخبز ؛ فدهشت الراهبات جميعاً ونظرن إلى الرئيسة باهتمام مذهولات ! فقالت لهن : لا يدهشكن ذلك يا بنيني ، فسيرانو رجل فقير معدم لا يملك من متاع الدنيا شيئاً ، فقالت لها « مرجريت » : عجيب جداً ، من أخبرك بذلك ؟ قالت : صديقه « لبريه » ، قالت : ألا يساعدك أحد ؟ قالت : لا ، لأنه لا يريد ذلك .

ولأنهن كذلك إذا أقبلت روكسان من ناحية الدير في لباسها الأسود وبجانبها الكونت دي جيش ، وكان قد وصل في مجده الدنيوي إلى الغاية القصوى التي لا غاية وراءها فأصبح القائد العام للجيش الفرنسي وأصبح يدعى « الدوق ماريشال دي جرامونت » ، وكان قد أشرف في ذلك الوقت على سن الشيخوخة ، فهدأت في نفسه تلك العواطف القديمة الثائرة ، عواطف الشرور والشهوات ، فأخذ نفسه بزيارة روكسان في ديرها من حين إلى حين للتعزية والوفاء والتکفير عن سيناته الماضية إليها .

فلم يزل سائرآ معها حتى بلغا ذلك المقعد فجلسا عليه ، ثم نظر إليها نظرة حزينة مكتوبة وقال لها : أهكذا تعيشين دائماً يا روكسان في عزلتك هذه لا تفكرين في شأن من شؤون الحياة ولا تأسفين على عهد من عهودك الماضية ؟ قالت : نعم دائماً لا أذكر غيره ولا يمر بخاطري شيء سواه ، قال : وهل غفرت لي ذلك الذنب الذي أذنبته إليك أم لا تزال في قلبك بقية من العتب واللومجة عليّ ؟ فاغرورقت عينيها بالدموع وصممت هنيةه ثم رفعت نظرها إلى صليب الدير العظيم المائل أمامها وقالت :

ما دمت في هذا المكان وما دام هذا ماثلاً أمام عيني فأنا أغتفر
 جميع الذنوب حاضرها وماضيها . قال : وارحمته لذلك الفتى
 المسكين ! ما كنت أظن أن نفس إنسان في العالم تشتمل على
 مثل الصفات التي كانت تشتمل عليها نفسه لو لا أنك أقسمت على
 ذلك ، قالت : إنك لو عرفته معرفتي إياه لامتلأت نفسك إعجاباً
 به وإعظاماً له ، ولكن حزنك عليه عظيمًا كحزني ؛ قال : وهل
 لا تزالين محتفظة بكتابه الأخير حتى اليوم ؟ قالت : إنه لا يفارق
 صدري قط كأنه الكتاب المقدس ، قال : أتخيله حتى بعد الموت ؟
 قالت : يخيل إلي أحياناً أنه لم يمت ؟ لأن مكانه في قلبي لا يزال
 باقياً كما هو ، وكأن روحه ترفرف عليّ وتتعيني حشما سرت ،
 وأني حللت ، ولا تزال ترن في أذني حتى تلك الساعة تلك النغمة
 الجميلة التي كان يحدثني بها ليلة الشرفة كأن لم يمر بها إلا يوم واحد ،
 قال : وهل يأتي سيرانو لزيارتكم أحياناً ؟ قالت : نعم ، يفد
 إلي دائماً يوم السبت من كل أسبوع في ساعة معينة لا يتاخر عنها
 ولا يتقدم ، فإذا حضر رأني جالسة أمام منسجي فيجلس
 على مقربة مني فوق مقعد يدعونه له ويبدأ حديثه معني
 بالهرزل والمجون والساخرية بي وبمنسجي ويسميه الحركة الدائمة
 التي لا نهاية لها ، فإذا فرغ من ذلك أخذ يقص عليّ حوارده ،
 الأسبوع يوماً فيوماً كأنه جريدة أسبوعية ، واعلم يا سيدتي :
 ذلك الصديق القديم والأخ الوفي هو الشخص الوحيد الذي يسرّي
 عني بعض همومي وألامي ويحمل عني الشيء الكثير من أثقال
 هذه الحياة وأعباها ولو لاه لمت في عزلي هذه هماً وكذاً .

وهنا فتح باب الدير ودخل « لبريه » فتقدم نحو روكيار
 فحياتها فقالت له : كيف حال صديقك يا لبريه ؟ قال : في أسوأ
 حال يا سيدتي ، فإن غرابة أخلاقه وشنوذ طباعه وتهوره في

ميوله وآرائه وصلابة عوده في خصوماته ومناظراته قد بلغت به المبلغ الذي كنت أتوقعه له من عهد بعيد : الفقر والعدم ، والشقاء والبؤس ، واللخصوم الألداء والأعداء التأذين المتشرين الذين يكيدون له ليتهم ونهارهم لا يهدأون ولا يفترون ، وهو في غفلة عن هذا كله ، لا يعجبه ولا يطربه ولا يلذ له غير الانتقاد المر ، والتهكم المؤلم بالأشراف والنبلاء ورجال الدين والأدباء والصحفيين والشعراء والممثلين لا يهادنهم ولا يواطئهم ولا يهدأ عنهم لحظة واحدة ، فينبعى على القسيس نظرة واحدة يلقاها عرضياً على وجه جميل ، وعلى الشاعر معنى بسيط يسرقه من شاعر متقدم ، وع^ا النبيل مشية الخيلاء يمشيها في طريقه ، وعلى الصحفي نشر إعلان خمر في جريدة أو خبر مكتوب ، كأنه موكل بهداية البشر وتقويم اعوجاجهم وتهذيب أخلاقهم ، وكل ما يعتذر به عن نفسه إن لامه في ذلك لام : أنه يقول ما يعتقد ، وينطق بما يعلم ، كأنما لا يوجد في العالم كله من يعلم ما يعلمه سواه .

وما أظن الهيئة الاجتماعية التي يشاكسها ويثارورها ، ويزعم أنه قادر على تقويم معوجها وإصلاح فاسدتها تستطيع الصبر عليه طويلاً ، وينحيل إلى أن انتقامها منه سيكون هائلاً جداً وأنه سيموت عما قليل شهيد ذلك الشيء الذي يسميه « الحرية الفكرية والنقد الصحيح » .

فقالت روكيسان : ولكن سيفه القاطع يحميه من هؤلاء جميعاً ؛ قال : ربما يحميه ولكنني أخشى عليه عدواً واحداً هو أشد عليه من جميع أعدائه ، قالت : ومن هو ؟ قال : الجوع ، فإنه يقاسي من آلامه ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، وكثيراً ما قضى الليل ذوات العدد شاداً منطقته على بطنه من السغب لا يشكو ولا يتبرم ،

الذين بنى عظمته على أنفاس شقائهم قيسمع لها خشخشة كخشخشة
الأوراق الحافة التي يجرها وراءه ذيل معطفك الآن.

ثم وقف في مكانه وأطرق برأسه طويلاً فنظرت إليه روكسان
ذاهلة ووضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتألم يا مولاي ؟
قال : نعم فما نحن سعداء إلا في أنظار الناس واعتباراتهم ،
ولو كشف لهم من خبايا نفوسنا ما كشف لنا منها ، ولسوا بأيديهم
موقع الألم من أفتتنا لرثوا لنا أكثر مما نرثي لهم ، ولرأوا أننا
أولى الناس بالرحمة والإشفاق منهم ، ولি�تهم يقفون على هذه
الحقيقة فيعلموا أن السلام والنجاة وراحة النفس وهدوءها في
القناعة والإقلال ، فيستريحوا من هموم الأحقاد والألماء ، فإنهم
ما حسدونا ولا اشتعلت بين جوانحهم نيران الحقد والوجدة علينا
إلا لأنهم ظنوا أننا سعداء ، ولو نظروا إلينا بالعين التي نظر بها
إلى أنفسنا لتصرعوا إلى الله تعالى أن ينجيهم مما ابتلانا به ويريحهم
من همومنا وشقائصنا ؛ ثم مد يده إليها فصافحها وقال : أستودعك
الله يا سيدتي ، والتفت وهو منصرف إلى لبريه وكان لا يزال
واقفاً في مكانه فهتف به قلبه ، فقال له : لي كلمة أريد أن أقولها
للك فتعال معي ، فمشي وراءه فالتفت إليه وقال له : نعم إن
صديقي سيرانو بطل شجاع كما تقول روكسان ، ولكني علمت
من طريق خاص لا أستطيع أن أبوح لك به أن بعض أعدائه قد عزم
على قتلها غيلة فاذهب إليها وحدره ؛ وليقلل من الخروج من منزله
ما استطاع ، قال : ذلك مستحيل يا سيدتي ، لأنه لا يهاب شيئاً
ولا يخاف أحداً ، قال : لا تفارقه لحظة واحدة فحياته في خطر
عظيم ، قال : سأفعل ما أستطيع يا مولاي ، وسأشكر لك فضيلك
ما حييت ، ثم تناول يده فقبلها وانصرف .

فما سار إلا قليلاً حتى رأى « راجنو » مقبلاً عليه ، يولول

ويستغيث فسأله ما باله؟ فقال : خطب عظيم يا لبريه ، قال : أهي خطب؟ قال : قد أصيّب صديقنا قال : سيرانو؟ قال : نعم ، قال : قل كل شيء وأوجز ، قال خرجت اليوم من منزلِي ذاهباً إليه لزيارة في منزله ، فلما وصلت إلى رأس الشارع الذي يسكنه رأيته خارجاً من المنزل فهرعت إليه لأدركه ، حتى إذا لم يبق بياني وبينه بضع خطوات ، إذ سقط على رأسه من أحد المنازل المهجورة جدعاً عظيم ، يخيل إليّ أنه لم يسقط عفواً بل تعنده به متعمداً ، فصرخ لبريه : يا للنذالة والجبن ! ثم ماذا؟ قال : فدنت منه فرأيت ويا هول ما رأيت ذلك الصديق الكريم ، والرجل العظيم والشاعر النابغة البخليل ملقى على الأرض ، مضرباً بدمائه ، وقد فتح في رأسه جرح كبير ... قال : وهل مات؟ قال : لا ، ولكن حالي سيئة جداً ، فحملته إلى منزله أو إلى ذلك البحر الضيق الذي يسمونه مزلاً ... قال : وهل يتألم؟ قال : لا ، لأنه فقد رشه فلم يعد يشعر بشيء ، قال : ألم يزره طبيب؟ قال : أشفق عليه طبيب من جيرانه فراره ، قال : وارحماته لك أيها الصديق المسكين ! لا تخبر روكسان الآن بهذا الخبر ، وماذا قال الطبيب؟ قال : لم أفهم من كلامه شيئاً ؛ فإنه أخذ يردد كلمات كثيرة : حمى التهاب ، أغشية ... الخ آه يا سيدى لو رأيته وقد دارت برأسه الأربطة والضمائد وأصبحت صورته أشبه شيء بصور الموتى في قبورهم ، هيا بنا نذهب إليه فهو وحيد في غرفته وأخاف أن يحاول القيام من فراشه فيسقط ميتاً ؛ ثم ذهباً يدعوان ويتلهمان .

النجمة

جلست روكسان أمام منسجها في فناء الدير تتظر حضور

سيرانو وكان قد جاء ميعاده الذي يحضر فيه من يوم السبت من كل أسبوع وأخذت تقول : ما أجمل هذا اليوم ! إن الخريف ينحف عني كثيراً من آلامي التي يهيجها الربيع ويستثيرها ، فحمدأً للك يا لمي على ما منحت وصبراً على ما ابتليت ، وللك الملة العظمى في حالي رضاك وسخطك ونعمائك وبأسائك ، ما أعظم شكري للك يا سيرانو ! إنك رسول العناية الإلهية إلـيـَّ والعزاء الباقي لي في هذه الحياة بعدها فقدت كل عزاء وسلوى ! فليت الله يتولى جزاءك عنـي فـاني لا أستطيع أن أقوم بشكرـك .

وهـنا حضرت راهـبـتان تحـمـلـان بين أيديـهما المقـعـدـ الذـي اعتـاد سـيرـانـو أن يـجلسـ عـلـيـهـ عندـ حـضـورـهـ ، فـوضـعـاهـ وـرـاءـ مجـلس روـكـسانـ فـشـكـرـهـماـ وـانـصـرـفـتاـ ، ثـمـ دـقـتـ السـاعـةـ الـرـابـعـةـ فـأـصـغـتـ إـلـيـهاـ روـكـسانـ حـتـىـ اـنـتـهـتـ دـقـاتـهـاـ ثـمـ قـالـتـ : إـنـهـ سـيـأـنـيـ الـآنـ ، وـأـخـذـتـ تـرـدـدـ نـظـرـهـاـ جـهـةـ الـبـابـ هـنـيـهـةـ فـلـمـ يـحـضـرـ ، فـمـدـتـ يـدـهـاـ إـلـىـ عـلـبةـ اـبـرـهـاـ وـخـيـوطـهـاـ ، وـظـلـلـتـ تـقـولـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ نـفـسـهـاـ : قـدـ دـقـتـ السـاعـةـ الـرـابـعـةـ مـنـدـ دـقـاتـقـ وـلـمـ يـحـضـرـ ، أـينـ خـيـوطـيـ ؟ـ هـاـ قـدـ وـجـدـتـهـاـ ، هـذـاـ يـدـهـشـنـيـ جـداـ !ـ إـنـهـ الـرـةـ الـأـوـلـىـ الـتـيـ تـأـخـرـ فـيـهـاـ عـنـ مـيـعـادـهـ مـنـدـ خـمـسـةـ عـشـرـ عـامـاـ ، لـاـ بـدـ أـنـ تـكـوـنـ الـأـخـتـ «ـ مـارـتـ »ـ قـدـ أـزـعـجـتـهـ بـنـصـائـحـهـاـ وـعـظـائـهـاـ ، أـينـ كـسـتـبـانـيـ ؟ـ لـيـتـ شـعـريـ مـاـذـاـ حـدـثـ لـهـ ؟ـ قـدـ أـوـشـكـ الـظـلـامـ أـنـ يـخـيـمـ أـلـوـانـ الـخـيـوطـ قـاتـمـهـ فـلـاـ أـسـطـعـ التـمـيـيزـ بـيـنـ مـتـشـابـهـاتـهـاـ ، إـنـهـ مـاـ تـأـخـرـ عـنـ زـيـارـتـيـ قـبـلـ الـيـوـمـ .ـ وـلـكـنـ لـاـ بـدـ أـنـ يـحـضـرـ الـآنـ ، وـهـنـاـ سـقطـتـ وـرـقـةـ بـجـافـةـ مـنـ الشـجـرـ عـلـىـ مـنـسـجـهـاـ فـاصـفـرـتـ وـقـالـتـ : وـرـقـةـ مـيـةـ قـدـ اـنـقـضـيـ أـجـلـهـاـ فـهـوـتـ إـلـىـ مـسـتـقـرـهـاـ .ـ يـاـ اللـهـ لـاـ يـمـكـنـ لـشـيءـ مـنـ الـأـشـيـاءـ ..ـ إـنـ الـأـورـاقـ مـاـ بـلـاحـافـةـ الـمـتسـاقـطـةـ تـرـعـجـيـ جـداـ لـاـ يـمـكـنـ لـأـيـ شـيءـ مـهـمـاـ كـانـ أـنـ يـحـوـلـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـحـضـورـ .ـ

وما أتمت كلمتها حتى وقفت راهبة على رأس السلم وصاحت : السيد برجراك فانتعشت روكسان وقالت : ليدخل ، فدخل وهو مصفر الوجه يتوكأ على عصاه ويمشي ببطء شديد ، وقد أسلل قبعته على جبينه فسترت الضمادات المحيطة برأسه ، وكانت روكسان مشتغلة بترتيب منسجها ، فلم تلتقط إليه حتى جلس على مقعده وحاجها ، فقالت له بنغمة العاتب دون أن تلتقط إليه : هذه أول مرة تأخرت فيها عن ميعادك منذ خمسة عشر عاماً يا سيرانو ، فأجابها بصوت قاتم مظلم بخالق أن عله تصاحكاً رناناً : نعم يا سيلتي ، يا لغرائب الدهر ، ما كـ. أظن أن شيئاً في العالم حتى الموت ، يستطيع أن يحول بيني وبين الحضور إليك في ميعادي . آه إني أكاد أموت .. غيظاً وحنقاً .. ما أخرني عنك إلا ضيف ثقيل «يريد الموت» جاء لزيارتـ في وقت غير مناسب ، وما كنت أتوقع أن يـ في مثل هذه الساعة ، قالت : وكيف تخلصت منه ! قال : لم أتخلص منه حتى الآن ، وكل ما في الأمر أني اعتذرـ إليـ وقلـ له : إنـ اليوم يومـ السبت وهوـ المـيـعادـ الذي يـحبـ عـلـيـ فيهـ أنـ أـقـومـ بـزـيـارـةـ صـدـيقـ كـرـيمـ لاـ يـعـكـنـ أنـ يـحـولـ بيـنـ زـيـارـتـهـ فـيـ هـذـاـ المـيـعادـ حـائـلـ ، فـاذـهـبـ الآـنـ وـعـدـ إـلـيـ بـعـدـ سـاعـةـ وـاحـدةـ ، قـالـتـ : إـذـنـ سـيـطـولـ اـنتـظـارـهـ لـكـ إـذـاـ عـادـ إـلـيـ لـأـنـ لـنـ أـسـمـعـ لـكـ بـالـخـروـجـ مـنـ هـنـاـ قـبـلـ المـسـاءـ ، قـالـ : رـعـماـ اـضـطـرـرـتـ لـلـذـهـابـ قـبـلـ ذـلـكـ ، وـأـعـمـضـ عـيـنـيهـ وـأـطـرـقـ بـرـأسـهـ وـكـانـتـ الـأـخـتـ «ـمـارـتـ» مـارـةـ فـيـ تـلـكـ الـلـحظـةـ فـأـوـمـاتـ روـكـسانـ إـلـيـهـ بـرـأسـهـ فـجـضـرـتـ قـالـتـ لـسـيرـانـوـ وـهـيـ لـاـ تـرـازـلـ مـشـتـغلـةـ بـتـرـيبـ خـيوـطـهـ : إـنـكـ لـمـ تـمـزـحـ مـعـ الـأـخـتـ «ـمـارـتـ» كـعـادـتـكـ يـاـ سـيرـانـوـ ، فـأـنـتـفـضـ وـرـفـعـ رـأـسـهـ فـدـهـشـتـ «ـمـارـتـ» عـنـدـ رـؤـيـتـهـ وـفـغـرـتـ فـاهـاـ وـحـاـولـتـ أـنـ تـكـلـمـ فـأـشـارـ إـلـيـهـ بـالـصـيـمـتـ فـلـمـ تـفـهـمـ شـيـئـاـ وـلـكـنـهاـ

صمتت فقال لها بصوت ضخم مضحك : اقترب مني أيتها الأخت ، مالك تعرضين عني يا ذات العينين الجميلتين ، هاتي يدك البيضاء لأقبلها باسم البركة والعبادة لا باسم الحسب والغرام ، واقترب مني لأنه يخبرك خبراً غريباً جداً ، قالت وهي ترثي له ولحاله : وما هو ؟ قال : قد أكلت بالأمس لحماً ودسمًا فما رأيك ؟ فهزت رأسها وطلت تقول بينها وبين نفسها : وارحمته له ، إنه يكذب عليّ وربما مر به يومان لم يذق فيما طعم الخبز كما فعل في المرة السابقة ثم قالت له : أحب أن تزورني في غرفتي قبل خروجك من هنا فسأقدم إليك هدية من الحلوي جميلة جداً ، فقالت له روكسان أحذر أن تذهب إليها يا سيرانو فإنها تريد أن تعظلك . فقال سيرانو : أظن أن عطائكم الماضية يا مارت قد أخذت مأخذها من نفسي ، فقد أصبحت أقرب إلى الإيمان مني إلى الكفر ، ولذلك أسمع لك أن تصلي الليلة في معبدك من أجلـ ؟ فدهشت « مارت » وقالت : ماذا تقول ؟ أهزل أم تجد ؟ قال : قد فات وقت المazel ولم يبق أمامي إلا الجلد ، فانصرفت لشأنها وهي تعجب لأمره كل العجب وأقبل هو على روكسان وقال لها وهي لا تزال مكتبة على منسجها : ليت شعري هل أعيش ، وهل يعيش العالم ، حتى يرى ختام هذا النسيج ؟ قالت : كنت في انتظار سماع هذه الكلمة منك يا سيرانو ، إن نسيجي لا يتنهى حتى تنتهي ملحك وأحماضك .

وفي هذه اللحظة هبت ريح شديدة فتساقطت على الأرض أوراق كثيرة من الأشجار فانقضت روكسان وقالت : إن تساقط هذه الأوراق يحزنني جداً ، قال : أما أنا فعلى عكس ذلك لأنه يعجبني منها كثيراً أنها رغم حزنها على فراق أغصانها التي تركتها ورغم فزعها من الفناء الذي يستقبلها على وجه الأرض فهي تساقط

برقة ورشاقة وتفضي هذه السياحة القصيرة بين الحياة والموت
ماشة مختالة كأنها في حفلة رقص أو جمع شراب ، قالت :
لاني أسمع منك نغمة حزن يا سيرانو فهل أنت حزين ؟ قال :
لا ، وليس من عادتي أن أبدأ إلى الحزن في أي موقف من المواقف
حتى في الموقف الذي يحزن فيه الناس جميعاً ، قالت : فلنبع
الأوراق تساقط كيما تشاء وأسمعني جريدتك الأسبوعية فإني
في شوق عظيم إليها ، قال : اسمعي يا سيرانو . وكان الألم قد
ناى منه مثلاً وعظيماً وببدأ الذهول يخت على عقله فأنشأ يقول :

يوم السبت : أصيب الملك بمرض الحمى علىثر ثماني أكلات
أكلها من عنب « سيت » فحكم الطبيب على مرضه بطعنة
مبضع في قلبه لاقترافه جريمة الاعتداء على صاحب الحلالة .

يوم الأحد : أشعلوا ليلة الحفلة الكبرى في قصر الملك ثلاثة
وستين وسبعين شمعة بيضاء . يقولون إن جيوشنا قد انتصرت
على جيوش جان التنسوي . شنق أربعة من السحرة . حقنوا كلب
السيدة « دانيس الصغير » .

فاعتذرته روكسان وقالت : ما هذه الأخبار يا سيرانو ؟
فاستمر في كلامه يقول :

يوم الإثنين : لا شيء سوى أن « ليجدامير » استبدل بعشيقها ،
فتململت روكسان وقالت : ما هذا الذي تقول ؟ إنك تخزح يا
صديقي ، فلم يلتفت إليها وظل يقول :

يوم الثلاثاء : انتقل البلاط كله إلى « فونتيلو » .

يوم الأربعاء : قالت السيدة « دي متجلة » للكونت دي

فيسك «لا» !

يوم الخميس : توجت «فانسيني» ملكرة على فرنسا أو ما هو في معنى ذلك .

يوم الجمعة : قالت السيدة «دي متجلأ» للكونت دي فيسك «نعم» .

وهنا ثقلت عيناه ، واحتبس صوته ، واهتز هزة شديدة ، ثم سقط رأسه على صدره ، وساد من حوله سكون عميق ، فاستغرقت روكسان سكوتها والتفت وراءها فرأته على هذه الحالة ولم تكن قد نظرت إليه قبل هذه اللحظة فارتاعت وهرعت إليه ووضعت يدها على عاتقه ونادته : سيرانو ! فانتفض ورفع رأسه وظل يدبر يديه حول قبته ويضغطها ضغطاً شديداً ويقول : لا شيء ، أوْكِد لك يا سيدتي أن الأمر بسيط جداً ، قالت : قل لي ما بالك يا سيرانو ؟ وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك ؟ قال : لا شيء ، إنه الجرح القديم الذي أصبت به في معركة «أراس» لا يزال يعاودني من حين إلى حين ، حتى الآن ، فنتهدت ، وأرسلت بصرها إلى السماء ، ثم قالت : كل منا له جرح قديم يا سيرانو ، غير أن جرحك في جسمك ، وجراحي هنا دائماً لا يندمل أبداً ، وأشارت إلى قلبها ، ثم قالت : هنا كتاب الوداع الأخير الذي كتبه إليّ قبل موته قد تشمعت وتقبض واصفر ورقه ، ولا تزال آثار القطرتين : قطرة الدمع ، و قطرة الدم ظاهرة فيه . فارتعد سيرانو وقال : كتابه الأخير ؟ وشخص بيصره إلى السماء كأنما يتذكر شيئاً بعيداً ثم قال : ألا تذكري يا روكسان أنك كنت وعدتني مرة بإطلاقعي على هذا الكتاب ؟ قالت : نعم أذكر ذلك ، قال : هل لك أن تفي بوعدك الآن ؟

قالت : هاهو ذا ، ومدت يدها إلى صلتها فأخرجت الكتاب من كيس صغير حريري معلق في عنقها ، وأعطته إياه ؛ ثم عادت إلى مقعدها .

وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على أكتاف الدير ، فأخذت روكسان ترتب خيوطها وإبرها لتضع في علبها وأخذ سيرانو يقرأ الكتاب بصوت عال رنان كأنما هو ينطبه أو يهتف ويناجي ويقول : .

الوداع يا روكسان ، فإنني سأموت عما قليل ، وربما كانت هذه الليلة آخر ليلي في الحياة .

كنت أرجو أن أعيش بجانبك ، لأنك حراسة سعادتك التي عاهدت نفسك على أن أكفلها لك ما حيت ، فحالت المقادير بيبي وبين ذلك ، فليت شعري ماذا يكون حالك من بعدي ؟ إني لا أخاف الموت من أجلي بل من أجلك ويخيل إليّ أنك ستقضيني من بعد موتي أيامًا شديدة عليك وعلى نفسك الرقيقة الحساسة ، وهذا كل جزعي من الموت . فوارحمته لك أيتها الصديقة المسكونة !

وكانت روكسان تصغي إلى قراءاته ، ذاهلة مدهوشة ، وتقول بينها وبين نفسها : ما أغرب صوته ، وما أعظم تأثيره إنه يقرأ وكأنه يحدثني ويناجيني ، ويخيل إليّ أن وراء هذه النغمة الغريبة التي ينطق بها سراً كامناً في أعماق نفسه ، واستمر هو في قراءته يقول :

ستغتمض عيناي بعد قليل ، وستنطفئ تلك النظارات التي

كانت مرآتك الصقلية التي تراءى فيها صورتك البدعة الساحرة
وترسم فيها دقائق حستك ، وأسرار جمالك . فمن لك بمرأة
ترى فيها نفسك بعد أن تمتليء عيناي بتراب القبر ؟

إن بين جنبي كنزاً ثميناً من حبك لم أستطع أن أكشف لك
إلا عن مقدار قليل من جواهره ولآلته ، و كنت أود أن أفرغه
جميعه بين يديك قل موتي ولكن ماذا أصنع وقد أجعلني الموت
عنه ولا حيلة لي في قضاء الله وقدره .

الوداع يا روكسان ، الوداع يا حبيبي ، الوداع يا حبيبي ،
الوداع يا أعز الناس عليّ وآثرهم في نفسي ، إن قلبي لم يفارقك
لحظة واحدة في حياتي وسيبقى ملازماً لك بعد مماتي ، فليكن
عراقي عنك أن روحي سترفرف عليك وتحوم حولك في كل مكان
 تكونين فيه ، فكأننا لم تفترق وكأن حجاب الموت المسبل دوننا
وهم من الأوهام وباطل من الأباطيل .

وكان قد ذهل عن الكتاب الذي في يده وعن كل ما يحيط
به من الأشياء ولم يبق في خياله سوى أن ينادي المرأة التي يحبها
ويفضي إليها بأسرار نفسه ويودعها الوداع الأخير ، فأغمض
عينيه واستغزق في شعوره ووجوده واستحال صوته إلى صوت
غريب ، لا يشبه الأصوات في رنته ونغمته لأنه صوت الروح
وهو تائها ونفتاتها المتصاعدة إلى آفاق السماء ، فظلت روكسان
تضطرب وتترعد وتقول بينها وبين نفسها : إنها نغمة غريبة جداً
تدركني بنغمة مثلها سمعتها في ساعة من ساعات حياتي الماضية
فليت شعري متى كان ذلك ؟

وكان الظلام قد نشر ملاعنه السوداء على أكتاف الدير فالنفت

إليه وحدقت النظر فيه فلمحت بياض الكتاب في يده فعجبت له كيف يستطيع القراءة في هذا الظلام الحالك ، فنهضت من مكانها ومشت نحوه تختلس خطواتها اختلاساً حتى بلغته فوققت بجانبه فرأته عينيه مغمضتين ورأته لا يزال مستمراً في قراءته فاشتد ذعرها وخوفها ووضعت يدها على كتفه وقالت له : كيف تستطيع القراءة والظلام حالك وعيناك مغمضتان ؟ فانقضت انتفاضة شديدة فسقط الكتاب من يده وسقط رأسه على صدره .

وساد بينهما سكون عيق ذهل كل منهما فيه عن نفسه ثم أخذت روكسان تستفيق شيئاً فشيئاً وتقول بينها وبين نفسها : آه ماذا أرى ! إن الأمر هائل جداً ! إن النغمة التي أسمعها منه الآن هي بعينها النغمة التي كانت ترن في أذني ليلة الشرفة منذ خمسة عشر عاماً ! لا بد أن يكون هو صاحبها . آه ما أعظم شفائي ! لقد فهمت الآن كل شيء وليتني ما فهمت شيئاً ، ثم وقفت أمام سيرانو صامتة مطرقة وحتى استفاق من غشيتها فتقدمت نحوه وأخذت يده وقالت له : لا تخف عني شيئاً يا صديقي فقد علمت الحقيقة المؤلمة التي لا ريب فيها ، لقد كنت أنت الذي ناجاني ليلة الشرفة وحدثني عن الحب وكشف لي عن خفايا القلب الإنساني ؛ فقاطعها وهو يرتجف ويرتعد وقال : لا ... لا ... لا أكن أنا ، قالت : وكان الظلام في تلك الليلة حالكاً جداً فلم أستطع أن أتبينك لأعلم أنك أنت الذي يحدثي ويناجي ، فصاح : لا ، أقسم لك ، قالت : وكانت تلك الكلمات العذبة الجميلة التي سحرتني وملكت عليّ شعوري ووجودي كلماتك . فصرح : لا بل أنت ماته ، قالت : وذلك الصوت الموسيقي الذي كان يرن في أذني رنين القيثار الإلهية في آذان سكان السماء كان صوتك . قال : لا . قالت : وتلك الرسائل البليغة المؤثرة التي جشمتني

مشقة السفر من باريس إلى أراس كانت رسائلك؟ قال : لا ،
قالت : وذلك الكتاب الذي قرأته الآن بتلك النغمة العذبة الجميلة
كان كتابك . قال : لا تصدق ذلك يا سيدتي فما أذكر أنني
أحببتك في حياتي قط ، قالت : أحببتي ولا تزال تحبني حتى
الساعة . قال : ذلك مستحيل لأن مثلي لا يحرو على أن يجب مثلث .
قالت : ذلك ما حملتك على كتمان أمرك وتمثل هذا الدور المحزن
الأليم . قال وقد بدأ صوته يضعف ويتهجد : إنك واهمة يا
روكسان ، قالت : ما أنا بواهمة ولا مخدوعة ، ولم كتمت أمرك
عني هذه السنين الطوال ما دمت تحبني وما دام هذا الكتاب كتابك
وهذه الدمعة دمعتك؟ قال : ولكن الدم دمه ، قالت : قد اعترفت
من حيث لا تدرى ، فوارحمتنا لك أياها البائس المسكين
وأطرقت برأسها إطرافاً طويلاً لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدها
نفسها فيه ، ولأنهما لكتلك إذ دخل لبريه وراجنو وهم يصيحان
ويولولان حتى دنوا من سيرانو فقال لبريه : ماذا صنعت بنفسك
أياها المسكين؟ ولماذا جئت إلى هنا وقد أوصاك الطبيب بعلامة
فراشك لا تبرحه لحظة واحدة؟ فصاحت روكسان : الطبيب!
ولماذا؟ قال لبريه : ألا تعلمين ما حل به يا سيدتي حتى الآن؟
قالت : لا أعلم شيئاً ؟ فأراد أن يقص عليها القصة فمقاطعه سيرانو
وقال له : أتدري يا لبريه لم جئت إلى هنا رغم أوامر الطبيب؟
قال لا ، قال لأنلو على روكسان الجريدة الأسبوعية التي اعتدت
أن أتلوها عليها يوم السبت من كل أسبوع ولا أستطيع أن أخالف
 وعدى لها ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : إنني لم أتمم لك
جريدة الأسبوعية فاسمح لي بإتمامها ، ثم أنشأ يقول : وفي
يوم السبت الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٥٥ «قتل
المسيو سيرانو دي برجراك» .

وهنا حسر قبعته عن رأسه فظهرت الأربطة والضمائمه المحيطة به مضرجة بالدم ، فذعرت روکسان وحنت عليه وقالت : ما صنعوا بك يا صديقي ؟ قال : كنت أتنى طول حياتي أن أموت في ميدان حرب بضربة سيف من يد بطل ، فقضى الله أن أموت في زقاق ضيق بجذع شجرة من يد خادم لا تكون قد حرمت كل شيء في حياتي حتى الميتة التي أحباها ، وأطرق برأسه ثانية وظل على ذلك ساعة ، وقد ساد من حوله سكون عجيب لا تسمع فيه إلا معمعة الأحشاء المتقدمة في قلوب الجاثين حوله .

ثم استفاق قليلاً فرفع رأسه وفتح عينيه فرأى راجنو جائياً تحت قدميه يبكي ويتحبب فقال له : لا تبك يا راجنو وقل لي : ما مهنته اليوم ، فإن لك في كل يوم مهنة جديدة . قال : أنا الآن خادم عند « مولير » ، ولكني سأترك خدمته منذ الغد ، قال : لماذا ؟ قال : لأنه لص من لصوص الأدب ، وهم عندي أقبع اللصوص وأسفلهم ، قال وهو يبتسم : هل سرق من شعرك شيئاً ؟ قال : لا ، بل من شعرك أنت ، فقد سطا على روایتك آخرين » فأخذت منها موقفاً كاملاً « وضمنه روایته الجديدة « إسكابين » التي مثلت ليلة أمس ، قال : لقد أحسن فيما فعل ، وماذا كان وقع ذلك الموقف في نفوس الجماهير ؟ قال : ما زالوا يضحكون حتى رحموا أنفسهم . قال : ذلك كل ما يهمني ، فلقد قدر لي طول عمري أن يكون دوري في روایة الحياة دور الملن الذي لا يغدو الجمهور شيئاً ، وهو كل شيء ، ثم التفت إلى روکسان وقال لها : أتذكري تلك الليلة التي كنت أحدثك فيها بلسان كرستيان ؟ قالت : نعم أذكرها ولا أذكر شيئاً سواها ، قال : إنها رمز حياتي من أولها إلى آخرها ؛ صعد كرستيان منذ خمسة عشر عاماً إلى شرفتك ليتناول القبلة التي سمحت له بها

مكافأة له على تلك الكلمات البليغة المؤثرة التي أنا صاحبها ومتذكرها ، واليوم يتمتع « مولير » بتهاف الجماهير وتهليلهم لاعجاباً بتلك القطعة المزالية البدعة التي خطها قلمي ، وما أنا بآسف على ذلك ولا واجد فكريستيان في جميل فيجب أن ينال هو القبلة ومولير شاعر شهير فيجب أن يكون هو صاحب القطعة . والتمنت حوله فرأى الراهبات داخلات إلى الكنيسة في ملابسهن البيضاء وهن يرتلن صلواتهن على نعمات « الأرغن » فأصغى إلى أصواتهن ساعة ، ثم تأوه طويلاً وقال : آه ما كنت أعباً بالحياة ولا آسف على شيء فيها لولا الموسيقى وروكسان ، ولئن كان صحيحاً ما يقولون من أن في السماء موسيقى كما في الأرض ، وأن الصديقين اللذين يفترقان في هذه الدار يتقيان في الدار الآخرة غداً فليس ورأي ما آسف على فراقه . فصاحت روكسان : أبق في الحياة يا سيرانو فإنني أحبك ، قال : ذلك مستحيل إلا إذا استطاعت كلمتك هذه أن تمحو قبحي ودمامي ، كما روا في بعض الأساطير أن أميراً دميم الخلق سمع مرة من يقول له : إني أحبك ، فتلاشى قبحه بتأثير تلك الكلمة وأصبح جميلاً وضيئاً ، ولو أنني عشت بعد اليوم ألف سنة ما نقص ثقل أنفي قيراطاً واحداً ، فبكت واشتد نشيجها وقالت : اغفر لي ذنبي يا سيرانو ، فقد كنت السبب في جميع ما حل بك في حياتك من المصائب . قال : لا ، بل بالعكس فلقد قضيت حياتي كلها محروماً لله عطف المرأة وحناها حتى إن أمي كما حدثوني لم تكن تستطيع أن تراني جميلاً كما يرى الأمهات أولادهن المشوهين ، ولو كانت لي أخت أو عمة أو خالة لكان شأنهن معي ذلك الشأن ، ولم أر يوماً من الأيام في عيون النساء جميعاً جميلات كن أو دميمات غير نظرات الهراء والسخرية والنفور والاشمئزاز ، وأنت المرأة الوحيدة التي

استطاعت أن تتخذني صديقاً واستطعت أن أبدأ من عطفها ورحمتها إلى ظل ظليل فما أعظم شكري لك ، فقالت : عش يا سيرانو فإني أحبك ، بل ما أحببت في حياتي أحداً سواك ، وما لبست ثوب الحداد خمسة عشر عاماً إلا من أجلك . قال : لا تخاولي الغدر بـ كرستيان يا سيدتي واحذرِي أن يحيف حزنك عليه وبكاوْك على مصرعه فإنه صديقي ، وكل ما أطلب إليك : أن تصمي إلى شارات حدادك شارة صغيرة من أجل ليكون حزنك عليّ جزءاً من حزنك عليه ، فصاحت : آه ما أشقاني لقد أحبيت في حياتي حبيباً واحداً فقدته مرتين .

وكان كوكب الليل قد أشرق من مطلعه ، فانبسطت أشعته في فناء الدير فانتعش سيرانو حين رأه وقال : ها هو ذا صديقي « فييه » قد أرسل إليّ أشعته لتحملني إليه فشكراً له على ذلك ، سأصعد الليلة إلى السماء على نعش جميل من تلك الأشعة الفضية اللمعة دون أن أحتج إلى تلك الآلات الرافة التي سردها على الكونت دي جيش ، وسيكون مقامي هناك في ذلك الكوكب الجميل مع تلك النقوس العظيمة ، التي أحبها وأجلها : سفراط وأفلاطون وغاليلي وجميع الذين ماتوا ضحايا صدقهم وإخلاصهم .

وهنا انتخب لبريه وقال : وأسفًا عليك أيها الصديق الكريم ! وما أشد ظلمة الحياة من بعدك ! فانتبه إليه سيرانو وقال له : لا تخزن عليّ كثيراً يا لبريه فإني ذاهب للقاء صديقي كاربون دي كاستل وسائر أبناء وطني الذين ماتوا ميتة الشرف والخمار في ميدان أراس وسيكون مجتمعنا هناك جميلاً جداً لا يكدره علينا مثل ثقيل ولا نبيل جاهل ولا شاب معور .

وصمت صمتاً طويلاً كان يعاني فيه من الآلام ملا يحتمله

بشر ، ثم ثار من مكانه هائجاً مضطرباً وجرد سيفه من غمده وأخذ يصبح : لا لا ، لا أريد أن أموت على هذا المقعد ميته العاجز الجبان ، غلغم أصدقاؤه ، ونهضه وا بنهوشه ، وحاول راجنو أن يمسكه فدفعه عنه وأسند ظهره إلى شجرة ضخمة وقال : دعوني فإني أريد أن أموت واقفاً . وأخذ ينظر أمامه ويحدق النظر كأنما يرى شيئاً مقبلاً عليه ، ثم قال : تعال إليها الموت تقدم ولا تخف ، فقد أصبحت رجلاً ضعيفاً خائراً لا قبل لي بعواثتك ومغالبك ، تقديم فما أنا بسيرانو دي برجراك إنما أنا خياله الماضي وصورته الفضيلة ، فهل بلغ بك الجبن أن تخاف الصور والخيالات ؟ لقد ضعف في يدي ذلك السيف الذي كنت أقاتلك به وأصبح رأسي ثقيلاً ويداي مغلولتين ، وكأن قدمي مصبوتان في قابل من الرصاص ، أقبل ولا تخف ، مالي أراك تنظر إلى أنفي نظر الساخر المازىء . أشماته هي إليها الساقط الجبان ، ماذا تقول إنك أقوى مني ، نعم ما أنكرت عليك ذلك ، ولكني على هذا سأقاتلك وأثبت ، لا لأنني أطمع في أن أنتصر عليك ، بل لأنني أريد أن أموت ميته الأبطال من قبلي . ثم أخذ يدبر عينيه يمنة ويسرة ويقول : من هؤلاء ! مرحباً بكل أيتها الرذائل ، لقد عرفتكم يا أعدائي القدماء ؛ ما أكثر عدوكن وأقبح وجهوكن ، نعم سأموت ، ولكن بعد أن شفيت منك غليلي ومثلت بكل أتبع تمثيل .. اغرن من وجهي قبحكن الله وقبع صوركن وأزياءكن .

وظل يطعن بسيفه يميناً وشمالاً ، وأمام ووراء ويقول : خذ إليها الكذب ، خذ إليها الطمع ، مت إليها الغدر ، تباً لك أيتها السافلة ، سحقاً لك أيتها الحياة .

وظل يدور حول نفسه ساعة حتى بلغ منه الجهد فسقط بين

أذرع لبريه وراجنو ، وظل على ذلك هنيهة ، ثم فتح عينيه وحدق النظر أمامه طويلاً وقال : تقدم إليها الموت وخذ ما تريده مني ، أتدري ماذا تستطيع أن تسلبني ! إنك تستطيع أن تسلبني حياني وجسمي ، وهذا السيف العزيز عليّ ، وهذه الريشة التي وضعتها يد السخار في قبعتي بل جميع ما تملك يدي ، ولكن شيئاً واحداً لا تستطيع أن تسلبني ، وسيرافقني في سفرني التي انتوينها إلى السماء حتى أقف بين يدي الله تعالى رافع الرأس عزة وفخاراً ، وهو ... وهنا عجز عن النطق فحاول أن ينطق الكلمة التي أرادها فلم يستطع ، فانحنت عليه روكسان وقبلته في جبينه وأرسلت دمعة حارة على وجهه وقالت : وما هو يا سيرانو ؟ ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرآها فابتسم وقال : حريري واستقلالي ! ثم خفت قلبه الحقيقة التي لم يتحقق بعدها .

وكذلك انقضت حياة هذا الرجل العظيم كما تنقضي حياة أمثاله من العظاماء لم يتمتع يوماً واحداً بروبة مجده وعظمته حتى إذا قضى سمح له التاريخ بعد ماته بما ضن به عليه في حياته . أما روكسان فلم يعلم الناس من أمرها بعد ذلك شيئاً سوى أن مقعدها الذي كانت تقدّم عليه أمام منسجها قد أصبح حالياً مفترأ ، فلم يعرفوا : ألمت جوف محابها تدعوه الله تعالى ليلاً ونهاراً أن يلحقها بصديقها ؟ أم رقدت بجانبه في مقبرة الدير الرقدة الدائمة ؟

تمت



فهرس

الفصل الأول

١٧	حاتة بوروجونيا
١٩	طاهي الشعاء
٢٢	سيرانو
٢٤	روكسان
٢٩	البطل
٣٥	الأنفيات
٤١	المبارزة الشعرية
٤٤	سريرة سيرانو
٥١	باب نيل

الفصل الثاني

٥٥	المتشاعرون
٥٦	دواوين الشعاء
٥٨	الموعد
٦١	بوس الأدباء
٦٥	اللقاء
٨٠	نفس الشاعر
٨٥	المعركة النفسية

الفصل الثالث

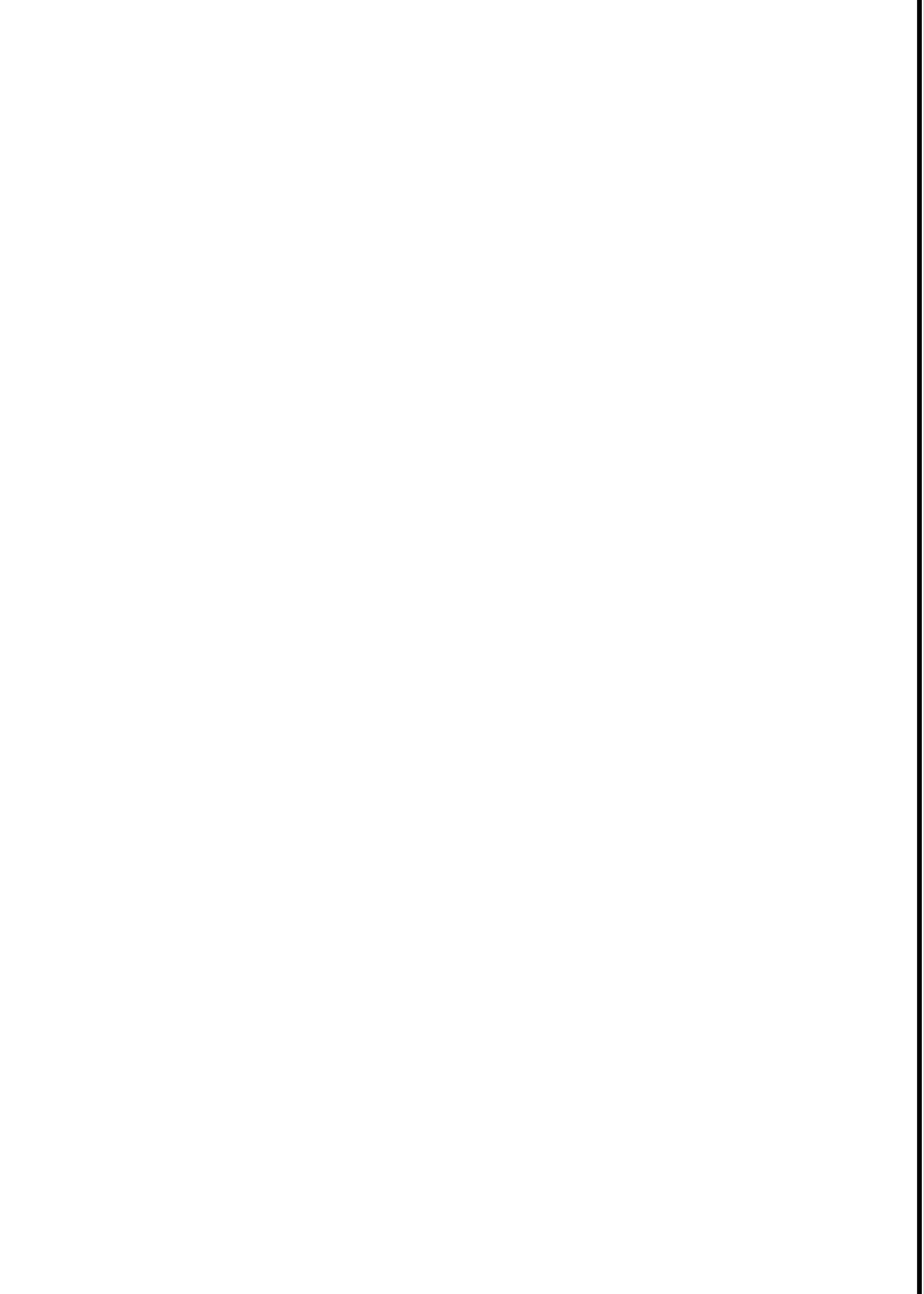
٩٩	حرقة الأدب
١٠٤	دهماء المرأة
١١٣	الشرفة
١٢٠	البلاغة
١٢٦	القبلة
١٣١	سياحة في القمر

الفصل الرابع

١٤١	الميدان
١٤٣	الوطن
١٥٠	الدمعة
١٥١	جواز سفر
١٥٥	الوليمة
١٥٩	حقيقة الجمال
١٦٣	المكافحة
١٦٦	الفاجعة
١٦٨	المعركة

الفصل الخامس

١٧١	بعد خمسة عشر يوماً
١٧٩	النغمة





السلسلة الأدبية

- | | |
|--------------|------------------|
| ٦ الشاعر | ١ العَبرات |
| ٧ النظَّرات | ٢ الفضيَّلة |
| الجزء الأول | ٣ المختارات |
| ٨ النظَّرات | ٤ في سَبيل التاج |
| الجزء الثاني | ٥ مَاجِدُولين |
| ٩ النظَّرات | |
| الجزء الثالث | |

